Mngool.com

مجلة

الجمعية التاريخية السعودية

العدد العاشر/ السنة الخامسة

١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م

فهرس العدد

إبداعات الفنان المسلم في ضوء نماذج لمناظر الأمومة في الفن الإسلامي

(دراسة أثرية فنية)

د. عزة عبد المعطي عبده

أستاذ مساعد بكلية أعداد المعلمات بالرياض ومدرس بقسم الآثار الإسلامية بكلية الآثار

جامعة القاهرة.

Abstract

This research contains examples of motherhood scenes of Islamic Art that are created by Muslim artist who carried them out on artistic masterpieces and drawings of manuscripts .These scenes distinguished among scenes of bearing , feeding , accompanying and dialogue. By studying and analysis shows that these drawings and artistic masterpieces, we can find that Muslim artist is creative and does the best in these artistic drawings. The artist appeared greatly the feelings of motherhood in each scene that worths the study .

الملخص

يشمل البحث على دراسة لنماذج من مناظر الأمومة في الفن الإسلامي التي أبدعها الفنان المسلم،والتي نفذها سواء على التحف الفنية أوفي رسوم المخطوطات الإسلامية.وقد تنوعت تلك المناظر سواء أكانت مناظر للولادة،أو مناظر للحمل،أو مناظر للاحتضان،أو مناظر المصاحبة و الحوار.و بدراسة تلك اللوحات والتحف الفنية وتحليلها وجد أن الفنان المسلم قد أبدع وأجاد رسم هذه الصور الفنية بشكل كبير.فالفنان في كل منظر قد مثل بجلاء مشاعر الأمومة بأسلوب مرهف الحس ، يستحق أن تسلط عليه الأضواء .

مقدمة :

إن دراسة الفنون الإسلامية وما تحويه من تحف ولوحات فنية من الموضوعات التي تستحق الدراسة والبحث لأنها تعكس بجلاء تراث وحضارة الأمة الإسلامية،الذي يجب الحفاظ عليه ولاسيما في ظل الظروف الحاضرة التي يمر بها العالم الإسلامي الآن خاصة إذا ارتبطت دراسة الفنون الإسلامية بالمشاعر الإنسانية الصادقة مثل موضوع " الأمومة".

والواقع أن الفنان المسلم ترك لنا عددا كبيرا من اللوحات والتحف الفنية المستحقة للدراسة والمتعلقة بالأمومة عند الإنسان،فأردت أن يكتمل موضوع الأمومة بعمل البحث الثاني المتمم والمكمل للبحث الأول،ولاسيما انه ليس هناك دراسة مستقلة تتناول مناظر الأمومة بالبحث والتحليل من قبل .

يهدف هذا البحث إلى دراسة مناظر الأمومة وتحليلها،وإلقاء الضوء على إبداع الفنان المسلم لرسمه لتلك المناظر في لوحاته وتحفه الفنية وتحليل مفردات تلك اللوحات. ودراسة العلاقة بين الموضوع الأساسي للوحات والتحف الفنية وربطها بمناظر الأمومة المرسومة بتلك اللوحات والتحف الفنية،وإلقاء الضوء على قدرة الفنان المسلم على إبراز مشاعر الأمومة وفق أسلوب فني دقيق للغاية.ومن الضروري قبل أن نتناول بالدراسة الفنية تلك المناظر الإشارة إلى معنى الأمومة في اللغة،ومكانة الأم قبل الإسلام وبعده وعلاقة الطفل بأمه.

تعريف الأمومة في اللغة:

الأمومة لغة مشتقة من الأم،وأم كل شيء معظمه،ويقال لكل شيء اجتمع إليه شيء آخر فضمه:هو أم له(فأمه هاوية)[١]، والأمومة عاطفة ركزت في الأنثى السوية تدفعها إلى مزيد من الرحمة والشفقة[٢].والأمومة مشتقة من كلمة - أم- ووردت كلمة أم في القرآن الكريم ومنها (أم الكتاب) وهي الفاتحة، (أم القران) علم الكتاب

---

(١) سورة القارعة ، أية ٩ .

(٢) الانترنت، الشبكة الإسلامية ، الأسرة السعيدة ، الأم في الإسلام ، صـ١من ٢ .
http://www.islamweb.net/family/mother/mother3.htm

قال تعالى (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)[١].وقيل الكتاب كله (وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم)[٢] وقيل المحكم من آياته.وقيل اللوح المحفوظ.والعرب تقول أصل كل شيء: أمه.وأم القرى هي مكة المكرمة قال تعالى (ولتنذر أم القرى)[٣].ويقال للنهر الكبير الذي تحمله السواقي منه:الأم.وتسمى سواقيه الرواضع.ويقال للقوم المتفقين على الأمر بنو أم وللمختلفين بنو علة،والعلة الضرة.ويقال لبني الضرائر بنو العلات.ولبني الأم الواحدة أم[٤].

وتطلق على الوالدة وتطلق على الجدة.يقال حواء أم البشر وتطلق على الشيء يتبعه ما يليه ويقال هو من أمهات الخير.من أصوله ومعانيه.ويقال في الذم والسب لا أم لك. وقد تكون للمدح والتعجب.والأمة الوالدة.وجماعة من الناس أكثرهم من أصل واحد.[٥] يقال تأمم فلان أم، أي اتخذها لنفسه أما.وقيل تفسير الأم في كل معانيها أمة،لأن تأسيسه من حرفين صحيحين والهاء فيها أصلية.ولكن العرب حذفت تلك الهاء إذا أمنوا اللبس.ويقول بعضهم في تصغير (أم)أميمة.والصواب أميهة ترد إلى أصل تأسيسها. ومن قال أميمة صغرها على لفظها[٦]. وأمه قصده كائمته . وأممه و تأممه. ويممه و تيممه والمئم بكسر الميم الدليل الهادي، والأم وقد تكسر الوالدة و أم كل شيء أصله وعماده .وأمت أمومة صارت أما و تأممها واستأمها اتخذها أما.[٧]

والأم (امرأة الرجل المسنة) والأم (المسكن) ومنه قوله تعالى فأمه هاوية أي مسكنه النار وقيل أم رأسه هاوية فيها أي ساقطة والأم (خادم القوم)يلي طعامهم وخدمتهم

---

(١) سورة الرعد ، آية ٣٩ .

(٢) سورة الزخرف ، آية ٤ .

(٣) سورة الأنعام ، آية ٩٢ .

(٤) ابن سيده ابو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي،ت ٤٥٨هـ ، **المخصص** ، جـ٤ ، بيروت : دار الأوقاف الجديدة،(د.ت)،ص ص ١٨٠- ١٩٠؛مها عبد الله عمر الأبرش:**الأمومة ومكانتها في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة**،جـ١ ،مكة المكرمة:جامعة أم القرى،(١٤١٧هـ/١٩٩٦م)،صـ٣٨ .

(٥) الزيات، إبراهيم مصطفى حسن، **المعجم الوسيط**، جـ١، طهران :المكتبة العلمية، (د.ت)، صـ٢٧ .

(٦) الزبيدي ،محب الدين أبي الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي، **تاج العروس من جواهر القاموس** ، جـ٨ ، بيروت : دار صادر،(د.ت)،صـ ١٩١:الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد ٢٨٢-٣٧٠هـ، : **تهذيب اللغة** ، حققه إبراهيم الأبياري ، جـ ١٥، القاهرة :دار الكاتب العربي،(١٩٦٧م) ، صـ ٦٣٠ .

(٧) الفيروزابادي ،مجد الدين بن يعقوب ، القاموس المحيط ،جـ٤ ، بيروت : دار الجيل،(د.ت)،ص ص ٢٠ ، ٢١ .

رواه الربيع عن الشافعي وأنشد للشنفرى:

وأم عيال قد شهدت تقوتهم * اذا أحترتهم أتفهت وأقلت

ومنهم من يقول(الامهة)فألحقها هاء التأنيث قال قصي بن كلاب :

عند تناديهم بهال وهبي * أمهتي خندف والياس أبي[1]

والأم والأمة : الوالدة وأنشد ابن بري

تقبلها من أمة و لطالما * تنوزع في الأسواق منها خمارها

والجمع آمات وأمهات،زادوا الهاء،وقال بعضهم الأمهات فيمن يعقل،والأمات بغير هاء فيمن لا يعقل . فالأمهات للناس والأمات للبهائم،وربما جاء بعكس ذلك كما قال السفاح اليربوعي في الأمهات لغير الآدميين

قوال معروف وفعاله * عقار مثنى! أمهات الرباع

وقال ذو الرمة :

سوى ما أصاب الذئب منه و سربه * أطافت به من أمهات الجوازل

فاستعمل الأمهات للقطا،واستعملها اليربوعي للنوق[2]، وغير هذا كثير جدا فلا خطأ ولا تجاوز في الاستعمال الجاحظي،واحتفلت العربية بالأم، كما احتفلت بالأب من الناحية اللغوية،فأضيفت الأم، كما أضيف الأب إلى جمهرة من الكلم لخلق معان ودلالات جديدة، كقولهم: أم الكتاب،وأم الكبائر، وأم القول وغير ذلك.[3] ويقال ما كنت أما ولقد (أممت) بالفتح من باب رد يرد (أمومة) و تصغير الأم (أميمة) ويقال يا (أمت)لا تفعلي ويا أبت افعل يجعلون علامة التأنيث عوضا من ياء الإضافة ويوقف عليها بالهاء،ورئيس القوم (أمهم)،وأم النجوم المجرة وأم الطريق معظمه وأم الدماغ الجلدة التي تجمع الدماغ و

---

(١) الزبيدي ، تاج العروس ، جـ٨ ، ص ص ١٨٩ – ١٩٠ .

(٢) ابن منظور،جمال الدين محمد بن مكرم ت ٧١١هـ،لسان العرب ، جـ١ ، مراجعة عبد الله علي الكبير ، محمد أحمد حسب الله وأخرون ، القاهرة : مطبعة دار المعارف،(١٤٠١هـ/١٩٨١م)،صـ ١٣٥؛السامرائي،إبراهيم ،،من معجم الجاحظ ، العراق،دار الرشيد للنشر،(١٩٨٢م)، صـ٢٣ .

(٣) السامرائي ،معجم الجاحظ ،صـ ٢٣ .

يقال أيضا أم الرأس،وقوله تعالى(هن أم الكتاب)ولم يقل: أمهات لأنها على الحكاية ،كما يقول الرجل : ليس لي معين فتقول نحن معينك فتحكيه.[١]

مكانة الأم في العصور القديمة

كانت للأم مكانة عظيمة منذ أقدم العصور،وفي ظل أقدم الحضارات فالمجتمع المصري القديم كنموذج لأقدم الحضارات الإنسانية لم ينس أبدا فضل الأم على أولادها، ولاحق الأم على من ولدتهم وحملتهم في بطنها، وهنا يحدثنا "آني" شيخ الدولة الحديثة وحكيمها،موجها النصح لابنه في عبارة بليغة،هي وإن كانت بسيطة إلا أنها مليئة بالحكمة والموعظة الحسنة،فيقول :" أطع والدتك واحترمها ، فإن الإله هو أعطاها لك،لقد حملتك حملا ثقيلا ناءت بعبئه وحدها،دون أن أستطيع لها عونا،وعندما ولدت قامت على خدمتك أمة رقيقة لك،ثم أخذت تتعهدك بالإرضاع ثلاث سنوات طوال، وعندما اشتد عودك لم يسمح لها قلبها أن تقول:" لماذا أفعل هذا" وكانت ترافقك في كل يوم إلى المدرسة،لتدرس وتتعلم وتتهذب،ثم تغدق على معلمك خبزا وشرابا من وفير خيرات بيتها والآن وقد ترعرعت واتخذت لك زوجة وبيتا فتذكر أمك التي ولدتك وأنشأتك تنشئة صالحة، لا تدعها تلومك وترفع أكفها إلى الله فيستمع شكواها ".[٢] وكانت الأم المصرية ترضع طفلها ثلاث سنوات متوالية،وقد كان الأولاد ينسبون إلى أمهاتهم،ثم جرت العادة المتبعة بانتساب الأبناء إلى الآباء[٣]. وقد عبدت الكثير من المعبودات في مصر القديمة بصفة الأم،وكانت إيزيس من أهم تلك المعبودات . كما ان الرب "إون . م ت .ف" أي [٤]"عماد (أوعمود) أمه " والمقصود:حامل أمه السماء،باعتبار النجم (نوء. مصريته : إنو) ابن السماء فهو يحملها على كاهله احتراما و تقديرا[٥]. وهو ما

(١) الرازي،محمد بن أبي بكر بن عبد القادر،**مختار الصحاح**،رتبه محمود،خاطر ، القاهرة:دار المعارف،(١٩٩٤م)،صـ ٢٥؛ابن دريد،أبي بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري ت ٣٢١هـ،**جمهرة اللغة**،جـ١ ،حققه وقدم له رمزي منير بعلبكي، بيروت:دار العلم للملايين، (١٩٨٧م)، صـ ٦٠؛ مسعود، جبران .، قاموس الرائد، مج١ ، بيروت: دار العلم للملايين،ط٥ ،(١٩٨٦م)، صـ ٢٢٧ .

(٢) أديب، سمير.، موسوعة الحضارة المصرية القديمة، القاهرة : العربي للنشر و التوزيع،(٢٠٠٠م) ، صـ ١٢٠ .

(٣) حسن،أسامة.، مصر الفرعونية ، القاهرة : مطابع الوادي الجديد،(١٩٩٨م) ،صـ ٧٣.

(٤) إون : عمود ، عماد . عربية ، م ت : أم / (أ)مة= والدة ، ف : ضمير المفرد الغائب (ـه) .
خشيم،على فهمي .، آلهة مصر العربية ، مج١، الدار البيضاء : دار الآفاق الجديدة،(١٩٩٠م)، صـ ٣١٤ .

(٥) خشيم ، آلهة مصر ، صـ ٣١٤ .

يعكس بجلاء مكانة وقداسة الأم لدى الشرق القديم.

مكانة الأم في الإسلام

نجد أن الإسلام أحس بفضل الأم ومقدار تعبها، وما تعانيه من ألم ومشقة أثناء الحمل والرضاعة.فذكر تعالى في محكم آياته(حملته أمه كُرها ووضعته كرها)[1](أي قاست في حال حمله مشقة وتعبا من وحم وغثيان وثقل وكرب على غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة. ووضعته كرها أي بمشقة أيضا من الطلق و شدته[2]. وقوله تعالى (حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين)[3]. (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا)[4]. ونتيجة لهذا العناء فقد أوجب الله - سبحانه وتعالى- على الأبناء طاعة الوالدين ووصى الله -سبحانه وتعالى- الأبناء بذلك وحثهم عليه.وأكثر من ذلك فقد قرن سبحانه وتعالى شكره بشكر الوالدين في قوله تعالى (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن و فصاله في عامين أن اشكر لي ولولديك إلي المصير)[5]، وأمرنا الله عز وجل بالإحسان للوالدين في قوله تعالى (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا و بالوالدين إحسانا)[6] وقال تعالى (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا)[7] بل أكثر من هذا فقد أمر الله - سبحانه وتعالى- الأبناء بحسن معاملة الوالدين ومصاحبتهما في الدنيا بالحسنى حتى في حالة كفرهما (وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا)[8] (المعروف البر و الصلة[9]، وأمرنا الله -عز وجل- بأن نحسن

---

(١) سورة الأحقاف ،آية ١٥ .

(٢) ابن كثير ،إسماعيل القرشي الدمشقي،تفسير القرآن العظيم ،جـ ٤ ، بيروت : دار المعرفة، (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، صـ ١٥٧ .

(٣) سورة لقمان ، آية ١٤ .

(٤) سورة الاحقاف ، آية ١٥ .

(٥) سورة لقمان ،آية ١٤ .

(٦) سورة النساء ، آية ٣٦ .

(٧) سورة العنكبوت ، آية ٨ .

(٨) سورة لقمان ،آية ١٥ .

(٩) المحلي ،جلال الدين محمد بن أحمد ٧٩١-٨٦٤هـ ،السيوطي ،جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ٨٤٩-٩١١هـ، تفسير الجلالين ،السلسلة السلفية في العلوم الإسلامية ،جـ١ ،(د.م) : مركز فجر للطباعة، (٢٠٠٣م)، صـ ٨٤٢ .

للوالدين ونطيعهما عند الكبر ونخفض لهما جناح الذل من الرحمة و نلين لهما جانبنا الذليل ونقول لهما قولا جميلا لينا ولاننهرهما ولا نقول لهما حتى أبسط الألفاظ بل أمرنا الله أيضا بأن ندعو لهما بالرحمة جزاء لما بذلاه من مجهود وتعب خلال مرحلة الطفولة (وبالولدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما،واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا)[1]. وتذكر الأم في قصة موسى -عليه السلام-يقول الله تعالى في كتابه الكريم : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين)[2].إن القصة كلها تدور حول جهود أم موسى و لم يرد ذكر لوالده مع أنه من ضروريات القصة أن يكون الوالد موجودا إذ لا أولاد بدون أب.ويلاحظ كذلك أن هارون -عليه السلام-ينادي أخاه موسى -عليه السلام-كما قال تعالى (ابن أم)[3]، استجاشة لعواطفه وشفقته واستدلالا على غضبه عليه السلام،و قد أثنى القرآن الكريم على المسيح -عليه السلام - فنسبه إلى أمه الصدّيقة لإيمانها[4] (وأمه صدّيقة)[5]. وذكر لنا القرآن الكريم الكثير من الآيات القرآنية الكريمة التي يدعوا فيها الأبناء -وهم ليسوا أبناء عاديين بل هم الأنبياء اشرف الخلق - للوالدين بالمغفرة والرحمة وهكذا تعكس الآيات القرآنية الكريمة مكانة الوالدين (الأم والأب) وتحث على احترامهم والبر لهم ومصاحبتهم بالمعروف وخاصة عند الكبر عندما يحتاجان للأبناء،والدعوة لهم أحياء وأمواتا.فليس هناك ابر ولا انفع مما حث عليه القرآن الكريم.ولم تقتصر مكانة الأم والعناية بها على القرآن الكريم بل نجد في السنة النبوية الشريفة ما يثلج الصدر.فالأحاديث النبوية في شأن الأم كثيرة جدا نورد منها ما يفي بالغرض :عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :جاء رجل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم-فقال يا رسول الله،من أحق الناس بحسن صحابتي؟

(١) سورة الإسراء ، الآيتان ٢٣، ٢٤ .
(٢) سورة القصص ، آية ٧ .
(٣) سورة الأعراف ، آية ١٥٠ .
(٤) الابرش، الأمومة ومكانتها في الإسلام ،ص ص٤٨،٤٩،٥٩ .
(٥) سورة المائدة ، آية ٧٥ .

قال:"أمك". قال: ثم من ؟ قال: " ثم أمك". قال:ثم من؟ قال: " ثم أمك". قال: ثم من ؟ قال: " ثم أبوك"[١]. فلولا إلحاح الرجل لأقتصر رسول الله - صلى الله عليه وسلم- على التوصية بالأم فقط لتعبها وجهدها الشديدين ،حتى أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذكر الأم ثلاثا ، والأب مرة واحدة جاءت نتيجة الإلحاح.بل أن الله - سبحانه وتعالى- حرم عقوق الأمهات،فعن المغيرة بن شعبة -رضي الله عنه-،عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال:(إن الله عز وجل حرم عليكم عقوق الأمهات،ووأد البنات،ومنعا وهات،و كره لكم ثلاثا : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال)[٢]، وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال : (رغم أنف،ثم رغم أنف،ثم رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أوكليهما،فلم يدخل الجنة)[٣]، بل أمر-رسول الله صلى الله عليه وسلم- رجلا بترك الجهاد ليبر والديه ويصاحبهما،عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما-،قال:أقبل رجل إلى نبي الله-صلى الله عليه وسلم-، فقال أبايعك على الهجرة والجهاد،أبتغي الأجر من الله- عز وجل - قال:(فهل من والديك أحد حي؟)قال: نعم،بل كلاهما .قال:(فتبتغي الأجر من الله عز وجل؟) قال:(فارجع إلى والديك ، فأحسن صحبتهما)[٤]. وسئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الكبائر،عن أبي بكرة -رضي الله عنه- قال:قال النبي -صلى الله عليه وسلم- (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر).ثلاثا،قالوا:بلى يا رسول الله، قال:(الإشراك بالله وعقوق الوالدين -وجلس وكان متكئا، فقال- ألا وقول الزور)[٥]. وعن أبي عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: سألت النبي -صلى الله عليه وسلم-: أي العمل أحب إلى الله تعالى؟قال: (الصلاة على وقتها) قلت : ثم أي؟ قال (بر الوالدين) قلت ثم أي ؟ قال:(الجهاد في سبيل الله)[٦]، ففي هذا الحديث الشريف قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بر

(١) رواه البخاري ومسلم .
(٢) رواه البخاري ومسلم .
(٣) رواه مسلم .
(٤) رواه البخاري ومسلم .
(٥) رواه البخاري ومسلم.
(٦) رواه البخاري ومسلم .

الوالدين على الجهاد في سبيل الله -سبحانه وتعالى - مما يدل على مكانة الوالدين وأهمية إرضائهما .وعن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-(رضى الله في رضى الوالدين.وسخط الله في سخط الوالدين).[١] فالحديث دليل على فضل بر الوالدين ووجوبه،وأنه سبب لرضى الله تعالى، وعلى التحذير من عقوق الوالدين وتحريمه،وأنه سبب لسخط الله عز وجل. ولا شك أن هذا من رحمة الله بالوالدين والأولاد،إذ بين الوالدين وأولادهم من الاتصال ما لا يشبهه شيء من الصلات و الارتباط الوثيق،والإحسان من الوالدين الذي لا يساويه إحسان من الخلق.والتربية المتنوعة، وحاجة الأولاد الدينية والدنيوية إلى القيام بهذا الحق المتأكد،وفاءً بالحق،واكتساباً للثواب، وتعليماً لذريتهم أن يعاملوهم بما عاملوا به والديهم.هذه الأسباب وما يتفرع عنها موجب لجعل رضاهما مقروناً برضا الله وضده بضده.[٢]

ويبلغ تقدير الأمومة في سنته صلى الله عليه وسلم مداها وشفقته ورحمته بأمته،فيقول (إني لأدخل في الصلاة فأريد إطالتها،فأسمع بكاء الصبي فأتجوز،مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه)[٣].

إن الإسلام اعتنى بالأم أيما عناية في جميع مراحل حياتها تنبيها لأهمية وظيفتها كأم وحس أثرها في المجتمع،وقد أحاط الإسلام الأم منذ صغرها بسياج قوى متين،يحفظ لها حسن تربيتها ورعايتها والقيام على كل شئونها،ونهى عن إيذائها بأي نوع من أنواع الإيذاء،كوأدها أو إهمال تربيتها، أو بتفضيل الذكر عليها،بل إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-جعل القيام على أمرها، وتلبية جميع حاجاتها وتهذيبها وتعليمها فروض ربها،وتعليمها العلوم والمعارف التي تمكنها من أداء رسالتها كأم ورية بيت بعد زواجها،جعل ذلك سبيلا موصلا إلى الجنة وهي أسمى

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) أخرجه الترمذي وصححه ابن حبان .

(٣) السعدي ،عبد الرحمن بن ناصر ١٣٠٧-١٣٧٦هـ،بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار،الرياض:طبع ونشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد،ط٤،(١٤٢٣هـ)،ص ص ١٩٦-١٩٧ .

غاية يتطلع إليها المسلم في عبادته وعمله،فأعطى بذلك دافعا إلى حسن رعايتها ترغيبا للنفس وتشويقا للقلب ليظفر بالموعود به.

ومن الأحاديث الواردة في هذا الجانب على سبيل المثال ما يلي:عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:(من ولدت له ابنة فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها (يعني الذكر)أدخله الله بها الجنة).عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:من كان له ثلاث بنات أو أخوات اتقى الله عز وجل فيهن وأقام عليهن كان معي في الجنة وأشار بأصابعه الأربعة)[١].

وقد أثنى الرسول -صلى الله عليه وسلم-،على نساء قريش وجعل صالحهن صالح النساء عامة لرعايتهن للزوج والولد بقوله -صلى الله عليه وسلم-(خير نساء ركبن الإبل،صالحوا نساء قريش،أحناه على ولد في صغره،وأرعاه على زوج في ذات يده).وفي حديث آخر يبين صلى الله عليه وسلم أن أسمى نماذج البشر رحمة وحبا وعطاء هي الأم،عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-:قدم على النبي -صلى الله عليه وسلم-سبي فإذا امرأة من السبي أخذت صبيا فألصقته ببطنها وأرضعته فقال-صلى الله عليه وسلم -لأصحابه:(أترون هذه طارحة ولدها في النار).قلنا:لا وهي تقدر على أن لا تطرحه،فقال: صلى الله عليه وسلم (الله أرحم بعباده من هذه بولدها)[٢]. ولو كان ثمة مثل يضرب في هذا أقوى دلالة من حب الأم لولدها،لكان منه -صلى الله عليه وسلم-، وهو الذي أوتي بجوامع الكلم من بين الأنبياء كافة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وهل تفجر ماء زمزم إلا فيض من نبع الأمومة،ذلك النبع الذي يسقى الحجيج حتى قيام الساعة، فما أعظمه من حدث أن يكون دعاء الأمومة من آمنا هاجر -عليها السلام- ولهفتها على ولدها إسماعيل -عليه السلام-ريا للظمأى وطعاما للجياع وشفاء للأسقام،وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على تفجر العطاء الأمومي الذي لا

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) الزعبلاوي،محمد السيد محمد .،الأمومة في القرآن الكريم والسنة النبوية، بيروت: مؤسسة الرسالة ، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م)، صـ ١٤ .

ينضب معينه مهما بعد العمر حنانا وحبا وريا ودفئا .وأخيرا فقد أسقط الإسلام بعض الفرائض عن المرأة مثل الصلاة والصوم في الحيض والنفاس،ولم يكلفها بصلاة الجماعة في المسجد في حال طهرها،مراعاة لأمومتها ودورها في الحياة .كما أن أمومة الولادة بدرجاتها،تثبت لها أحكام النسب والإرث والعقل و الولاية والحرمة والإحسان[١].

علاقة الطفل بأمه

يذكر الأطباء أن الطفل ما بين السنة الأولى والسنة الثالثة،يكون شديد الارتباط بأمه، يسعى دائما إلى البقاء قريبا منها،ينعم بحنانها ويطمئن لاهتمامها به وبشؤونه.فهو يسعد بمشاركتها للعبه وكل مغامراته واكتشافاته الجديدة كما يرتاح إلى الالتصاق بجسدها ليستمد منه دفء الأمومة. كما يمعن النظر في عينيها باحثا من خلالهما عن كنوز الحب التي تغدقها عليه دون حساب.ورغم أنه لم يعد يرضخ لكل رغباتها وأوامرها،فهو لا يستغني عن حبها و عن تشجيعها وإعجابها بكل ما يقوم به من حركات.وهكذا تعتبر الأم بالنسبة إليه المحرك الأساسي لحيويته ونموه العاطفي و تطور شخصيته. وبفضل ما تشمله به من رعاية يتقدم بخطى ثابتة نحو المستقبل دون خوف أو تردد،ويتجلى ذلك في اكتسابه السريع لنوع من التحرر في أنشطته اليومية،فيصبح قادرا على المشي والأكل دون مساعدة الغير.

ومن الملاحظ أن الطفل المحروم من حنان الأمومة ودفئها يصاب بالضعف وتسيطر عليه الكآبة ويتأخر في اكتساب و صقل قدراته الفكرية والانفعالية،مما قد تترتب عن ذلك آثار سلبية على شخصيته وتطورها .ففقدان طفل من أمه باكرا يتطلب ملء الفراغ الذي تتركه في حياته، وتعويض ذلك الحرمان بامرأة أخرى تقوم مقامها وتحرص على العناية به بما فيه الكفاية لكي يرتبط بها عاطفيا[٢].

الأم في الفن الإسلامي :

وفق الفنان المسلم كل التوفيق في إبراز مشاعر الأمومة والحنان والعطاء للأم

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) الابرش :الأمومة ومكانتها في الإسلام ،جـ١ ،ص ص٥٠،٥١، ٤٩ ، ٤٢ .

على تحفه الفنية وفي تصاويره وذلك من خلال مناظر متنوعة للأمومة.وفيما يتعلق بموضوع الدراسة فلعله مما حدا بالفنان المسلم إلى رسم هذا الموضوع الفني هو ما تحظى به الأم من مكانة عظيمة في النفوس ويزيد من تلك المكانة ما ورد في حقها وذكر عنها سواء في القرآن الكريم أوفي الأحاديث النبوية الشريفة الكثير،وفي إحساس الفنان بالأم ومكانتها وأهميتها في حياته والمجتمع ككل نراه يعبر بأسلوبه الفني الراقي عن تلك المشاعر والأحاسيس سواء على التحف التطبيقية أو في تصاوير المخطوطات الإسلامية،وذلك من خلال مناظر متنوعة للأمومة تمثلت فيما يلي:-

أولا : مناظر الولادة

أولى هذه المناظر نفذه الفنان المسلم في صورة تمثل رودابة تلد رستم[1] (لوحة ١ أ)، حيث تشاهد الأم رودابة نائمة عقب الولادة و هي متكئة برأسها من أثر الولادة و الطبيب يحمل الوليد رستم بين يديه ليعطيه لأحدى النساء الباسطة يديها لتأخذ الوليد.

مثل الفنان حجرة الولادة في قصر مزخرف الجزء العلوي منه ببلاطات القاشاني من منظر طبيعي لرسوم غزلان و أسود بعضها جالس في هدوء،والأخر يفترس الغزلان(منظر انقضاض) وذلك في الجزء العلوي من الجدار،أما الجزء السفلي فقد غطي ببلاطات القاشاني الزرقاء اللون المزينة بزخارف هندسية،ويتخلل ذلك نافذة غطي جزؤها العلوي بستارة من الديباج الأحمر والأخضر المذهب.ويؤزر الجدار وزره مذهبة بها زخارف نباتية مجردة تشبه شكل القلب،ويعلو المنظر أبيات الشعر وعنوان اللوحة " ولادة رستم " باللون الذهبي ومن الملاحظ أن أرضية الحجرة من نفس نوع القاشاني ولونه المنفذ على الجدران ويعلو ذلك السجاد.

ويقف في الغرفة مجموعة من الفتيات لعلهن من أقارب الوليد أو الخادمات، و تبدو على بعضهن علامات الدهشة. وقد اصطففن خلف بعضهن البعض و بلغ

(١) برانشو،جونفيف، دانا،جاكلين، ديارتي ،فرانسواز وأخرون، عالم الأسرة ، مج٣، الرباط: مطابع عكاظ ، (١٩٩٣م)،ص ص ٤٦٣. ٤٦٥ .

عددهن ست نساء تتقدمهن سيدة بسطت يديها وقدمت ساقها اليسرى على اليمنى لتأخذ الوليد[1] من الطبيب الجالس إلى جوار الأم التي بدت عليها أمارات (أو علامات) التعب حيث أغمضت عينيها و اتكأت واضعة يدها اليمنى أعلى بطنها من أثر آلام الولادة.

برع الفنان في رسم معانات الأم حين رسم الأم وقد ارتدت رداء واحدا فقط أزرق اللون، في حين رسم جميع النساء وهن يرتدين أزياء ثقيلة مكونة من عدة أردية، وذلك مما يتناسب مع لحظة الولادة حين خففت الأم من أزيائها لتسهيل عملية الولادة وغطت بأردية ثقيلة ويلاحظ وجود النيران الموقدة في المدفأة إلى جوار الأم لتعمل على تدفئتها هي والوليد مما يعكس واقعية الفنان ودقة ملاحظته،وإلى جوار المدفأة نشاهد أحد الأباريق الذهبية.

وفي اللوحة أيضا رسم الفنان رجلا متقدم في العمر ينظر في أسى على الأم وآلامها،وقد مثل في وضع ثلاثي الأرباع. ويستشف أن الطفل قد ولد في الصباح حيث يرى ضوء الصباح من خلال النافذة التي تتوسط الجدار. وفي فصل الشتاء حيث يتضح ذلك من النيران الموقدة ومن خلال الأردية الثقيلة التي ترديها النساء في الصورة الأمر الذي يعكس مهارة الفنان في تحديد توقيت الميلاد بأشياء مادية ملموسة.وأبرز الفنان عطف الأم وحنانها ومدى عطائها من حركة أتكاء الأم ونومها والمتاعب البادية على وجهها وحركة يدها. أما الوليد فقد حمله الطبيب.وقد وفق الفنان في رسمه بحجم صغير للغاية مما يدل على أنه حديث الولادة. وهكذا نجح الفنان في رسم منظر الولادة وتعب الأم وشدة آلامها لدرجة أنها لم تتمكن من التقاط و احتضان وليدها عقب الولادة،حتى وإن الطبيب أعطاه لإحدى النساء التي بسطت يديها لتأخذه مما يبرز مدى معاناة الأم من آلام ومشقات ومتاعب في سبيل الأبناء منذ لحظة الولادة وما يعقبها من آلام وهو ما يعكس إبداع الفنان المسلم في تمثيل تلك المشاعر والأحاسيس بفرشاته الفنية بكل دقة ووضوح وقوة. والصورة تشع

(١) من عمل سزارين من العصر التيموري.
سوداو،أبو العلاء .،سنز در بارماى إيران ، ترجمة ناميد محمد شميراني ، تهران ، شماره ١٣٣٠،صـ ٥٧ ، لوحة ١٢٧ اى .

بالحركة والمشاعر الإنسانية البادية على الأشخاص الواضح عليهم علامات الحزن نسبياً، لعل ذلك مصدره ما لوحظ على الأم من آلام.وإلى جوار الأم وعاء لعل به طعام لم تمسه الأم نظرا لشدة آلامها ومتاعبها من أثر الولادة. ورغم صغر حجم الطفل إلا أن الفنان وفق في إبراز تفاصيله (لوحة ١ ب).

يتضح المنظر الثاني في صورة تمثل ولادة رستم[١] (لوحة ٢أ) حيث رسم الفنان في الصورة منظر أمومة فريد يمثل لحظة الميلاد في منزل رستم نهاراً.حيث نري في مقدمة الصورة مدخل المنزل وأحد الحراس ممسك بعصا يتكأ عليها،وأمامه وخلفه مجموعة من الأشخاص عددهم خمسة أشخاص، بعضهم يتحاور معه والبعض الآخر يتحاور فيما بينهم. وقد نوع الفنان في أوضاع الأشخاص و في ملامحهم وأعمارهم. كذلك الحال بالنسبة للملابس،فالأشخاص يرتدون قباء ذات أكمام طويلة،وأسفلها القميص، أما أغطية الرؤوس فقد تنوعت ما بين العمامة والقبعة سواء أكانت مشقوقة من الأمام أو بدون شق.ووقف هؤلاء الأشخاص أمام مدخل المنزل المزخرف برسوم جدائل من اللونين الأسود والذهبي،والمصرع الأيسر للباب مغلق.وتوج المدخل من أعلى بما يشبه شكل الشرفات المسننة الذهبية اللون.وبنيت جدران المنزل الخارجية بمداميك من الطوب وأزرت ببلاطات القاشاني المزينة بزخرفة هندسية تشبه النجمة باللونين الذهبي والأخضر الفاتح.

وفي مركز الصورة منظر ولادة رستم، حيث رسم الفنان فناء المنزل مغطى ببلاطات من القاشاني الأخضر اللون،وفي الجهة اليسرى من الصورة جلس شيخ كبير السن في وضع ثلاثي الأرباع على سجادة مزخرفة بالزهور وهو يراقب عملية الولادة - لعله والد رستم- أمسك في يده اليسرى منديلا .وفي يده اليمنى بما يشبه مسبحة،وأمامه صينية مستديرة. وتقف على يساره خادمه تحمل كتابا أسود اللون

موسى،حسين يوسف .، الصعيدي ،عبد الفتاح .،الإفصاح في فقه اللغة، جـ١، القاهرة: دار الفكر العزبي، ط٢، (١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م)،صـ ١٠ .

(١) من مخطوط شاهنامة الفردوسي من العصر المغولي الهندي(القرن ١١هـ/ ١٧م)،مكتوب بخط النستعليق (المقاس ١٠.٧ *٢١.٣سم)،محفوظ بمتحف طهران (رقم سجل ٢٨٩١).

وزارت فرهنك وآموزش عالى ، ناموز نامه ، تهران : جاب نخست ١٣٧٠ ، صـ ٢٩٩ ، لوحة ٢٩٨ .

في يدها و تراقب عملية الولادة باهتمام.وإلى جوارها وقفت خادمه أخرى رسمت في وضع جانبي للوجه تحمل الطعام في يديها، وإلى جوارها وقفت سيدتان - لعلهما خادمتان- تتحاوران ولا تباليان بعملية الولادة الواقعة أمامهما .وأمام سيد الدار سيدة عجوز رسمت في وضع جانبي للوجه وثلاثي الأرباع بالنسبة للجسم، وقفت تنظر عالياً ترقب العنقاء التي رسمها الفنان في أعلى اللوحة وجاءت لترقب ولادة رستم (لوحة ٢ أ).وأمام العجوز رسم الفنان منظر الولادة الذي شغل أكثر من ثلث الجانب الأيمن من الفناء والذي يمثل لحظة الميلاد(لوحة ٢ ب).حيث يشاهد منظر أمومة رائع وحيوي في لحظة حاسمة لعطاء الأم وبذلها وفيض حنانها وعطائها ،حيث ترى الأم والطبيب يقوم بتوليدها عن طريق إجراء عملية قيصرية لها ،فترى أم رستم وقد خارت قوتها من شدة التعب وآلام الولادة فخارت قوتها وضعفت وأنهكها الألم فلم تتمكن من الوقوف، حيث لامس نصفها السفلى الأرض ووضعت كلتا يديها على السيدتين اللتين أمسكتا بها لمساعدتها على الولادة، فنراها من شدة الألم قد وضعت رأسها على كتفها الأيمن و أمالت رأسها من شدة التعب وبسطت يدها اليسرى بحركة تدل على مدى آلامها وتعبها وألقت بنصفها العلوي على السيدة اليمنى.في حين يرى الطبيب جالسا أمام الأم وقد شق بطنها بأداة حادة سوداء اللون تشبه المشرط.ويرى ولادة الطفل حيث نزل الجزء العلوي من الطفل من بطن الأم وتحاول السيدة اليسرى أن تلتقط الوليد بيدها اليسرى كي لا يقع الوليد على الأرض. وخلف الأم يرى أحد الشباب - لعله مساعد الطبيب - واقفا يراقب عملية الولادة ويمسك بمنديل أبيض في يده اليمنى لعله يجفف به عرق الأم من أثر الولادة.وأمام الأم والطبيب وقفت سيدتان لعلهما خادمتان تتجاذبان الحوار وقد رسمهما الفنان في وضع جانبي وثلاثي الأرباع ولم يظهرا أي اهتمام لما يدور حولهما .

أما عن الخلفية فقد تمثلت في رسوم العمائر وجزء من حديقة المنزل التي تبدو من خلف العمائر،حيث شغل الفنان الركن الأيمن من الفناء برسم مبنى معماريا مربع الشكل متوجا بقبة خضراء اللون تنتهي من أعلى بالبابات.وقد زخرفت جدران المبنى ببلاطات القاشاني ذات الزخارف الهندسية التي تشبه الطبق النجمي. وتوج

الفنان فتحة الباب بعقد مدبب زخرفت كوشاته بزخارف نباتية دقيقة، ويؤزر الجدران بلاطات القاشاني مزخرفة برسوم هندسية تشبه تلك التي تؤزر واجهة القصر.والمبنى متوج بصف من الشرافات المسننة الذهبية اللون. ويظهر في خلفية اللوحة جزء من حديقة المنزل المملوءة برسوم أشجار خضراء متنوعة ما بين شجرة الياسمين المثمرة وأشجار السرو والكرم وأنواع أخرى من الأشجار المثمرة الخضراء اللون.وتشاهد السماء صافية زرقاء اللون تؤكد أن الأحداث تجري في النهار،وترى العنقاء مرسومة باللون الذهبي تشغل جزءا كبيرا من مساحة الخلفية ترقب و تلاحظ ولادة رستم.ووفق الفنان كل التوفيق في رسم منظر الأمومة.وفي التعبير عن عطاء الأم ومعاناتها من أجل الأبناء.وقد وفق الفنان في إبراز مدى عناء الأم وعطائها في لحظة فريدة وهي لحظة الميلاد التي دائما ما تكون منتهى الألم والعناء والعطاء في الوقت نفسه من جانب الأم، والواضحة هنا في الصورة على اللفتات و حركات الأم و ملامحها المتعبة وفي مساعدات الآخرين لها، وقلق البعض عليها .ووفق الفنان كذلك في حسن استغلال المساحة المتاحة،والتنوع في الخلفيات،مع الدقة والإتقان في زخرفة كل جزء من أجزاء اللوحة.ووفق الفنان في التعبير عن منظر الولادة وذلك باللفتات والحركات،مع التنوع في رسوم الأشخاص وحسن توزيعه لهم،مع حسن التعبير عن حركاتهم التي بدت طبيعية ومفعمة بالحيوية و الحركة ذلك كله إلى جانب التباين في الألوان وحسن توزيعه لها وحسن تعبيره عن الحدث.

ثانيا : مناظر الرضاعة[1]

رسم الفنان المسلم إلى جانب مناظر الولادة مناظر الرضاعة[2]،وذلك على النحو

(١) الرضاع : رضع الصبي أمه،كسمع وضرب رضعا ورضعا ورضاعا ورضاعا ورضاعة ورضاعة . وارتضع : امتص ثديها ، فهو راضع ورضيع ، والجمع رضع ، وأرضعته أمه فهي مرضع و مرضعة والجمع المراضع و المراضيع والمرضعات، والمرأة مرضعة إذا كانت ترضع ولد غيرها .ومرضع أيضا إذا كانت ذات رضيع ،أو ذات لبن رضاع،واسترضع طلب مرضعة،ومراضعك من رضع معك،ورضيعك : أخوك في الرضاع . موسى، فقه اللغة، صـ ٧ .

(٢) الرضاعة : يذكر الأطباء أهمية الرضاعة فمن خلال التغذية في الأيام الأولى من حياة الطفل عن طريق الرضاعة تنتظم العلاقة بين الأم وابنها وتتوطد عراها لتنبني على العواطف المتبادلة سواء منها عواطف السعادة او الرضى أو أحساسات الضيق والحصر النفسي . ولهذه العلاقة دور أساسي في تكوين شخصية الطفل رغم انفتاحه، مع مرور السنين على آفاق واسعة تأتيه بعلاقات اجتماعية أخرى تجعل حياته غير مركزة فقط على ساعات الأكل. برانشو وآخرون :عالم الأسرة ، صـ ٥٦٠ .

التـالـي:أولى هذه المناظر ممثل في إناء على هيئـة تمثـال لسيـدة ترضع صغيرها[1](لوحة ٣).حيث مثلت الأم وهي جالسة القرفصاء، تحمل وليدها بين ذراعيها بمنتهى العطف والحنان في وضع مواجهة كاملة وقد علا رأسها تاج مرتفع مزين بزخارف هندسية يبدو أن الأم ملكة أو أميرة. ويبدو على الأم الامتلاء نسبياً كما هو بادي على الوجه والجسم، فالوجه مستدير ممتلئ و تبدو عليه الملامح الصينية حيث العيون الضيقة المنتهية بخط طويل نسبياً،وإنسان العين في المنتصف تقريبا .ويعلو العيون الحواجب القوسية الشكل المقطبة وانف وفم صغيران،وهناك طابع الحسن يتوسط ذقن الأم،ليضفى عليها جمالا . وقد زين الفنان الوجنتان برسم خطين مستقيمين ومتوازيين.أما شعر الأم فقد صفف الفنان الجزء العلوي منه على هيئة فستونات (أو أنصاف دوائر)تزين الجبهة وباقي الشعر يتدلى من الأمام والخلف ليغطي أجزاءاً من رداء الأم. وترتدي الأم رداءا طويلا ذا رقبة مستديرة محددة باللون الأسود وأكمام طويلة متسعة نسبيا يتضح بها طيات وكسرات الرداء .وزخرف الرداء برسم مكرر لمجموعة من الدوائر تنطلق منها رسوم أفرع نباتية تملأ الرداء يتخللها رسوم أوراق نباتية محورة.فضلا عن دوائر بداخلها نقاط مطموسة (تذكرنا بأرضيات الخزف ذي البريق المعدني المبكر)ويزخرف العضد رسوم زخارف هندسية بسيطة مؤلفة من مناطق شبه دائرية مكررة.

برع الفنان في تمثيل منظر الرضاعة بمنتهى الدقة والمهارة الفنية وذلك حين مثلت الأم وهي جالسة هادئة مطمئنة.وقد ضمت وليدها الصغير نحو صدرها وأخذت ترضعه، وضمته بحنان الأم وحملته بمنتهى الحنان بيديها نحو صدرها، بكل مشاعر الأمومة الواضحة في خوفها وعطفها البادي في احتضانها لابنها بين ذراعيها و براحتيها، وجلست صامته هادئة في سكون وهدوء الأم الحانية، كيلا تزعج طفلها وهو يتناول غذاءه.في حين التقم الرضيع ثدي أمه الأيسر ووضعته بجوار

(١) من الخزف ذي البريق المعدني، إيران، الري في القرن (٧هـ / ١٣م)، محفوظ بالقسم الإسلامي بمتحف برلين. Kuhnel,E.,Islamische Kleinkunst , Berlin:Richard Carl Schmidt& Co, (1925), S.91, abb. 25. حسن،زكي محمد .، الصين وفنون الإسلام ، القاهرة: مطبعة المستقبل،(١٩٤١م)، شكل ٤٧؛ الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي،القاهرة:مطبعة دار الكتب المصرية،(١٩٤٦م)، شكل ١١٠ .

قلبها ليسمع نبضاته فيهدئ ويطمئن.وقد التقم الثدي ووضع الحلمة وأخذ بالفعل في الرضاعة،وقد أمسك بثدي أمه بيده اليسرى ليتمكن من التقام الثدي بمنتهى الراحة والأمن،حيث وضع رأسه على ذراع أمه الأيسر التي طوقت الجزء العلوي من جسده بيدها اليسرى، بكل حنان ودفء الأم.ومد الرضيع العاري أقدامه على جسم أمه لتغطي الخصلة الأمامية اليمنى لشعر الأم الجزء السفلي من سيقان الابن وأقدامه.

ويتضح في هذه التحفة مدى براعة الفنان المسلم في إظهار مشاعر الأمومة بمنتهى الدقة والتي تتضح بجلاء في جلسة الأم متربعة ليتمكن الوليد من الرضاعة بمنتهى الراحة و الهدوء. ويبرز احتضان الأم لرضيعها وقت الرضاعة وطريقة حملها للابن والإمساك به بكل حرص ودقة مدى خوفها وحبها وحنانها. كما حرصت الأم على إرضاع الصغير من الثدي الأيسر كي يكون بجوار القلب ليهدأ الطفل ويشعر بحنانها.وكذلك تركته يرضع بمنتهى الحرية حين وضع رأسه فوق شعرها حتى تكسرت بعض خصلات الشعر اليسرى في المنطقة التي تعلو الوليد ووضع الوليد أقدامه بمنتهى الحرية أسفل الخصلة اليمنى الأخرى مما يعكس عطف الأم وترك الوليد يفعل ما يشاء دون أية مضايقة.بل جلست مستمتعة بذلك. واتضح ثقل الوليد في تكسر ثياب الأم في منطقة الأكمام أسفل رأس الوليد الذي يبرز تحمل الأم وصبرها على وليدها.ومن حركة اليد السفلى للأم حين وضعت يدها اليمنى أسفل اليسرى لتتمكن من حمل ابنها جيداً ليتمكن من الرضاعة في هدوء وأمان ويستشعر الراحة التامة.

أما الوليد فقد مثل عارياً في وضع جانبي وقد نجح الفنان حين مثله وهو يلتقم الثدي مستلقيا على ظهره،وقد رفع ثدي أمه بيده اليسرى ليتمكن من الرضاعة بحركة طبيعية للغاية. وقد حاول الفنان آن يوجد الشبه بين الطفل والأم ويتضح ذلك في ملامح الوجه وخاصة العيون والحواجب،وفي شكل الوجه الممتلئ والرقبة فضلا عن البدانة الواضحة نسبيا على الأم وابنها.وقد صفف شعر الوليد بخصلات تتقدم الأذن ويتدلى باقي الشعر خلف الظهر،ونجح الفنان في إبراز ملامح الوجه عن طريق الرسم،وفي إبراز الحركات على التحفة سواء عن طريق حركات الطفل أو حركات الشعر والأيدي ،فضلا عن حركة التقام الثدي ومص الوليد له الواضحة في شكل الوجه والفم المضموم،وتبرز التحفة التناسب الواضح بين الأم ووليدها وكذلك مراعاة قواعد المنظور،فضلا عن المهارة في تمثيل الأم

والطفل في هذا الوضع،حين مثلت الأم في وضع مواجهة كاملة مما مكن المشاهد من رؤية الأم بكامل تفاصيلها وكذلك رؤية الوليد وعملية الرضاعة بمنتهى الوضوح والبراعة الفنية.كما حرص الفنان على إبراز الرضيع بشكل كامل حين مثله وهو يرضع مستلقياً على ظهره بدلا من أن يكون في وضع جانبي كامل،فمثل الوجه والأرجل في وضع جانبي كامل ليبرز لنا حركات الوليد وملامحه.كما يتضح من تفاصيل جسمه أنه ذكر وليس أنثى.ويبدو أن الوليد قد تقدم به العمر نسبياً حيث يتضح ذلك من كبر حجمه نسبيا ومن تمكنه من الإمساك من ثدي أمه.ونجد أن الفنان أكمل سنفونيته بجعل زخرفة رداء الأم زخرفة نباتية بسيطة كخلفية للوليد مما أضفي جوا من الهدوء النفسي والسرور يتناسب مع منظر الأمومة المنفذ على التحفة.لكن هناك بعض التساؤلات حول هذا التمثال لابد من طرحها والرد عليها كلما أمكن ذلك وهي:-

أولا : لماذا نفذ الفنان المسلم منظر الأمومة هنا على شكل آنية في هيئة تمثال ؟

-هل أراد الفنان أن يجسد منظر الأمومة أكثر بتنفيذه هذه التحفة في هيئة تمثال أكثر من أن يرسمه على تحفة فنية مثل طبق أو صينية إلى آخره... أو أن ينفذ بالحفر أو الرسم .....الخ.فأراد الفنان بذلك أن يبرز بعمل التمثال كل دقائق المنظر من حركات الطفل والأم وكسرات الثياب فتبدو واضحة مجسدة ليؤكد موضوعه و فكرته وتثبت في الذهن أكثر و تكون قريبة منا أكثر مثلما أحسها الفنان.

- أم أن السبب في ذلك يرجع إلى أن التمثال صنع في الري[1] بإيران،ذلك القطر

(١) الري : كانت مدينة الري منذ القرن(الثالث الهجري/ التاسع الميلادي)،من أهم المراكز في العالم من الناحية الفنية،فقد كانت لفترة مقر إقامة الخليفة المهدي (١٦٥هـ/٧٨٥م)فهي أزهى مدن الشرق بعد بغداد،فمما لا شك فيه أن مدينة الري كانت مدينة عظيمة من الناحية الفنية منذ أوائل العصر الإسلامي،كما أكدت ذلك الحفائر التي أجريت بها سنة (١٩٣٠م)،وكانت الري في عصر طغرل الثاني آخر سلاطين السلاجقة في إيران سنة (٥٩٢هـ/١١٩٤م)أعظم المدن حضارة وثراء وفنا، وبصفة خاصة في صناعة الخزف وغيرها من الفنون التشكيلية،وقد اعترى مدينة الري بعض الجمود في عصر خوارزمشاه ، إلا أن الضربة القاضية جاءت مع الغزو المغولي،إلا أن الري استعادت بعض مكانتها السابقة في عهد غزان خان (٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م)فقد كان أبو سعيد شغوفا بإحيائها وإعادتها إلى سابق عهدها، وقد تم له ذلك ، وقد تميزت التحف الخزفية ذات البريق المعدني المصنوعة في الري بوضوح رسمها وبإبداع تأليف زخارفها،واتخذت الحروف الكوفية لتزين حافة الآنية،واستعملوا كذلك الخط الفارسي.

حسن،زكي محمد.،فنون الإسلام،بيروت: دار الرائد العربي،(د.ت)،صـ ٢٧٧ :ماهر،سعاد.،الفنون الإسلامية، القاهرة:الهيئة المصرية العامة للكتاب،(١٩٨٦م)،صـ٣٢ .

الذي لا يعبأ ولا يتحرج من عمل تمثال نظرا للمذهب الشيعي.

-أم هل جاء هذا بناء على رغبة صاحب التحفة الذي أراد أن يشكلها على هيئة تمثال ليبرز عطاء الأم وحنانها.

أما التساؤل الثاني وهو أن (الدكتور المرحوم) زكي محمد حسن قال في كتابه :

"الصين وفنون الإسلام" عن هذه التحفة أنها " إناء من الخزف ذي البريق المعدني على هيئة تمثال للعذراء وابنها ".[1] والواقع أنه ليس هناك من الأدلة ما يؤكد أن هذا التمثال للسيدة العذراء و ابنها -عليهما السلام - وإن كان الأرجح هو تمثال لسيدة تحمل وليدها وليس السيدة مريم العذراء. ويؤكد ذلك أنه ليس عليه ما يشير إلى ذلك، كذلك نجد أن منظر الرضاعة هنا مثل في مناظر تصويرية أخرى عديدة ترجع إلى الفن الإسلامي.فليس من الضروري أن يكون كل منظر أمومة يمثل السيدة مريم العذراء -عليها السلام-،فهذا ينفي عن الفن الإسلامي ان له خصوصيته.ولكنه في الحقيقة يذكرنا فقط بالسيدة العذراء والسيد المسيح -عليهما السلام- في العصر المسيحي وبالفن الفرعوني لإيزيس[2].كما أن الملامح الصينية هي الواضحة على الأم والوليد وليست الملامح العربية .

-كذلك يلاحظ وجود تمثال آخر لسيدة جالسة من الخزف ذي البريق المعدني ويتضح التشابه في الملامح والجلسة والثياب[3]،مع الأم هنا فهل هي كذلك السيدة مريم العذراء؟.

مثل المنظر الثاني في صورة تمثل الاستعدادات لحفل خطبة ليلى من ابن سالم (لوحة٤أ).[4] حيث رسم المنظر في لوحتين اللوحة السفلية يشاهد في مقدمتها خيمة كبيرة الحجم وهي الوسطى،وقد جلس بها والد ليلى ووالد ابن سالم وإلى

---

(١) حسن،الصين وفنون الإسلام، صـ ٤٧ .

(٢) إبراهيم ،جمال عبد الرحيم،.الفنون الزخرفية الإسلامية في العصرين الأيوبي والمملوكي، القاهرة:(د.ن)، (٢٠٠٠م)، صـ ٥ .

(٣) حسن، زكي محمد،. أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية ، بغداد : (د.ن)،(١٩٥٦م)، شكل ١٤٢ .

(٤) من مخطوط خمسة نظامي، إيران،تبريز حوالي سنة (٩٤٧هـ /١٥٤٠م)،محفوظ بمتحف فوج للفن . James, D., Islamic Art an Introduction, London:Hamlyn,(1974), p. 51, pl. 48

جواره ابنه ومجموعة من الرجال وأخذ الشيخان يتحاورا وخارج الخيمة من الجهة اليمنى وقف خادمان يحملان أواني الطعام . أما الخيمة الخلفية اليمنى فترى ليلى وهي تبكى وإلى جوارها سيدة عجوز لعلها أمها تهدئها وتحدثها . وفي الجهة المقابلة خيمة أخرى تقف أمامها سيدة تغزل الخيط، وشاب جالس يحاور سيدة. أما اللوحة العلوية فيشاهد فيها مجموعة من التلال بها مناظر من حياة البادية سواء بالنسبة للشاب الذي يشعل النيران أسفل قدر كبير في الركن العلوي الأيسر للصورة وأمامه رجل وامرأة يتحاوران أثناء قيام السيدة بغسل الثياب،وأمامهما شيخ يقوم بتجهيز ناقته. وإلى جوار السيدة سالفة الذكر شجرة ينبع من أسفلها مجرى مائي متدفق ،وفي الجانب الأيمن من النهر ترعى الأغنام وتقوم إحدى السيدات بحلب شاه و أخرى بإطعام دابة،وخلف التلال شخصان يتحاوران .(لوحة ٤أ)

وبالنسبة لمنظر الأمومة باللوحة فقد نفذه الفنان في مقدمة اللوحة العلوية ويشغل الركن الأمامي الأيسر منها (لوحة ٤ب)، حيث رسم خيمة صغيرة تجلس بها أم تحمل وليدها و تقوم بإرضاعه،وتجلس أمامها سيدة تمسك بقائم الخيمة الخشبى،وذلك داخل خيمة سوداء اللون لها بطانة خضراء اللون والخيمة مفروشة بسجادة زرقاء داكنة مزخرفة برسوم زهور.وترى الأم جالسة متكئة على وسادة بيضاء اللون،تحتضن وليدها بين أذرعها وتقوم بإرضاعه بمنتهى الدفء والحنان.وحملت الطفل على ساقها اليمنى التي ضمتها إليها، في حين رفعت ساقها اليسرى ووضعت ذراعها أسفل الجزء العلوي من الطفل واحتضنته براحتها اليمنى،بينما رفعت له الثدي بيدها اليسرى عن طريق إصبع السبابة ليتمكن الصغير من الرضاعة بمنتهى الراحة وهو ما يبرز قوة ملاحظة الفنان ودقته وإبداعه في مراعاة أدق الحركات وتمثيلها بشكل طبيعي وواقعي وطبي سليم[1] بمنتهى الدقة.وجلست الأم هادئة

(١) يذكر الأطباء أنه من القواعد الأساسية للإرضاع،إمساك الأم للطفل بشكل جيد أثناء الرضاعة بحيث يكون رأسه أعلى من مستوى قدميه،وجسمه بوضعية منحنية،وفمه ناحية الثدي،عندما يلامس وجهه بشرة الأم ويشم رائحة= =اللبن يلتفت ناحية الثدي وتبدأ شفتاه بالتحرك،لكنه بحاجة إلى مساعدة في بادىء الأمر،وتقوم هذه المساعدة على التقاط الأم لحلمة ثديها بين أصابعها ووضعها في فم الطفل مع الانتباه لكونها فوق لسانه وليس تحته وبالأصابع نفسها تضغط الأم صدرها لمساعدة عملية إفراز اللبن ولجعل أنف الطفل حرا يستطيع التنفس. بستاني،رئيف.، الموسوعة الطبية،مج٨، جينيف:الشرقية للمطبوعات،(١٩٩٤م) ،صـ ١٣٨٢ .

منشغلة برضاعة صغيرها تنظر إليه تتابع رضاعته بيقظة واهتمام وحرص شديدين،فنجد أنها لم تتجاذب الحوار مع السيدة الجالسة إلى جوارها.ورسم الفنان الأم في وضع ثلاثي الأرباع بوجه مستدير ممتلئ ببشرة بيضاء اللون وعيون متسعة وحواجب مقطبة وفم صغير.وارتدت منديلا وصففت شعرها على هيئة خصل طويلة تتقدم الأذن وباقي الشعر ينسدل من أسفل المنديل على الظهر وارتدت رداءا أصفر اللون ذا أكمام طويلة أسفل قميص أزرق اللون.ويلاحظ أن المنظر مثل بشكل طبيعي حيث فتحت الأم أعلى القميص عند منطقة الجيب لتتمكن من إخراج الثدي بمنتهى السهولة ليتناول الرضيع غذائه بمنتهى اليسر والسهولة وهذا ما يعكس واقعية الفنان ودقة ملاحظته وإيضاح أدق التفاصيل وبمنتهى الواقعية.

برع الفنان في إبراز خوف الأم على رضيعها وحرصها الشديدين عليه حين لم تكتف بإلباسه رداءا أحمر ذا رقبة مستديرة وأكمام قصيرة وأسفله قميص أسود اللون به زخارف حمراء بل خافت عليه وغطته بغطاء أبيض اللون مزين بزخارف أرجوانية اللون فوق ثيابه، وهو ما يعكس شدة خوف الأم على رضيعها الصغير.واحتضنت الأم الرضيع الذي أجلسته على أقدامها بحنان الأم فنراه وقد استلقى على ظهره وأخذ ينظر إلى أمه و التقم الثدي وأخذ في الرضاعة بمنتهى الأمن والطمأنينة، وهو ما يعكس بجلاء دقة ملاحظة الفنان.وقد رسم الفنان الرضيع في وضع ثلاثي الأرباع بوجه مستدير ممتلئ حاسر الرأس ويبدو التقارب في الملامح ولون البشرة وشكل الرقبة مع أمه.

يتضح توفيق الفنان المسلم في تمثيل منظر الأمومة في التصويرة في التعبير عن حنان الأم وعطائها وحبها سواء بالحركات أو اللفتات أو اللمسات. ويبرز عطاء الأم وحنانها واضحاً في رضاعتها لطفلها واحتضانها له وحملها الثدي وصعوبة جلستها وهي تحمل الطفل حيث جلست و قد ضمت الساق اليمنى ليتمكن الرضيع من النوم عل ساقها بمنتهى الراحة ورفعت ساقها اليسرى لتثبت يدها اليسرى عليها لتتمكن من رفع الثدي بتلك اليد،ليتمكن الوليد من الرضاعة بمنتهى الراحة.وذلك كله على حساب راحتها هي،من صعوبة هذا الوضع في الجلسة[1] الذي يؤثر على ظهر

(١) يذكر الأطباء عن القواعد الأساسية للإرضاع أن تختار الأم كرسيا منخفضا ،ومساند للأيدي ثم وضع وسادة تحت اليد وعتبة خشبية تحت القدمين لئلا تشعر المرأة بالتعب فيْ أثناء القيام بعملية الإرضاع. رئيف، الموسوعة الطبية،مج٨، صـ ١٣٨٢

الأم وأقدامها، لكنها تتحمل الألم في مقابل راحة الرضيع.والواقع أن الفنان قد وفق في تمثيل منظر الأمومة والممثل في الرضاعة هنا بمنتهى الدقة والإتقان والواقعية الفنية وبشكل طبيعي حتى إن حركة أصابع اليد أثناء الرضاعة للأم بدت واقعية وطبيعية للغاية وسليمة من الناحية الطبية، فهذا الوضع الممثل عليه الرضيع هو الوضع السليم للرضاعة.الذي ينصح به الأطباء في عصرنا الحديث.وهذا ما يؤكد أن عين الفنان المسلم كانت كاميرا فنان مبدع وحساس.

أما المنظر الثالث فهو منظر فريد ورائع للأمومة وعطائها الفياض ودليل على العطاء المستمر للأم طوال حياتها وحتى الأنفاس الأخيرة والتي تعد صورة رائعة وتستحق الدراسة والتحليل الفني لهذا المنظر الرائع والمأساوي وهذا ما أبرزه الفنان المسلم بكل إبداع وإعجاز فني نادر وفريد،ويتضح ذلك بجلاء في صورة تمثل فيليب (Philip) يشاهد سيدة متوفاة حديثا وإلى جوارها رضيعها[1].حيث رسم الفنان منظرا طبيعيا لمجموعة من التلال المختلفة الألوان القاتمة التي تتناسب مع المنظر ونشاهد في خلفية اللوحة خلف التلال شابين أحدهم ذهب شارداً ينظر جهة اليسار وخلفه شخص آخر يضع يده على أكتافه كأنه يواسيه. وفي مقدمة اللوحة نشاهد الأمير فيليب يمتطي صهوة جواده واضعاً إصبعه في فمه دلالة على التعجب والدهشة، وخلفه مجموعة من الأتباع من بينهم شاب يحمل له المظلة يقف على يساره،وأمام الأمير يقف شاب يسأله العطاء،خلفه آخر يقف إلى جوار إحدى المرتفعات الصغيرة المرسومة في مقدمة اللوحة،وقد زخرف الفنان أرضية الصورة بمجموعات من الحشائش والزهو.ويلاحظ على الألوان في الصورة أنها تغلب عليها الألوان الداكنة القاتمة ولعل الفنان قد قصد ذلك.فضلا عن رسم السماء داكنة ملبدة بالسحب والغيوم وهو ما يعكس الحزن البادي من موضوع الصورة ،كما بدت علامات الحزن والدهشة على ملامح الأشخاص في الصورة(لوحة ٥أ).ولعل الفنان حين رسم مجموعات من الزهور في مقدمة الصورة ربما أراد أن يؤكد على استمرارية

---

(١) من مخطوط خمسة نظامي، بخارا سنة (١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م)، (المقاس ٢٥* ٣٩ سم)، المحفوظ بالمكتبة العامة بلينجراد (Leningrad) رقمه Uzbek Academy of Sciences,Miniature INV. PNS.66). Illuminations of Nisami's" Hamsah", Tashkent, (1985), pl. 193.

الحياة، فرغم وفاة الأم إلا أن الابن يمثل الاستمرار للحياة وأن الحياة رغم كل شيء مستمرة،فرغم وفاة الأم إلا أن الابن مازال حيا فالزهور تعبر عن الحياة وسط هذه الصخور الموحشة. فضلا عن أن رسم الفنان لهذه الصخور يعكس قسوة الحياة بعد وفاة الأم .كل هذا يعكس بجلاء مدى توفيق الفنان المسلم وإبداعه في إبراز الموضوع ليس فقط بالنسبة للأشخاص ولكن أيضا بالنسبة لكل عناصر اللوحة من ألوان وسماء وصخور.

أما بالنسبة لمنظر الأمومة فقد احتل الركن الأيمن في أعلى مقدمة الصورة (لوحة ٥ب)،حيث رسمت الأم وهي مستلقاه على ظهرها بعد أن فارقت الحياة،ولفظت أنفاسها الأخيرة وقد مدت ساقيها وأقدامها،ووجهت قدمها اليمنى جهة اليمين واليسرى جهة اليسار، ورفعت ذراعها اليسرى فوق رأسها،وذراعها اليمنى بسطته بالقرب من وليدها الجالس إلى جوارها،ونراها وقد أخرجت ثديها الأيمن لترضع به صغيرها الذي يبدو أنها كانت تحتضنه وقت ان لفظت أنفاسها الأخيرة، وهي ترضعه،ورسم صغيرها بوجه مستدير وعيون متسعة وحواجب مقطبة وأنف وفم صغيرين، وشعر أجعد قصير وملامحه تعكس أنه طفل صغير في مقتبل العمر نسبياً .جلس عاريا إلى جوار أمه وقد ضم ساقه اليمنى إليه وبسط ساقه اليسرى إلى جوار أمه حيث وضع ساقه وقدمه اليسرى فوق غطائها الأزرق اللون.ويشاهد وهو يضع يده في فمه ويلصق جسده بثدي أمه ليستشعر حنانها ودفئها حتى بعد أن فارقت الحياة،وأشار بإصبع السبابة اليسرى تجاه جسد أمه في حين وضع إصبع سبابته اليمنى في فمه بدلا من ثدي أمه الذي تجمد به اللبن نتيجة للوفاة وفقد الحياة، وهو ما يعكس بجلاء إبداع هذا الفنان ودقة ملاحظته ومدى براعته في إبراز حنان الأم وعطائها حتى لفظت أنفاسها الأخيرة.وذلك من خلال حركة الثدي وحركة الذراع اليمنى التي يبدو من وجودها في هذا الوضع أنها كانت تحتضن رضيعها وتقوم بإرضاعه.وأيضا من خلال التصاق الصغير بأمه مما يدل على شدة تعلقه بأمه وهو ما يعكس في الوقت نفسه مدى عطف الأم وحنانها.ووفق الفنان في رسم الأم في هذا الوضع وهي مستلقاه على ظهرها بما يدل على الوفاة وتجمد أطرافها و انعدام الأنفاس وفي رسم الثياب الملفوفة بها الأم.وحسن تعبير الفنان

المسلم عن الأمومة وحنانها وعطفها بحركة الثدي الخارج من الأم والتصاق الرضيع بأمه ووضع أرجله على ثيابها وشدة تمسكه وتشبثه بها مما يدل على مدى حنان الأم ورعايتها وحركة ذراعها الأيمن.

وفق الفنان في رسم المنظر ككل فضلا عن حسن توزيع الأشخاص وحسن التعبير عن حركاتهم ولفتاتهم وتعبيراتهم وغلبة الألوان الداكنة مما يدل على كتامة وكآبة المنظر و يتمثل ذلك بجلاء في ملابس الأم الداكنة والقاتمة التي توحي بوحشية المنظر الممثلة في اللون الأرجواني فضلا عن الغطاء الذي يعلوها من اللون الأزرق الداكن لعله الكفن.وتعكس هذه اللوحة الفنية مدى عبقرية الفنان المسلم في تنفيذ هذا المنظر النادر في تلك اللحظة الواقعية من حياة الإنسان،وتمثيل منظر أمومة في هذه اللحظة الحياتية وفي ذلك المنظر أكبر دليل على مدى إحساس الفنان بعطاء الأمومة و استمراريتها حتى اللحظة الأخيرة للأم، فهي في عطاء زاخر ومستمر حتى لفظت أنفاسها الأخيرة في الحياة فهي دائما مستمرة في بذلها وعطائها.وهذه اللوحة الفنية الرائعة لتعد أكبر دليل وأصدق شاهد على هذا العطاء الفياض الذي لا ينضب للأم،والذي مثله الفنان بريشته الفنية بمنتهى العبقرية والواقعية الفنية.التي يمكن أن يطلق على هذه اللوحة بحق عطاء الأم.

ثالثا:- مناظر المصاحبة:

شملت مناظر الأمومة نوعا آخر من المناظر وهي مناظر المصاحبة التي تتضح بجلاء في ثلاثة مناظر.رسم أولى هذه المناظر على سجادة أشخاص[1] (لوحة ٦ أ)،لها إطار مزخرف برسوم وريدات يتخللها رسوم طواويس،أما ساحة السجادة فيشاهد عليها مناظر متنوعة للصيد و القنص تشغل ما يقرب من ثلاثة أرباع ساحة السجادة،ورسمت الحيوانات مذعورة تفر هارية من الصيد.وفي مقدمة السجادة،رسم الفنان مجموعة من الغزلان من بينهما غزالتان تفران مذعورتان من النمر المرقش

(١) من الهند ترجع إلى العصر المغولي الهندي (بداية القرن ١١هـ / ١٧م)، محفوظة بمتحف بوسطن للفنون الجميلة (Boston Museum of Fine Arts).

Milanesi,E.,The Carpet,Spain: Milan, (1997) pl.139.

وخلف ذلك حيوان خرافي ينقض على طائر العنقاء،و حوله مجموعة من الفيلة الصغيرة تفر مذعورة في جميع الاتجاهات مؤلفة شبه دائرة فيما بينها.وعلى يسار هذه المجموعة من الفيلة رسم الفنان نمرين يحاول كل منهما الهجوم على الآخر.وخلف ذلك رسم الفنان شخص يركب عربة تقودها اثنتان من الأبقار،وربط في العربة أحد النمور التي تم صيدها، وخلف العربة رجل - لعله صياد - يمسك بسيف في يده اليسرى يضعه فوق كتفه الأيسر،وبمذبة في يده اليمنى يشير بها إلى النمر.ويسير أمام العربة صياد ممسك بغزال أسود اللون يحمله على أكتافه.وخلف ذلك أحد الأسود يركض ومنظر انقضاض لنمر على بقرة،ومجموعة من الغزلان تفر مسرعة مذعورة،وخلف الأسد سالف الذكر منظر انقضاض ثان لأسد يلتهم غزالا .ووسط هذه المناظر الموحشة حاول الفنان أن يخفف من تلك الوحشة برسم أرضية مملوءة بالزهور وشجرتين،الأولى وتوجد أمام العربة سالفة الذكر ويقف عليها الطيور،والأخرى يتسلق عليها أحد القرود وتقع خلف الأسد الذي يلتهم الغزال.في أعلى يسار السجادة.وتوجد مجموعة من الأشجار خلف رسوم العمائر في أعلى ساحة السجادة. وقد شغل الفنان ساحة السجادة بثلاثة من العمائر الأولى من الجهة اليسرى مكونة من مبنى مقبي تقف إلى جواره أحدى السيدات تتنسم عبير إحدى الأزهار الممسكة بها في يدها اليمنى ومنديل في يدها اليسرى.أما المبنى الثاني وهو الأوسط فيتكون من طابقين في الطابق الأول يوجد رجلان يتحاوران،وخلف الشخص الأيسر منهما،يقف رجل خارج المنزل يمسك بمذبة في يده اليمنى،أما الطابق الثاني فيجلس فيه رجل.أما المبنى الثالث فيوجد به رجل جالس وإلى جواره إبريق.

وفيما يتعلق بمنظر الأمومة في السجادة فقد نفذه الفنان خلف الرجل الجالس بالمبنى الثالث سالف الذكر (٦ب)حيث رسم الفنان الأم جالسة القرفصاء ممسكة بيد طفلها الصغير تحاول أن تجذبه إليها بيدها اليسرى بينما تمسك بيدها اليمنى بما يشبه الزهرة.بينما الصغير يحبو مسرعاً رافعاً يده اليمنى لأعلى تجاه أمه.وترتدي الأم رداءا أصفر اللون ذا أكمام طويلة - ويتدلى شعرها الأسود الطويل خلف ظهرها- .بينما يرتدي الابن رداءا أبيض قصيرا يصل إلى أعلى الركبة ذا أكمام طويلة،

وأسفله سروال طويل ضيق من نفس لون رداء الأم.

برع الفنان في تخفيف وحشية مناظر الصيد و القنص و الانقضاض،برسم منظر الأمومة لذي يشع بهجة وحنان.يتضح عطف الأم وحنانها وخوفها على طفلها من حركة اليد اليسرى الممسكة بيد الصغير الذي جاء يحبو مسرعا تجاه أمه بكل فرحة،وبادرت الأم بإمساك الصغير بكل حنان الأمومة وعطفها ودفئها. ولم تكتف بذلك بل وضعت يدها اليمنى خلف رأسه،لتحميه في حالة تعرضه للوقوع.

وفق الفنان المسلم في إبراز لهفة الطفل على أمه وشد تعلقه بها وذلك من خلال ملامح وجهه وتعبيراته وحركة يديه وأقدامه.كما تبرز مهارة الفنان في رسم منظر الأمومة في هذه المساحة الصغيرة بمنتهى الوضوح والدقة والإتقان الفني،مع حسن استغلاله للمساحة المتاحة حين رسم الأم وهي جالسة والابن واقف،وذلك ليتناسب مع المساحة المتاحة في هذا الجزء من السجادة حيث أنه لو رسم الفنان الأم واقفة أو نائمة أوفي أي وضع أخر لاختل توازن المنظر. كما اختار لرسم الأم الركن العلوي من المبنى،لتشغل اكبر مساحة ممكنة من الاتساع.كما وفق حين اختار الوضع الثلاثي الأرباع لكل من الأم وابنها،الأمر الذي يساعد على رؤية تفاصيل المنظر بوضوح.ووفق الفنان في إبراز مشاعر الأمومة وفي حسن توزيعه للألوان بكل دقة وإتقان وتناسب.فضلا عن أن تمثيل منظر الأمومة قد أضفى جوا من الدفء والحنان والواقعية على رسوم السجادة.

أما المنظر الثاني فيتضح بجلاء في صورة تمثل منظر قرية[1] (لوحة ١٧أ).حيث رسم الفنان قرية مشيدة أعلى مجموعة من التلال وفي مقدمة الصورة نشاهد شخصين يتحاوران يمتطيان النوق ويقف أمامها احد الأشخاص.وخلف ذلك ترى التلال القوسية الشكل التي نمت بها الأعشاب والنباتات،ذلك فضلا عن مجرى مائي. وتشاهد الأغنام وهي تشرب وترعى.و تظهر القرية بمبانيها من فوق التلال وهي مكونة من دور مقبية الشكل،تقف الطيور فوق أسطح بعضها مما أضفي على الصورة

---

(١) من مخطوط مقامات الحريري أنتج في بغداد سنة (٦٣٥هـ /١٢٣٧م) والمخطوط مذهب (مقاساته ٣٤.٥* ٢٦ سم) ، محفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس.

Irwin,R., Islamic Art , London:Laurence King,(1997), P 186, pl. 145 .

جوا من الحيوية والواقعية،ويحتل مسجد القرية بمئذنته وقبته الزرقاء اللون الركن الأيمن العلوي للوحة،وإلى جوار المسجد تنمو إحدى أشجار النخيل المثمرة.الأمر الذي أضفى على الصورة جوا من الحيوية والواقعية.وتختلف الدور في ارتفاعها،وأقلها ارتفاعا الدار المرسومة بالجهة اليمنى من الصورة،يشاهد بداخلها رجل جالس يبدو انه يتجاذب الحوار مع شخص آخر،تليها الدار الثانية رسم فيها الفنان أحدى الابقار، والدار الثالثة رسم فيها الفنان منظر الأمومة موضوع الدراسة،حيث رسم الأم وبصحبتها ابنتها،والدار الرابعة فرسم فيها رجلا وامرأة يتحاوران ويتناقشان،والدار الخامسة فرسم فيها امرأة لعلها تغني أو تتحاور مع شخص آخر،والدار السادسة والأخيرة فرسم فيها رجلا يبدو أنه فلاح، ويتضح ذلك من الأداة التي يحملها، وأمام الباب جلس شاب يغزل النسيج.

يشغل منظر الأمومة في الصورة الدار الثالثة سالفة الذكر (لوحة٧ ب)، حيث رسم الفنان الأم واقفة وبصحبتها ابنتها تمسك بها،ورسمت الأم والابنة في وضع ثلاثي الأرباع، ويتضح روعة المنظر في رسم الابنة وقد تشبثت بيد أمها و بسطت الأم لها يديها لتصطحبها، بكل رفق وحنان وعطف الأمومة.وتتضح مهارة الفنان المسلم في هذا المنظر في حسن استغلاله للمساحة،وبراعته في إبراز مشاعر الأمومة و المحبة بين الأم وابنتها في منظر فريد حين رسم الأم وهي تصطحب ابنتها حتى داخل البيت مما يعكس مهارته في إبراز دفء المشاعر والترابط الأسري والاجتماعي في المجتمع الإسلامي الذي عكسته بجلاء حركة الأيدي المترابطة و التصاق الابنة بأمها ومدى تعلقها بها، وهو ما يعكس بوضوح عطف الأم وحنانها.فضلا عن مهارته في إيجاد الشبه الواضح بين الأم وابنتها،سواء في شكل السحنة أو لون البشرة البيضاء أو ملامح الوجه،وفي أسلوب تصفيف الشعر ولونه وفي شكل غطاء الرأس.أما بالنسبة لأزياء الأم فقد ارتدت رداءا أحمر طويلا ذا أكمام طويلة وغطت رأسها بغطاء ذي لون أخضر داكن له أطراف ذهبية اللون،أما الابنة فقد ارتدت رداءا أزرق فاتحا ذا أكمام طويلة،وعلا رأسها طاقية ذهبية اللون،ويتدلى شعر الأم والابنة من أسفل غطاء الرأس خلف الظهر.والواقع ان رسم الفنان لمنظر الأمومة في الدار الثالثة بالصورة قد عكس جوا من الحنان والهدوء،والصفاء النفسي والسكون والمحبة،والذي خفف

من حدة الحوار والنقاش الموجود في الدار المجاورة لدار الأم. وهي مهارة فنية من الفنان المسلم في إبراز مظاهر متنوعة من الحياة الاجتماعية الواقعية في لوحاته سواء في منظر الأمومة أو المناقشة والحوار بين الرجل والمرأة بالدار الرابعة بالصورة.وتبرز مهارة الفنان هنا في استخدام الظل والنور بشكل طبيعي وبسيط وذلك حين نفذ خلفية منظر الأمومة باللون الأسود ورسم الأم وابنتها بالألوان الفاتحة سواء بالنسبة للسحنة البيضاء أو الأزياء،مع حسن توزيع الألوان مما ساعد على إبراز موضوعه الفني.كما برع الفنان المسلم في جعل الصورة مفعمة بالحيوية والحركة والواقعية في جميع أجزائها.

أما المنظر الثالث والأخير فنراه يمثل في صورة الحاكم وأتباعه مجتمعين في مسجد (لوحة ٨أ)[١] حيث قسم الفنان المسجد إلى قسمين في اللوحة القسم العلوي خاص بالرجال والسفلي خاص بالنساء،ويشاهد في القسم العلوي خطيب المسجد جالسا يعلو المنبر ويلقي الخطبة وجلس أمامه الشيوخ والشباب يستمعون إليه.أما القسم السفلي فهو خاص بالنساء وقد جلسن للاستماع إلى الخطيب،وترى بعض النساء وبصحبتهن أطفالهن.وتشاهد النساء وقد جلسن وهن يرتدين عباءات الرأس والنقاب،وقد كشف بعضهن عن وجوههن داخل المسجد،وقد ارتدين الأردية الخارجية البيضاء اللون.ويبرز منظر الأمومة هنا في رسوم النساء المصاحبات لأبنائهن في المسجد،حيث رسم الفنان اثنين من الأمهات بصحبتهن أبنائهن الصغار،فبالنسبة للأم الأولى فهي تمثل السيدة الرابعة من الجهة اليمنى للصورة،وقد جلست القرفصاء.ورسمت في وضع ثلاثي الأرباع بالنسبة للوجه ومواجهة لباقي الجسم،فرسمت بوجه بيضاوي ممتلئ وعيون متسعة تعلوها حواجب سوداء مقرونة ومقطبة،وقد جلست وأجلست ابنها إلى جوارها،وأدارت رأسها جهة اليسار ناحية الابن الذي يحاورها وهي تصغي إليه،ووضعت يدها اليمنى فوق ساقها اليمنى وضمت يدها اليسرى تجاه صدرها.وأخذت تنظر إلى ابنها وتستمع إليه.وعلا وجهها

---

(١) من مخطوط إيراني من القرن (١٠هـ/ ١٦م)
Robinson ,F.,The Cambridge Illustrated History of the Islamic World ,Cambridge : Cambridge University press,(1996), p. 178, pl. 179.

النقاب وارتدت عباءة ذات أكمام طويلة متسعة،غطت بها رأسها وجسمها، وأسفلها رداء ذو رقبة على هيئة حرف (V) باللغة الإنجليزية من اللونين الأحمر والأسود.أما الابن فقد رسم في وضع ثلاثي الأرباع بالنسبة للوجه، بوجه مستدير ممتلئ وعيون ضيقة وحواجب مستقيمة مقوسة، وأنف وفم صغيرين.وجلس أمام أمه،وأخذ يحاورها،واضعا يده اليمنى فوق عضد أمه واليسرى فوق صدره،وعلا رأسه طاقية من اللونين الأحمر والأسود،وارتدى قباء أحمر اللون أسفله قميص أسود اللون،وتمنطق بحزام ذهبي اللون.(لوحة ٨ب).

تتضح مهارة الفنان المسلم في إبراز عطف الأم وحنانها،من اصطحاب ابنها إلى المسجد،وأجلسته إلى جوارها مما يعكس شدة محبتها له وخوفها عليه.أما حرص الأم على سماع ابنها وتلبية رغبته فيتضح من حركة التفات الرأس تجاه الابن ومن حركة إمالة الرأس في الوقت نفسه،ونظرة العيون المتجهة له.كذلك تبرز مهارة الفنان في حسن التعبير عن تعلق الطفل بأمه وذلك من خلال مصاحبته لها في المسجد،وجلوسه إلى جوارها ومحاولة لفت انتباه الأم تجاهه وذلك من خلال تنبيهه لها عن طريق حركة يديه اليمنى الموضوعة على عضد الأم.والواقع فالفنان كان واقعيا وطبيعيا في تمثيله للطفل بأرجله الصغيرة العارية وتمثيله بملامح وجه كله طفولة وبراءة،وحركة يده وهو يحاول لفت نظر أمه تجاهه.

أما منظر المصاحبة الثاني في الصورة،فيتضح بالنسبة للأم الثانية الجالسة في الجهة اليسرى من الصورة.حيث رسمت الأم جالسة تصغي،إلى حديث خطيب المسجد،رافعة يدها اليسرى أمام صدرها،وقد وقف ابنها أمامها شاردا، وهو يحاول جذب انتباهها له عن طريق إمساكه بيده اليسرى لثياب أمه.ورسمت الأم في وضع ثلاثي الأرباع،بوجهه مستدير ممتلئ وعيون متسعة تعلوها حواجب مقرونة ومقطبة وأنف وفم صغيرين للغاية،وصفت شعرها على هيئة خصل تتقدم الأذن،وعلا رأسها خمار،وارتدت عباءة بيضاء.ورسم الابن في وضع ثلاثي الأرباع،بوجه مستدير وعيون متسعة وحواجب مقرونة ومقطبة،وعلا رأسه طاقية من اللونين الأحمر والأسود،وارتدى رداءا طويلا،له فتحة علوية على هيئة حرف (U) باللغة الإنجليزية،وتمنطق بحزام أسود اللون.وقد برع الفنان هنا في التنوع في مناظر

الأمومة في الصورة مابين الاحتضان إلى المصاحبة والحوار.أو التنوع الواضح في حركات الأطفال والذي جاء طبيعيا وواقعيا للغاية.والواقع أن الفنان قد برع في رسم الصورة بكافة تفاصيلها .ونجح الفنان في إضفاء جو من الدفء والترابط الاجتماعي والأسري برسمه لمناظر الأمومة في الصورة،ذلك إلى جانب الجو الروحاني والديني الذي برع الفنان في تمثيله بها .وتبرز مهارة الفنان ودقة ملاحظته حين رسم الولد والبنت على حد سواء في هذه السن المبكرة يصاحبن أمهاتهم في المسجد، فلم يجد الفنان المسلم غضاضة في تمثيل الأمهات وهن يصطحبن أبنائهن وبناتهن إلى المساجد لتعويدهن على الصلاة فيها منذ نعومة أظفارهم، فمثل لنا برسمه لمناظر الأمومة في تلك اللوحة جانبا دينيا واجتماعيا إيجابيا في المجتمع الإسلامي،مما يؤكد على أن الفنان المسلم كان راصدا للمجتمع في جميع أوقاته وفي كل أماكنه.

رابعاً : - مناظر الحمل والاحتضان والحوار

رسم الفنان المسلم إلى جانب مناظر الولادة والرضاعة و المصاحبة،مناظر أخرى للأمومة كمناظر الحمل والاحتضان والحوار، وذلك على النحو التالي:-

أ-مناظر الحمل:-

تبرز مهارة ودقة الفنان المسلم، حين نوع في رسم مناظر الحمل فرسم الأم وهي تحمل وليدها فحسب،أو تحمله مع مداعبته،أو تحمله مع محاورته،أو تحمله مع احتضانه أو تحمله مع هدهدته.يتضح منظر الحمل في صورة تمثل بهرام عند شيفردز (Shepherd's) الذي علق كلبه على الشجرة[1] (لوحة ٩أ)،حيث رسم الفنان منظرا طبيعيا في البادية،ورسم بهرام جالس على سجادة، أسفل شجرة ممسكا بسيفه الموضوع أعلى قدميه بيده اليسرى،في حين يمد يده اليمنى ليتناول إبريقا من شيفردز الشيخ الطاعن في السن الجالس أمامه، وأعلى الشجرة كلب موثوق

(١) من مخطوط خمسة نظامي، شيراز سنة (٩١٣هـ/١٥٠٧م)،(المقاس ١٩x١٧سم)،محفوظ بالمكتبة العامة بلينجراد ((Leningrad،(رقم السجل (No. 340،(الورقة , ١٨٠. (a

Uzbek Academy of Sciences, Nisami's" Hamsah" , Pl.97.

أقدامه ينبح، وخلف بهرام جواده يصهل، بينما نشاهد خلف الشيخ خيمتين فيهما نساء.ففي الخيمة الأولى سيدة جالسة تبدو عليها علامات الحزن الواضحة من حركة يدها اليمنى الموضوعة أسفل خدها. وأمام خيمتها سيدة جالسة واضعه إصبعها في فمها علامة على الدهشة و التعجب.و إلى جوار الخيمة وقفت أم تحتضن وليدها،وأمام الخيمة الثانية وقفت سيدتان تتحاوران،إحداهما وهي اليمنى تحمل طفلها على كتفها الأيمن،وفي خلفية الصورة رسم الفنان مجموعة من الأغنام تجرى في البادية،التي زخرف الفنان أرضيتها برسوم زهور.وقد رسم الفنان منظر الأمومة هنا في المنطقة المحصورة بين الخيمتين (لوحة ٩ب)، حيث يرى حنان الأم وعطفها على صغيرها وشدة تحملها حيث ظلت الأم تحمل طفلها وهي واقفة إلى جوار سيدة قريبة الشبه بها، حيث برع الفنان هنا في هذا المنظر في حسن مراعاته لقواعد المنظور،وحسن استغلاله للمساحة برسم الأم وطفلها الصغير في هذه المساحة الصغيرة التي لا تتعدى بضعة سنتيمترات،وإن بدت الأم منشغلة عن وليدها،بالحوار والنظر إلى السيدة الواقفة إلى جوارها،لكنه أبرز عطاء الأم في حملها للصغير.ونجح في إبراز الأشخاص بكافة تفاصيلها في هذا الجزء الصغير بمنتهى الدقة الفنية،حين رسم الوجوه وجزء صغير للغاية من الكتف الأيمن للأم، كما نجح الفنان المسلم في إبراز منظره الفني عن طريق التنوع في مستويات الرسم فقط وذلك برسم السيدة المجاورة للأم في مستو أعلى،يليه الأم في مستو أقل انخفاضا،واظهر جزء من كتف الأم ليبرز عملية الحمل على الكتف ويعلوه الصغير الذي مثل في مستو مرتفع عن الأم.

ساعد تمثيل الأشخاص في وضع ثلاثي الأرباع على إبراز الأم ووليدها بمنتهى الدقة والوضوح رغم صغر المساحة المتاحة.ونشاهد الأم وهي تحمل طفلها على كتفها الأيمن بوجه مستدير ممتلئ وحواجب مقطبة وعيون متسعة وفم وأنف صغيرين وارتدت خمارا أبيض اللون.أما الطفل فقد جلس مستريحا فوق كتف أمه وأخذ يشاهد ما يدور أمامه مهتماً بالضيف القادم.ويتضح ذلك من اتجاه الوجه وحركة التفاتة الرأس في اتجاه معاكس لوجه الأم،مع حركة العيون وإمالة الرأس تجاه الحديث الجاري أسفل.وقد علا رأسه طاقية مخروطية الشكل حمراء اللون،وارتدى

رداءا أصفر اللون ذا أكمام طويلة.ورسم بوجه دائري ممتلئ وملامح قريبة إلى حد كبير من ملامح الأم وخاصة العيون والحواجب والأنف.وتبرز هذه اللوحة براعة الفنان المسلم في لفت الأنظار إلى الحدث الرئيسي في الصورة وهو زيارة بهرام،حتى إن الطفل الصغير تنبه لما يجرى ووجه أنظاره تجاه الحدث.كما تبرز الصورة مهارته الواضحة في التباين في الألوان ليبرز موضوعه حيث رسم خلفية منظر الأمومة (لوحة٩ب)،بالألوان الداكنة ممثلة في اللون الأسود مع قليل من الذهبي،في حين رسم الأم و طفلها بوجوه بيضاء وألوان فاتحة،حتى إن غطاء رأس الطفل رسمه باللون الأحمر ليتباين مع اللون الأسود ويساعد على إبراز رأس الطفل.وهكذا تعاونت في هذه اللوحة مهارة الفنان في تمثيل منظر الأمومة الذي يوحي بالواقعية الواضحة سواء في حمل الطفل في هذا الوضع وهو من الأوضاع المعتادة لدى كثير من الأمهات أو في إبراز المنظر باللون والحركة مع حسن استغلال المساحة وهو ما يبرز في جميع أجزاء اللوحة ككل.

أما المنظر الثاني فقد مثل في صورة تمثل العجوز تقود المجنون إلى خيمة ليلى[1] (لوحة ١٠أ) تشاهد العجوز تقود المجنون من رقبته في مقدمة الصورة بسلسلة نحو خيمة ليلى الجالسة داخل خيمتها الأولى،وخلف المجنون مجموعة من الصبية تضربه بالأحجار،وعلى يمين المجنون سيدة جالسة أسفل شجرة تنظر إليه.وقد رسم الفنان أربعة من الخيام،الأولى بها ليلى جالسة وخلفها سيدة واضعة يدها على خدها.والخيمة الثانية يقف أمامها رجل وامرأة يتحاوران.والخيمة الثالثة بها سيدتان جالستان،السيدة اليمنى أم تحمل طفلا على أقدامها.أما الرابعة والأخيرة فتقف بها سيدة وأمامها مجموعة من النسوة يقمن بتحضير الطعام،وخلف الخيمة رسم الفنان شجرة مورقة تنمو فوق التل،ومن خلف التل تبرز خيمة بها سيدة تقوم بتقديم وعاء لإحدى السيدات الجالسات تحلب إحدى حيوانات الماعز.وأمام الخيمة راع ترعى أغنامه، وخلف الراعي توجد التلال التي تنمو عليها اثنتان من

---

(١) صفحة من مخطوط خمسة نظامي،من عمل مير سيد على (٩٤٦-٩٥٠هـ /١٥٣٩ - ١٥٤٣م)،إيران، محفوظة بالمتحف البريطاني .

Glück ,H.,Diez ,E.,Die Kunst des Islam,Berlin,(1925), p. 52.

الأشجار.والواضح على مناظر الصورة أنها مفعمة بمناظر الحياة اليومية،وتعج بالحركة.

أما بالنسبة لمنظر الأمومة هنا فقد نفذه الفنان في الخيمة الثالثة على يمين الصورة (لوحة ١٠ب).حيث رسم الفنان الأم جالسة داخل الخيمة وإلى جوارها إحدى النساء تحاورها، وهى تحمل وليدها وتنظر إليه.وقد ضمت الأم ساقها اليمنى إليها وبسطت الساق اليسرى واضعة ابنها بكل عطف وحنان على أقدامها وتحتضنه بين أذرعها حيث احتوته بذراعها الأيسر واضعة أسفل يدها اليسرى أعلى صدره،ووضعت اليد اليمنى أعلى كتفه الأيمن.وأخذت تستمع إلى حديث ابنها بكل اهتمام وإصغاء.وقد رسمت الأم في وضع ثلاثي الأرباع بوجه مستدير ممتلئ وحواجب مقرونة وعيون متسعة وأنف وفم صغيرين،وصففت شعرها على شكل خصل تتقدم الآذن وغطت رأسها بمنديل وارتدت قميصا علاه رداء ذو أكمام طويلة وأسفله سروال طويل ضيق ورسم الابن في وضع ثلاثي الأرباع جالساً فوق أقدام أمه،يحاورها بكل أمان وطمأنينة واضعا يده اليمنى على ساق أمه اليمنى ويلف ذراعه حول ساقها،ورافعا يده اليسرى الأعلى في حركة تعبر عن حواره،ورافعا في الوقت نفسه رأسه الأعلى لتتمكن أمه من سماعه،وقد جلس واضعا ساقه اليمنى فوق اليسرى وجالس كأنه ملك متوج فوق أرجل أمه.ورسم حاسر الرأس يرتدى رداءا قصيرا ذا أكمام طويلة ضيقة وأسفله سروال طويل ضيق .

برع الفنان في إبراز مشاعر العطف والحنان ومدى عطاء الأم وعنائها،البادي في حمل الطفل في هذه السن المتأخرة نسبياً فوق أقدامها رافعة اليمنى،وباسطة اليسرى ليتمكن طفلها من الجلوس بكل راحة.وتعكس حركات الأيدي الموضوعة على طفلها مدى حنانها وخوفها عليه.أما اهتمامها بطفلها وإصغائها له فقد أبرزه الفنان بوضوح من خلال حركة رأسها ونظراتها واتجاه وجهها مما يعكس عطاء الأم ودفئها.في حين نراها وقد أهملت السيدة الجالسة إلى جوارها فلم تبادلها أطراف الحديث،لتستمع وتصغي إلى كلام طفلها الصغير. وأبرز الفنان مدى استمتاع الطفل بسماع الأم له ورغبته في الحوار معها وذلك من خلال حركات الرأس والأيدي والأرجل.

يتضح المنظر الثالث في صورة تمثل ديوان(أو قصائد مجمعة)[1] (لوحة ١١أ) توضح الصورة منظر الحياة البدو حيث رسم الفنان مجموعة من الخيام في منطقة صحراوية نمت فيها إحدى الأشجار،ويغطي الرسوم مجموعة من القصائد مكتوبة بخط النستعليق،ويوجد بعض الأشخاص يمارسون الحياة اليومية،حيث نلاحظ وجود طفلين صغيرين في مقدمة الصورة يلعبان، وذلك في الجهة اليسرى منها،وخلفهما خيمة يقوم بتثبيتها رجل وامرأة وإلى جوار هذه الخيمة الأولى،خيمة ثانية تجلس أمامها أم تحمل وليدها،وأمام الخيمة جلست بعض الأغنام، وعلى مقربة من هذه الأغنام سيدتان تقومان بالأعمال اليومية المنزلية حيث تغسل إحداهما الملابس. أما المنطقة الثانية من الصورة فتتمثل في مجموعة من الخيام متجاورة،تشغل الجانب الأيسر من الصورة حيث جلست بعض الأبقار وتمسك إحدى السيدات بإحداها وأمام الخيمة الأولى وقف رجل ممسك ببقرته،وأمام الخيمة الثانية وقف رجل وامرأة يتحاوران،وفي هامش الجانب الأيمن من الصورة،رسم الفنان رجلا عجوزا يسير متكأ على عصاه وخلفه امرأة تحمل وعاء في يديها.

وفيما يتعلق بمنظر الأمومة (لوحة ١١ب)،فرسم الفنان أم تحمل وليدها الصغير الذي وضعته على أقدامها حيث جلست الأم وضمت ساقها اليمنى ورفعت ساقها اليسرى وحملت الطفل على أقدامها وبين ذراعيها حيث جعلت نصفه السفلى على أقدامها وحملت الجزء العلوي بين ذراعيها واضعة ذراعها ويدها اليمنى خلف ظهره وأعلى كتفه الأيمن ووضعت يدها اليسرى أسفل ذراع الطفل الأيسر، وأخذت تلاطف وليدها وتنظر إليه.ويحاول الوليد أن يرفع رأسه ويده اليسرى تجاه وجه الأم كأنه يحاول محاورتها.ورسمت الأم في وضع ثلاثي الأرباع بوجه مستدير ممتلئ بملامح

---

(١) للسلطان أحمد جلاير،من المحتمل أنها نسخت في بغداد سنة (٨٠٥هـ / ١٤٠٢- ١٤٠٣م) والقصائد مكتوبة بخط النستعليق المبكر وكلها محتوية على أسم المؤلف الملكي أحمد بالتذهيب .والهوامش الحبرية البديعة كانت متسعة و يعتقد أنها معاصرة، لكن المنظر البديل معلق على أنهم آلم الماضي (ضعف الماضي) حيث أنجز في القرن (١١هـ/ ١٧م) بواسطة مصورين إيرانيين في تركيا، أن صح ذلك لمجموعة من الصور، فالرسوم غطت منظرا جميلا لحياة البدو،وهي محفوظة بمتحف الفرير (Freer Gallery Of Art)، بواشنطن (Washing-ton).

Brend,B.,Islamic Art,London:British Museum Press,(1991), p. 145, pl. 98.

تدل على تقدم العمر نسبياً،وحواجب مقرونة وأنف وفم صغيرين.وصففت شعرها على هيئة خصل تتقدم الجبهة في حين يتدلى باقي الشعر خلف الظهر،وعلا رأسها منديل.وترتدي الأم رداءا طويلا ذا أكمام،يعلوه رداء مفتوح يشبه القباء. وتحمل الأم الطفل وتمسك في يدها اليمنى ما يشبه المنديل لعله غطاء الطفل وفي يدها اليسرى شيئا ما لعله اللعبة الخاصة بالطفل.وقد برع الفنان هنا في إبراز منظر الأمومة من مداعبة و مناغاة .وعبر الفنان عن عطف وحنان الأم ومدى تعلق الوليد بها ومحاولته مناغاة أمه وحوارها رغم صغر سنه،وذلك من خلال حركة رأس الطفل ونظرته وحركة يده ،وحركة رأس الأم ونظرتها وطريقة حملها للطفل وإجلاسها له.ورسم الطفل بوجه مستدير ممتلئ و عيون متسعة وحواجب مستقيمة وأنف وفم صغيرين،وصفف شعره القصير للغاية بشكل طبيعي للغاية يدل على صغر سنه،على هيئة خصل تتقدم الجبهة،تفرقت إحداها جهة اليمين عن باقي الوجه.وتتضح مهارة الفنان في إبراز صغر سن الطفل من خلال ملامح الوجه و الشعر ورسم الجزء العلوي منه عارياً،ومن حركة مناغاة الصغير لأمه وهو ما يعكس مدى تشبثه بأمه وتعلقه بها.كما وفق الفنان في إبراز مدى حنان الأم وحبها لصغيرها،وعنايتها به، وذلك من خلال جلستها واحتوائها له بين أرجلها وأذرعها،ومن نظراتها له.يتضح في الصورة بجلاء مدى المهارة الفنية للفنان في إبراز العلاقة الحميمة بين الأم والطفل ومدى تشبثه بأمه و محاولته لفت انتباه أمه تجاهه ومداعبتها،ومدى لهفته على أمه وتعلقه بها والبادي بشكل ملحوظ من حركة الرأس المرفوع والوجه واتجاهه ونظرة العين وحركة الأيدي ورفع نصفه العلوي تجاه أمه.

ب- مناظر الاحتضان :

أولى مناظر الاحتضان منفذة على قاعدة سلطانية[1] (لوحة ١٢أ)حيث مثل منظر فريد يبرز حنان ودفء وعطف الأمومة ومدى عطاء الأم حتى في أصعب الظروف

---

(١) من الخزف المزخرف بالمينا المتعددة الألوان من الري في القرن (٧هـ / ١٣م)، محفوظة بالقسم الإسلامي بمتحف برلين.

Persian Art, (an Illustrated Souvenir of the Exhibition of Persian Art at Burlington House), London:Hudson & Kearns Ltd,(1931), p. 57, pl.iv.

والتي يعكسها منظر الأمومة هنا بجلاء،حيث رسم الفنان الأم جالسة في حضرة الطبيب وقد أجلست أبنتها على أقدامها وضمتها إلى صدرها في منظر يبرز مدى عطف الأم وحنانها وعطائها حتى في اشد الأوقات وأصعبها .حيث جلست الأم في وضع ثلاثي الأرباع وقد بسطت ذراعها اليمن تجاه الطبيب الذي جلس إلى جوارها في وضع ثلاثي الأرباع وامسك بذراعها الموضوع على ساقها اليسرى،وأمسك الذراع بيده اليسرى وأمسك بأداة جراحية في يده اليمنى وأسفل يدي الأم وعاء٠وأما وجه الأم فكان بيضاويا ممتلئا وعيونها لوزية الشكل ضيقة نسبياً منتهية بخط ،وحواجب مقوسة ومقطبة،وفم وأنف صغيرين وقد صفف الفنان شعر الأم على هيئة خصل تتقدم الأذن وباقي الشعر يتدلى خلف الظهر،وعلا رأسها غطاء تتقدمه ريشة،فيبدو أن الأم أميرة،وزينت جيدها بعقد ذي حبيبات مستديرة.وارتدت رداءا طويلا ذا زخارف مخططة طولياً. ويلاحظ الألم على وجه الأم وخاصة في نظرة العيون الشاردة وحركة الرأس المائلة من شدة الألم،وحركة اليد اليمنى الموضوعة على ساق الطبيب وحركة الأيدي والأصابع المضمومة التي توحي جميعها بالألم.ورغم هذا الألم إلا أن الأم احتضنت ابنتها وحملتها على ساقيها. وترى الابنة وقد ارتمت في أحضان أمها،فرسمها الفنان في وضع جانبي كامل ووضعت رأسها على صدر أمها بكل أمان وطمأنينة ورغبة في الإحساس بدفء الأمومة وحنانها،فنراها وقد رفعت ذراعها اليسرى وأمسكت برداء أمها لتستشعر الأمان ودفء الأمومة،وألقت برأسها وجهها على صدر أمها .وقد علا رأسها غطاء رأس معقود من الخلف بمنديل أبيض اللون،وارتدت رداءا طويلا ذا أكمام طويلة متسعة ومزخرف برسوم هندسية مكررة بسيطة (لوحة ١٢ب).ورسم الطبيب بوجه شبه مربع ممتلئ،وعيون ضيقة تعلوها حواجب مقرونة،وأنف وفم صغيرين،ويعلو الفم شارب متصل بلحية قصيرة مشذبة سوداء اللون.ويرتدي رداءا طويلا ذا أكمام طويلة مزخرف برسوم هندسية بسيطة مكررة،ويحيط برأسه هالة مستديرة تشبه تلك التي تحيط برأس الأم.وأغلب الظن أن الهدف منها هنا ليس القداسة وإنما التركيز على ملامح الوجه .

جعل الفنان خلفية المنظر خالية من الزخرفة مما يعكس هدوءا نفسيا يتناسب مع رسوم الأشخاص المنفذين في المنظر،وبما يساعد علي إبراز المنظر.ورسم خلفية

المنظر باللون الأبيض والأشخاص بالألوان الداكنة وهو يبرز حسن توزيعه للألوان وحسن استغلاله للظل والنور في منظره التصويري .كما يبرز المنظر مهارة الفنان في رسم أوضاع الأشخاص و حسن التعبير عن حركاتهم ولفتاتهم بكل دقة ومهارة.وحسن استغلال المساحة المتاحة،وحسن التعبير عن انفعالات الأم وتعبيراتها .ووضوح تفاصيل الأم وابنتها وذلك حين رسم الأم في وضع ثلاثي الأرباع والابنة في وضع جانبي ليوضح منظر الأمومة بشكل كامل،وتمثيل الابنة وهي بين أحضان أمها وتلقي برأسها وجسمها على أمها وهي في أصعب أوقات الألم الجسدي ورغم ذلك يلاحظ عطف وحنان الأم وعطائها التي لم تقم بإبعاد الابنة عنها في وقت مرضها وألمها وتعبها الجسدي وقيام الطبيب بعلاجها،لكنها احتضنت ابنتها على صدرها وتركتها تجلس على أقدامها،وضمتها بكل عطاء الأم وتفانيها في منظر تصويري فريد يمثل مدى حنان وعطاء الأم ،حتى في اشد لحظات التعب والمرض والألم،مما يؤكد على أن عطاءها ممتد ومستمر.وهي مهارة فنية من هذا الفنان في تمثيل عطاء الأمومة وحنانها ومدى تفانيها في القيام بواجباتها على حساب نفسها وراحتها،في تلك اللحظة الهامة من حياة الأم وهى لحظة المرض.فهي لفتة فنية رائعة ونادرة لهذا الفنان المبدع الذي وفق في تمثيل الموضوع في ذلك الوقت العصيب بالنسبة للأم ليبرز لنا بجلاء ومهارة فنية مدى عناء وعطاء الأمومة وتفانيها من أجل أبنائها .

مثل المنظر الثالث على زمزمية من النحاس المكفت تحتوي على مناظر مسيحية متنوعة مثل دخول بيت المقدس وميلاد السيد المسيح -عليه السلام- (لوحة ١٣أ)[١] وقد حفر الفنان على بدن الزمزمية دائرة مركزية يحيط بها ثلاث من الدوائر الكبيرة،التي ملأها الفنان برسوم نباتية محورة تشبه الأرابيسك،أما الدائرة المركزية فقد أحاطها الفنان بدائرة أخرى وشغلها برسم منظر ميلاد السيد المسيح -عليه

(١) تنسب إلى سوريا، في منتصف القرن (٧هـ / ١٣م)، القطر ٣٦,٩سم، محفوظة بمتحف الفرير بواشنطن
Lewis ,B., Ettinghausen,R. and Grabar ,O.,The World of Islam (Faith- Washington). Peaple- Culture), London :Thames and Hudson,(1976), pl. 9., Irwin,R.,Islamic Art, p. 216, pl. 180.

السلام-(لوحة ١٣ب)،بينما شغل المسافات المحصورة بين الجامات برسوم مناظر متنوعة إحداها تمثل دخول السيد المسيح -عليه السلام-لبيت القدس،والأخرى تمثل مناظر القدسيين داخل الكاتدرائية؛أما المنظر الثالث فيمثل السيد المسيح والملائكة فضلا عن المناظر المسيحية الأخرى المتنوعة على بدن الزمزمية.

فيما يتعلق بمنظر الأمومة فنشاهد السيدة مريم العذراء -عليها السلام-،الأم جالسة على كرسي عرش تحمل السيد المسيح -عليه السلام- وتحتضنه بذراعها ويدها اليسرى وضمته إلى صدرها ناحية القلب،بينما ضمت يدها اليمنى ناحية الصدر،ويبدو أنها تمسك بشيء بين أصابعها.ويعلو رأسها ورأس الوليد ملكان مجنحان،وعلى يمينها و يسارها قديسين يعلو رأسيهما هالة مستديرة.وأسفل العرش ملكان مجنحان.وقد جلست الأم (لوحة ١٣ب)في وضع مواجهة كامل بوجه بيضاوي وعيون لوزية تعلوها حواجب مقوسة مقرونة ومقطبة،وأنف وفم صغيرين،وبملامح تبدو عليها التقدم في العمر.وقد ارتدت رداء طويل مفتوح،أسفله رداء قصير يليه سروال.ويشاهد الابن الوليد وقد احتضنته بيدها اليسرى وأجلسته على ساقها اليسرى،وهو جالس في وضع ثلاثي الأرباع بوجه دائري ممتلئ وعيون صغيرة تعلوها حواجب مقرونة وأنف وفم صغيرين. وقد ضم يده اليسرى إلى صدره ورفع اليمنى لأعلى واضعا إصبع السبابة أسفل فمه،ويحيط برأسه هالة القداسة مستديرة الشكل.وارتدى رداءا ذا أكمام طويلة ضيقة أسفله سروال طويل. ومثلت الأم وهي جالسة على كرسي منخفض نسبيا يعلوه وسادة بيضاوية الشكل وله مسند مزين الجزء الخلفي منه برسوم نباتية و هندسية بسيطة يلاحظ في هذه التحفة مهارة الفنان في رسم التفاصيل وملامح الوجوه والتمييز بين الأشخاص،حيث برع الفنان في إظهار ملامح الأم بسن متقدمة نسبيا، فقد بدت على ملامح الأم الوقار والتقدم في العمر ورسمها وهى شاردة الذهن،مشغولة البال متأملة،كأنها تفكر في شيء ما،غير عابئة بابنها الجالس على أقدامها،والطفل هو الأخر مثل شارد الذهن مشغول الخاطر متأمل الكون مثل أمه.ولكن رغم ذلك إلا أن الفنان وفق في إبراز مشاعر الأمومة والعطف والحنان الواضح في حركة ضم الأم لوليدها واحتضانها له وضمه نحو صدرها وعند قلبها،ومحاولة مداعبته بشيء ما تمسكه بيدها اليمنى

لعله طعام أو لعبة أو شيء ما.وإجلاسها للوليد الذي حاول أن يقف على أقدامه مرتكزا على أقدام أمه التي تركته يفعل ما يشاء ضاغطا على ثيابها.نجح الفنان في إضفاء جو من القداسة برسم الملائكة المحيطة بالأم والوليد أو المرسومة أسفل العرش ورسم الأشخاص محاطين بهالة القداسة.ووفق الفنان في تنفيذ المنظر العام للميلاد بكل دقة ومهارة فنية عن طريق الحفر والتكفيت للتحفة فاستفاد من التباين اللوني في إيجاد العمق في التحفة ذلك مع حسن تعبيره عن تفاصيلها،وعن الحركات وملامح الوجه ومراعاة التناسب بين أحجام الأشخاص ،وحسن توزيعه لهم سواء في منظر الأمومة أو على التحفة ككل،وفي إبراز تفاصيل الثياب وطياتها.وفي ملء التحفة بالمناظر المتنوعة التي تدور كلها حول مناظر مسيحية متعلقة بالسيد المسيح (عليه السلام) وحسن توزيعه لها وذلك حين جعل منظر الأمومة وهو الميلاد الذي يمثل المرحلة الأولى من حياة السيد المسيح (عليه السلام)،في مركز التحفة ووزع باقي المناظر الأخرى التي تمثل مراحل عمرية متقدمة على جانب الدائرة حسب التسلسل العمري.كما برزت مهارة الفنان و إبداعه في تنفيذ هذه المناظر التصويرية بالتبادل مع الزخرفة الهندسية والكتابية بمنتهى البراعة الفنية،مع دقته في إبراز تفاصيل المنظر وذلك بالحفر و بالتركيز على التباين اللوني فجعل جميع خلفيات المناظر التصويرية والرسوم الهندسية بألوان داكنة والمناظر نفسها بألوان فاتحة،فاستغل بذلك الظل والنور أحسن استغلال.ووجود الكتابة العربية سواء المحيطة بمنظر الميلاد أو المحيطة بإطار الزمزمية لتؤكد على إسلامية التحفة،رغم ان المناظر مسيحية الطابع،وهو ما يعكس سماحة الدين الإسلامي ، ولعل التحفة نفذها أحد الفنانين المسلمين لأحد الحجاج المسيحيين،أو لإحدى الشخصيات المسيحية، أو نفذها فنان مسيحي في بلاد الإسلام،ففي جميع الحالات يؤكد ذلك على سماحة الدين الإسلامي والمسلمين.

رسم المنظر الرابع في صورة تمثل بهرام عند شيفردز[1] (لوحة ١٩)،ويتجلى منظر

(١) من مخطوط خمسة نظامي، المكتبة العامة بلينجراد (Leningrad) رقمه .(No.340).

Uzbek Academy of Sciences, Nisami's" Hamsah",pl.97.

الأمومة في هذه اللوحة في الأم الواقفة خلف الخيمة الأولى بالجهة اليسرى من الصورة (لوحة ٩ب)،حيث تقف الأم تحتضن وليدها الصغير بين ذراعيها،وأخذت تنظر وترقب الأمر (الحادث) الواقع أمامها[١]، بكل اهتمام.ورسمت الأم في وضع ثلاثي الأرباع بوجه مستدير وعيون متسعة تعلوها حواجب مقرونة ومقطبة وأنف وفم صغيرين،وبملامح تدل على تقدم العمر نسبياً،وغطت رأسها بخمار أبيض اللون،وارتدت رداءا أصفر اللون ذا أكمام طويلة.ومثل الوليد في وضع ثلاثي الأرباع بملامح تدل على حداثة عمره،بوجه مستدير ممتلئ وعيون صغيرة وانف وفم صغيرين،ويلاحظ حرص الفنان على إيجاد تشابه بين الأم والصغير في شكل الوجه والملامح وحتى في لون البشرة بمنتهى الدقة والمهارة الفنية.وارتدى رداءا ذا أكمام طويلة من اللون البني مزركشا بنقط صفراء اللون،وعلا رأسه غطاء رأس مخروطي الشكل من اللون البني.وقد أمسك برداء أمه واستلقى بجسمه على صدرها،ووضع رأسه على كتف أمه التي احتضنته بكل الحب والرفق والحنان.

والواقع أن منظر الأمومة في التصويرة يشع بدفء وحب وحنان الأمومة،التي وفق الفنان في تمثيلها بكل إبداع ومقدرة الفنان،والذي يبدو جلياً سواء في حسن استغلاله للمساحة أوفي الأوضاع أوفي حسن توزيعه للألوان.وتتضح مهارة الفنان في حسن تعبيره عن حنان الأم ودفئها في المنظر،وذلك رغم تمثيل الأم وهي منشغلة عن الصغير سواء بالنظرة أو بحركة الوجه،إلا أنه عبر عن حنان الأم ودفئها وحبها من خلال احتضانها للصغير بين ذراعيها،كما عكست حركة يديها شدة حرصها على ابنها.أما الطفل فقد عبر الفنان عن شعوره بحنان أمه وطمأنينته وذلك من خلال حركة استلقائه على صدر أمه وكتفها،و من خلال حركة يده اليمنى الصغيرة التي تمسك بأمه.وتعكس الصورة كذلك حسن تمثيل الفنان لأوضاع الأشخاص فقد رسم الابن في وضع ثلاثي الأرباع وفي اتجاه معاكس للأم مما ساعد على رؤية تفاصيل وجه الصغير بوضوح.وفيما يتعلق بحسن توزيعه للألوان فيتضح بجلاء في ألوان أزياء الأم والطفل،حيث اعتمد على اللون الأصفر بالنسبة للأم والبني للطفل،وهو

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذه الصورة، أنظر مناظر الحمل، ص ص١٩،٢٠،لوحة ٩ من نفس البحث.

ما ساعد على إبراز الطفل بتفاصيله،حتى إن غطاء رأس الطفل اتضح بجلاء،وهي مهارة فنية لإبراز منظره التصويري بالألوان ذلك فضلا عن هدوء الألوان. ويتضح إبداع الفنان في رسم الطفل في هذه المساحة الصغيرة التي لا تتعدى سنتيمتر،وإبراز الطفل بكافة تفاصيله بمنتهى الوضوح والمهارة الفنية حتى إن وجه الطفل في تلك المساحة لا يتعدى بضعة مليمترات،فهي مهارة وإبداع فني يستحق الذكر.كذلك خفف تمثيل مناظر الأمومة في هذه اللوحة،من وحشة المنظر الرئيسي والوجوم والدهشة البادية على أشخاص المنظر التصوري،ومن نباح الكلب وصهيل الجواد وهرع وفزع الحيوانات في اللوحة،وربط الكلب في الشجرة،حتى أوراق الشجر بدت حادة وقاسية ومسننة وكأنها أشواك،كل هذه المناظر تثير جوا من الفزع والهلع والوجوم وساعد ت على إثارة جوا من الوحشة في اللوحة والتي لم يخفف منها سوى مناظر الأمومة الرائعة في تلك اللوحة،والتي أثارت جو من الهدوء وأعطت إحساسا بالطمأنينة،فهي عبقرية من هذا الفنان المسلم،وإبداع من إبداعاته التي نجح في إحداثها في هذه اللوحة التصويرية بما يتناسب مع موضوعها الرئيسي دون أي إخلال بمنظره الرئيسي.

تمثل المنظر الخامس في صورة عوج بن عنوق[1] (لوحة ١٤أ)،وتمثل الصورة عوج بن عنوق ممسكا بسمكة في يده اليسرى ويحاول وضعها في السفينة،وتتكون السفينة من طابقين،العلوي منهما رسم به شيخ جالس يتحاور ويتشاور مع شخص آخر،وقد أجلس الشيخ أمامه شابين،وإلى جوار قائم ساري السفينة جلست أم تحتضن أولادها وإلى جوارها اثنان من الطيور ديك ودجاجة،وفي الطابق السفلي من السفينة مجموعة من الحيوانات المتنوعة،حيث يقوم عوج بتجميع كل زوج من الحيوانات بالسفينة.نفذ الفنان منظر أمومة في شكل رائع وفريد في الصورة (لوحة

---

(١) من كتاب التراث لحافظ ابرو،العصر التيموري،عصر شاه رخ،هرات(٨٢٩-٨٣٧ هـ/ ١٤٢٥-١٤٣٣م)،(المقاس ١٨,٧* ٢٩,٩سم)،(ورقه ٢٣ R.)،محفوظةبمتحف طوبقابسراي باسطنبول(رقم سجل B.282).

Grube,E., La Pittura dell'Islam (Miniature Persiane dal Xii al Xvi Sec),Capitol:Bologna ,(1980), pl. 27.

١٤ب)،حين جلست الأم تنظر وتصغي إلى حديث الشيخ بكل اهتمام وانتباه - لعله زوجها-،حيث رسمت الأم في وضع ثلاثي الأرباع بوجه مستدير ممتلئ و عيون متسعة تعلوها حواجب مستقيمة مقطبة وأنف وفم صغيران،وعلا رأسها خمار،وارتدت رداءا أحمر اللون ذا أكمام طويلة.و قد جلست الأم و أجلست و لديها على أقدامها و احتضنتهما بين أذرعها،وقد جلست متربعة كي تتمكن من حمل الصغيرين على أقدامها.وأمسكت بساق طفلها الأيمن بحركة حانية للأم رغم شدة انشغالها عن صغيريها بنظرتها إلى ما يدور حولها.لكن رغم ذلك فقد نجح الفنان في التعبير ببراعة عن عطف الأم و خوفها على صغيريها وحنانها و دفئها سواء من اجلاسها للأبناء على أقدامها أومن احتضانها لهما بين أذرعها،أومن حركة احتواء ساق وقدم الابن الأيمن .

برع الفنان المسلم بكل مهارة في التعبير بصورة طبيعية وواقعية عن حركة تشاجر الأبناء وهما بين أحضان الأم وعلى أقدامها،وقد رسمهما الفنان في وضع ثلاثي الأرباع،بوجه دائري ممتلئ وعيون متسعة وحواجب مستقيمة مقطبة وأنف وفم صغيرين،وعلا رأسيهما طاقية بنية اللون،وارتدى الطفل الأيمن قباء قصير أخضر اللون،بينما ارتدى أخوه رداءا طويلا بني اللون أسفله قميص أبيض،ويري الطفل الأيسر وهو يحاول توجيه لكمة إلى أخيه الجالس أمامه على أقدام أمه،والابن الأيمن يستعد هو الأخر بيده اليمنى لتوجيه لكمة لأخيه ليرد له لكمته وذلك كله بكل واقعية وطبيعية كما هو معتاد من تشاجر بين الأخوة الصغار في هذه الفترة العمرية المبكرة.وقد رسم الفنان الأخوين متشابهين للغاية وفي نفس المرحلة العمرية و لعلهما تؤمان.وعبر الفنان عن حنان الأم ودفئها وبرزت مهارته حين جعل حتى الطيور تتحسس دفء الأم في اللوحة فرسم الدجاجة تقترب من ذراع الأم وتضع رأسها عليه وتركت رأسها ومنقارها أسفل ذراع الأم وكأنها شعرت بدفء وحنان الأم هي الأخرى،الأمر الذي يعكس شدة ملاحظة الفنان ودقته الفنية.وقد اتضح إبداع الفنان في هذا المنظر بجلاء سواء في أوضاع الأشخاص أو حركاتهم والتباين في اللون وحسن توزيعه لها،حين استغل الفنان بكل مهارة اللون الأبيض لخمار الأم ليجعله خلفية للأبناء مما ساعد على إبراز ملامح الوجه بكل وضوح.كما تبرز

مهارته في إيجاد الشبه بين الأم وأبنائها سواء في شكل الوجه أو الملامح أو حتى في درجة لون البشرة.وحسن التعبير عن الموضوع بالحركات و اللمسات،وان غلب على موضوع الأمومة في اللوحة هنا الواقعية والطبيعية،وتمثيل بعض الطباع الإنسانية بمهارة شديدة خاصة في مشاجرة الأبناء حتى وهم على أقدام الأم وبين أحضانها.وهو ما يعكس مدى عناء الأم في السيطرة على هؤلاء الأبناء المتشاكسون بشكل دائم ومدى عناية الأم للأبناء في ظل هذه المتاعب التي يسببها الأبناء في هذه السن.

نفذ المنظر السابع على قطعة من النسيج،تمثل عمر يتنكر في صورة طبيب يعالج المسحورين في فناء[1] (لوحة ١٥أ)،حيث رسم الفنان أحد القصور.وإلى جوار القصر يسير أحد الرعاة ورسم الفنان خارج القصر مجموعة من الصخور وشجيرة مثمرة.أما داخل القصر فيرى الطبيب وهو ممسك بيده اليمنى أحد المسحورين ويقوم بعلاجه،وعلى مقربه منه جلس المريض كما أمسك به شخص آخر من الخلف،وخلف الطبيب ثلاثة من الرجال الأول منهم يضع يده اليسرى أسفل خده،أما الثاني فينظر إلى الطبيب هو والشخص الثالث الجالس خلفه والذي يقوم بلف العمامة له.وخلف هؤلاء الرجال الثلاثة وقف شابان يتحاوران وينظر الأيمن منهما بدهشة على ما يقوم به الطبيب.وأمام هؤلاء الرجال الثلاثة وعلى مقربة من الطبيب سيدتان يبدو أنهما مسحورتان كما يتضح ذلك من حركاتهما وتشنجاتهما،وخاصة حركة وملامح وجه السيدة اليمنى.وخلف السيدتان رجلان أحدهما جالس ينظر إليهما في دهشة والآخر يدق في هون لعله يجهز وصفة طبية،وخلفهما شخصان يهمسان ويقوم الأول منهما بتجهيز جواده،وخلف المريض تقف سيدتان تحاور اليمنى منهما اليسرى وتشير بيدها إلى الطبيب،واليسرى وهي الأم تصرخ وتنظر في فزع ورعب إلى ما يقوم به الطبيب من علاج للمريض وأغلب

---

(١) من مخطوطة حمزة نامة (٩٦٥-٩٨٠هـ / ١٥٥٧- ١٥٧٢م)، منفذة على قطعة من نسيج القطن مرسومة بالألوان المائية الغير شفافة (المقاس ٦٧* ٥١ سم)، محفوظة بمتحف بروكلين (Brooklyn Museum) Sheila,S.,Blair and Jonathan,M.,The Art and Architecture of Islam (1250 -1800),Hong Kong: Yale University Press,(1994),P.289,pl.362.

الظن أنه زوجها،وهنا يبرز منظر أمومة رائع،حيث رسم الفنان الأم وهي السيدة اليسرى سالفة الذكر،وهي تنظر باهتمام وانتباه وهي تصرخ وبكل لهفة وترقب إلى ما يقوم به الطبيب من علاج للمسحور متلهفة خائفة ولا تبالي بحديث المرأة المجاورة لها،وتمسك بيدها اليسرى بيد ابنها الصغير الذي أخذ يحاور أمه وهي لا تصغي إليه،ومنشغلة عنه بما يدور أمامها،بينما تحتضن الأم الابن الآخر الذي تحمله والذي احتضن أمه وطوق عنقها براحتيه الصغيرتين،واخذ ينظر بكل يقظة و ترقب إلى ما يقوم به الطبيب.ورسم الفنان الأم بوجه شبه مستدير ممتلئ وعيون متسعة وحواجب مقطبة وفم وأنف صغيرين نسبيا.ورسمت الأم في وضع ثلاثي الأرباع وقد ارتدت رداءا طويلا له أكمام تصل إلى المرفقين،وزينت جيدها بعقد،وأيديها بالأساور،وصففت شعرها على هيئة خصل تتقدم الأذن والباقي يتدلى خلف الظهر،وفرقت شعرها من الأمام،وأسدلت عليه من الخلف منديلا شفافا.

تبرز هنا مهارة وعبقرية الفنان المسلم في تنفيذ منظر الأمومة الرائع ومدى مشاركة الفم الآلام والمصاعب في الحياة وتحملها لها،حيث مثلها الفنان في لحظة طبيعية وواقعية للغاية،حيث مثلت الأم وهي في حالة فزع وقلق وخوف ودهشة،ويتضح ذلك بجلاء في شكل العيون وحركتها وشكل الحواجب والصراخ،ورغم هذه المعاناة والذهول وتلك الحالة النفسية السيئة للأم إلا أنها لم تنس أمومتها،فنراها مشغولة بأولادها فاحدهما وهو الصغير يبكي وهي تمسك به والآخر تحمله وتحتضنه،فرغم انشغال الأم عن أولادها بذهنها الا انها عبرت عن حبها وحنانها على أولادها بحركات لا إرادية برع الفنان في إبرازها بشكل طبيعي وتلقائي سواء في حملها للطفل واحتضانها له بذراعها الأيمن،أوفي حركة اليد اليمنى الممسكة بساق الابن بكل اهتمام وخوف،كما برزت في حركة يدها اليسرى والمطبقة بقوة على الطفل الصغير خوفا من أن يتركها ويذهب بعيدا عنها،وهو ما يعكس بجلاء مدى خوفها عليه وحبها له.وبالنسبة للأولاد فيلاحظ أنه فيما يخص الابن الصغير الواقف والممسكة به أمه فقد مثله الفنان وهو يحاور أمه و يحاول أن يصرخ ليلفت انتباه أمه،وعبر الفنان بكل واقعية وطبيعية عن ذلك بحركة الرأس المرفوعة واتجاه العيون نحو الأم والفم المفتوح وأيده بحركة اليد اليمنى للطفل المرفوعة تجاه

أمه .ورسمه الفنان عاريا ،وفي وضع جانبي للوجه،وثلاثي الأرباع بالنسبة لباقي الجسم،وزين جيده بعقد،ورسم بملامح قريبة الشبه من ملامح الأم وبنفس لون بشرتها وهو ما يعكس مدى دقة الفنان ورغبته في إيجاد التقارب بين الأم والأبناء سواء في الملامح أو حتى لون البشرة،ويبدو على ملامح الطفل الخوف والذعر مما يدور حوله .أما الطفل الثاني الذي تحمله الأم -لعلها أنثى -فقد أمسك بأمه واحتضنها ولف يديه حول رقبتها وأخذ ينظر إلى الطبيب وما يفعله بكل اهتمام وقد رسم في وضع ثلاثي الأرباع وصفف شعره خلف ظهره .

برع الفنان وأبدع في التعبير عن حب الأبناء لأمهم،ومدى تعلقهم بها ،رغم شدة انشغالها عنهم ،وهو ما يظهر بجلاء من حركاتهم واحتضان أحد أبنائها لها،وقيام الآخر بمحادثتها إلى حد الصراخ كي تسمعه،وهو ما يعكس في الوقت نفسه مدى حب أمهم لهم وعطائها وعطفها عليهم.كما نجح الفنان بمهارة شديدة في رسم الأم في لحظة حياتية مختلفة عما سبق وواقعية للغاية ونجح في إيضاح مدى ما تعانيه الأم من أعباء ليست فقط في تربية الأبناء فحسب بل من أعباء أخرى في الحياة،ومدى خوفها ولهفتها على المريض هو في أغلب الظن يمثل الزوج.ورغم هذه اللحظة المأساوية إلا أن الفنان نجح في إبراز مشاعر وعواطف الأمومة حتى في أحلك الظروف وأصعبها،وعبر عن ذلك ببراعة بالحركات بكل دقة وإتقان،وأضفى على الموضوع برسمه للأم مع أولادها وهي في الغالب الزوجة بعدا اجتماعيا بل وواقعيا وطبيعيا للغاية وهو مما يعكس دفء المشاعر الإنسانية في المجتمع الإسلامي سواء في مشاعر الزوجة تجاه الزوج المريض ومدى لهفتها وذعرها عليه،أوفي مشاعر الأم وتحملها الأعباء والمسؤولية،فنراها تصطحب أولادها ولم تتركهم بعيدا عنها بل فضلت أن يصحبوها حتى في مثل هذه الظروف،كي تكون مطمئنة عليهم،وتحملت عبء الطفلين بمفردها وهو ما يعكس شدة خوفها على أبنائها وحبها لهم،وهذا ما عكسه الفنان المسلم ببراعة فنية متناهية،تدل على أنه فنان مرهف الحس ويقظ،وكيف وفق في إبراز عطفها وخوفها على أبنائها في هذه اللحظات الواقعية والحياتية الطبيعية التي تبرز قمة عطاء الأم و تحملها للمسؤولية في هذا المجتمع الإسلامي من خلال تلك المساحة البسيطة التي نفذها الفنان في منظره (لوحة ١٥ب).

رسم المنظر الثامن في صورة تمثل الحاكم وأتباعه مجتمعين في المسجد[١] (لوحة ٨أ)[٢].حيث يبرز منظر الأمومة هنا في رسم الأم وهي تحتضن ابنتها في المسجد (لوحة ٨ب)،وهي السيدة الثالثة الجالسة بالجهة اليمنى من الصورة،حيث جلست الأم وقد ضمت إليها قدمها اليمنى في حين رفعت اليسرى واحتضنت ابنتها ولفت ذراعها اليمنى حولها لتطوقها بكل حنان الأم،فوقفت الابنة وأخذت تعبث بيدها اليمنى الصغيرة في نقاب أمها،ورفعت غطاء الرأس بيدها اليسرى.وقد رسمت الأم في وضع ثلاثي الأرباع يغطي وجهها النقاب ولا يبرز منه سوى العيون والحواجب المستقيمة المقطبة،وخصلة سوداء من الشعر وجزء من الأنف.وترتدي عباءة رأس طويلة بيضاء ذات أكمام طويلة متسعة مثل باقي النسوة وأسفل العباءة رداء ذو رقبة مستديرة من اللونين الأسود والبني.و تشاهد الأم وهي تنظر إلى ابنتها التي بدأت تداعب الأم وتعبث بغطاء رأسها ونقابها الأبيض،ورسمت الابنة في وضع ثلاثي الأرباع بوجه مستدير ممتلئ وعيون متسعة تعلوها حواجب مستقيمة مقطبة،وقد أسدلت خصل من الشعر تتقدم أذنها،وعلا رأسها منديل أبيض،وارتدت رداءا أحمر طويل ذا أكمام طويلة،له فتحة علوية على شكل حرف (V) باللغة الأجنبية.

تبرز مهارة الفنان في تمثيل حنان وعطف الأم وذلك سواء في حملها لابنتها،أوفي احتضانها لها وترك ابنتها تعبث بغطاء رأسها ونقابها بكل حرية دون أن تضربها أو تسبب لها أية مضايقات،وهو ما يعكس منتهى المحبة والحرية المعطاة للابنة دون حجر على طفولتها،أو في مصاحبتها لها في المسجد وكان من الممكن أن تتركها،مما يعكس شدة محبة الأم.وتبرز واقعية ودقة ملاحظة الفنان وإبداعه الفني في منظر الأمومة هنا،وذلك حين مثل عبث الابنة بنقاب وغطاء رأس الأم،وعبر عن ذلك بحركة طبيعية معتادة وملحوظة بين الأطفال الصغار،وذلك لجذب انتباه الأم تجاهها وبالفعل نجحت الصغيرة في ذلك،والذي عبر عنه الفنان بوضوح في اتجاه وجه الأم ونظرتها،وحركة إنسان العين تجاه الابنة بكل دقة واهتمام .كما تبرز دقة الفنان في

---

(١) من مخطوط إيراني من القرن (١٠هـ/ ١٦م).

Robinson,F.,Cambridge History, p. 178, pl. 179.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن هذه اللوحة، أنظر مناظر المصاحبة بنفس الدراسة، ص ص١٨،١٩ .

رسم أيدي الابنة الصغيرتين للغاية،فرغم صغر حجم أيدي الطفلة التي تتناسب مع عمرها،إلا أنه عبر عن حركة الأيدي بمنتهى الدقة والواقعية وخاصة حركة اليد اليسرى.كما تتضح مهارته الفنية في حسن استغلال المساحة المتاحة وحسن توزيعه للأشخاص والألوان في الصورة بشكل طبيعي،وتبرز مقدرته على حسن استغلال المساحة المتاحة في رسم الابنة في مساحة صغيرة لا تتجاوز بضعة سنتيمترات رسم فيها الابنة بكل تفاصيلها وبحركة طبيعية وواقعية بمنتهى الدقة.وقد نجح الفنان في التعبير عن مدى الترابط الوجداني بين الأم والابنة ومدى حنان الأم من خلال حركات الرأس واللفتات ونظرات الأعين المتبادلة بين الأم والابنة التي تعكس بجلاء مشاعر المحبة بين الأم و ابنتها،ورغبة الابنة في جذب انتباه الأم وهو ما يعكس مدى تعلق وترابط الابنة بأمها في الوقت نفسه،وتبرز الصورة دقة الفنان المسلم وواقعيته في تمثيل منظر الأمومة بشكل طبيعي وواقعي،وهو ما يبرز مدى إحساسه ورقة مشاعره وقوة ملاحظته لما يدور حوله.ويدل على أنه فنان متمكن من أدواته الفنية ومبدع حين نجح في تمثيل الابنة في هذا الوضع الطبيعي للغاية والواقعي وهي تعبث بغطاء رأس أمها .

جـ - مناظر الحوار :

تمثلت مناظر الحوار في منظرين الأول منهما،رسم في صورة تمثل عمر يتنكر في صورة طبيب يعالج المسحورين في فناء[١] (لوحة ١٥ أ)[٢]، يتضح منظر الحوار هنا بين الأم والابن الممسكة به ألم في يدها اليسرى،حيث مثل الابن عاريا ،في وضع ثلاثي الأرباع وهو يحاور أمه ولكنها لا تصغي إليه،بل وجهت كل اهتمامها وانتباهها إلى الشخص الذي يعالجه الطبيب الذي هو في الغالب زوجها،ولكن رغم شدة اهتمامها بالمريض،إلا أنها أمسكت بشدة بالابن وهو ما عكس شدة حبها له وخوفها عليه،ويرى الابن وهو يحاول أن يلفت نظر أمه تجاهه سواء بالصراخ أو بحركة الرأس المرفوعة تجاه أمه.وهو ما يعكس مهارة من الفنان في تمثيل الحوار بين الابن والأم

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذه الصورة، انظر مناظر الاحتضان، بنفس الدراسة، صـ ٢٦-٢٨ .

(2) Sheila,S., Art and Architecture.,pl.362.

غير المنتبهه له[١] (لوحة ١٥ب).

مثل المنظر الثاني في صورة تمثل ليلى والمجنون في حالة إغماء في آخر لقاء بينهما[٢] (لوحة ١٦أ)،حيث يشاهد المجنون وقد أغمي عليه في وسط الصورة،رسم الفنان المقدمة على هيئة تلال قوسية الشكل مزخرفة بحزم من الحشائش الذهبية اللون،وفي مقدمة الصورة نشاهد شخصا ينقض عليه أسد وخلف الأسد مجموعة من الغزلان ترقب الأمر،وأمام الشخص سالف الذكر خيمة تجلس فيها عجوز ويقف أمام باب الخيمة أحد الشباب يرقب الموقف.وقرب نهاية الصورة خيمتان اليسرى منهما تقف خلفها سيدتان تتحاوران واليمنى يوجد بها أم تحاور ابنها،وخلف الخيمة شيخان يتحاوران وخلف التلال تنمو بعض الأشجار التي تقف عليها الطيور،وخلفها السماء الزرقاء اللون.ويعكس منظر الأمومة في الصورة هنا منظر حوار ومصاحبة حيث رسمت الأم وهي تقوم بغلق باب الخيمة بيدها اليمنى وهي تحاور ابنها الصغير الواقف إلى جوارها،الذي يحاول أن يرفع يديه إلى أمه لتحمله،بينما تبسط الأم يدها اليسرى إليه لتمسك بابنها الذي يرفع يديه إليها ويتقدم نحوها رافعا رأسه وناظرا إليها،ورافعا يديه إلى أعلى ومقدما ساقه اليسرى على اليمنى تجاه أمه كي تحمله.وقد رسمت الأم في وضع ثلاثي الأرباع،بوجه مستدير وعيون متسعة وحواجب مقطبة،وقد صففت شعرها الطويل إلى الخلف،وارتدت رداءا طويلا برتقالي اللون ذا أكمام متسعة وأسفله قميص أبيض اللون.أما الابن فقد رسم في وضع جانبي للرأس وللنصف العلوي من الجسم والأقدام أما باقي الجسم فقد رسم في وضع ثلاثي الأرباع،بوجه مستدير،وعلا رأسه طاقية زرقاء اللون،وارتدى قميصا ذا أكمام قصيرة من اللون الزرق الفاتح أسفله سروال أبيض اللون.(لوحة ١٦ب).

(١) لمزيد من التفاصيل حول أبداع الفنان في هذه اللوحة، أنظر مناظر الاحتضان من نفس الدراسة صـ ٢٦-٢٨ .

(٢) من مخطوط خمسة نظامي، صنع لزوجة محمود جوكي ابن شاه رخ،هرات (٨٤٩-٨٥٠ هـ / ١٤٤٥-١٤٤٦م) (٥ .١٤×٢ .١٠سم)،(ورقة ١٣٨ .R)،محفوظ بمتحف طوبقابسراي باسطنبول (رقم سجل H.781.)

Boris,I.,Marshak and Ernst,J.,Peerless Images (Persian Painting and its Sources),Singapore:Yale University Press,(2002),P.242, pl.157.

تبرز هذه اللوحة مهارة الفنان في تمثيل منظر حوار ومصاحبة بين الأم والابن،في لحظة توضح مدى تعلق الصغير بأمه.وقد عبر الفنان هنا بمنتهى المهارة الفنية عن الترابط و الحنان بين الأم والابن الذي يتضح في اهتمامها بطفلها وإجابة طلبه وذلك من خلال حركة الرأس ونظرة العين وحركة الأيدي المفتوحة والممتدة تجاه الابن لتمسك بيده.ومدى ترابط وتعلق الابن بأمه التي تعكس واقعية هذا الفنان ومهارته الفنية حين عكس ذلك بحركة الأيدي المرفوعة والساق المتجه تجاه أمه،مع حركة رأسه و اتجاه وجهه وحركة يديه وميله بنصفه العلوي تجاه أمه كي تحمله،فعبر في تلك اللوحة الفنية،وفي تلك المساحة الصغيرة منها بشكل طبيعي عن مدى تعلق الابن بأمه وشعوره بحنانها وعطفها عليه ورغبته في أن تحمله أمه.وبالفعل نجح الفنان في أن يعبر عن إجابة الأم لطلب الابن.وعبر عن حنانها ومدى تعلقها بالابن وعطفها وحبها له،فلم تتركه دون أن تجيبه رغم انشغالها بالعمل الذي في يديها وهو غلق الخيمة،فانها تحاول أن تغلق الخيمة بيد واحدة وتجيب الابن إلى طلبه ليس فقط باليد الأخرى بل بكل حواسها وانتباهها فأدارت رأسها تجاهه ونظرت إليه وبسطت يدها إليه لتجيبه إلى طلبه،في نفس اللحظة.وهو ما يعكس مدى عطاء الأم وحبها وعطفها وتجاوبها مع طفلها.وهكذا وفق الفنان المسلم بمنتهى المهارة والعبقرية الفنية في آن يعبر عن هذا الحوار الدائر بين الابن والأم بمنتهى الدقة والإتقان سواء بالحركات أو اللفتات وأوضاع الجسم بمنتهى الدقة الفنية.كما وفق في التعبير عن الصغير ورسمه بأدق التفاصيل وبحجمه الصغير مما جعل المشاهد يتعاطف معه لصغر سنه.كما عبر عن حركات الطفل بمنتهى الدقة والإتقان وبحركات واقعية تبرز مدى تعلقه بأمه وتشبثه بها،بحركة طبيعية وواقعية تصدر من الأطفال عادة في هذه المرحلة العمرية،فنفذها بمنتهى الدقة والإتقان و كأنها كاميرا فنان يقظ وحساس يلتقط الأمومة في لحظة حياتية و طبيعية متكررة في مشاهد الحياة اليومية.وتتضح مهارة الفنان في حسن اختيار أوضاع الأشخاص في منظره فرسم الأم في وضع الثلاثي الأرباع كي ترى بكل وضوح ولإبراز حركة الأيدي الحانية الممتدة من أسفل الخيمة.وتمثيل الابن في ذلك الوضع المتجهة ناحية أمه والراغب في أن تحمله ليستشعر حنانها،في الوضع الجانبي للنصف السفلي

والأقدام،والثلاثي الأرباع لباقي النصف السفلي،فلو مثل الطفل في وضع جانبي كامل لما اتضحت حركة الأقدام الطفل،وأبرز كيفية التفاف الطفل تجاه أمه وتعلقه بها،ولو نفذ في وضع مواجهه لما عبر عن هذا التشبث بالأم واتجاه الطفل ناحيتها.

تأصيل لمناظر الأمومة :

وجدت مناظر الأمومة في الفنون السابقة على الفن الإسلامي،حيث وجدت مناظر الأمومة في الفنون القديمة، ففي الفن المصري القديم (أو الفرعوني) مثلت مناظر الأمومة على لوح مربع بالمتحف المصري من عهد الملك "إخناتون"(١) نرى الملك والملكة جالسين متقابلين تحت أشعة قرص الشمس "اتون"(٢) يدللان بناتهما .ويعد هذا المنظر من أورع المناظر العائلية التي وصلت إلينا من عهدي "اخناتون" و"توت عنخ آمون".(٣)حيث أجلست الأم إحدى البنتين على أقدامها ووضعت الأم يدها اليسرى على رأس ابنتها،في حين وقفت الابنة الثانية على أقدام أمها و أمسكت بوجه أمها بيدها اليسرى،وأخذت تنظر إليها والأم تبادلها النظرات.كما وجدت مناظر الأمومة كذلك ممثلة في الفنون الحيثية من ذلك نقش على حجر من البازلت ، يحمل نصا مكتوبا بالخط الهيروغليفي - الحيثي(٤) يمثل ملكة تحمل طفلا على يديها وتسحب حيوانا من ورائها ويرجع هذا النقش إلى النصف الثاني من القرن الثامن ق.م .(٥) كما وجدت مناظر عديدة للأمومة في

(١) إخناتون : هو الملك أمنحتب الرابع المعروف بإخناتون وهو من ملوك الدولة الحديثة ، من الأسرة الثامنة عشرة. أديب، موسوعة الحضارة، صـ ١١٨ .

(٢) أتون :هو الإله الذي علمته هيليوبوليس لمصر ، وكانت الشمس رمزا له .حسن ، ،صـ ٧١ .

(٣) أديب ، موسوعة الحضارة، صـ ١٢٢، لوحة صـ ١٢٢ .

(٤) الهيروغليفية – الحيثية:كان هناك كتابة أخرى للحيثيين اقل انتشارا ، وفي نطاق محدود ، في جزء من آسيا الصغرى ،وسوريا العليا، وتسمى الهيروغليفية – الحيثية التي بقيت في مرحلة الرسم للعلامات .ومعظم نصوص هذه الكتابة الموجودة على الآثار تشبه إلى حد كبير في اصل علاماتها الهيروغليفية المصرية. وسمحت بعض النصوص من هذه الكتابة المزدوجة (ولاسيما النصوص الموجودة على الأختام الأسطوانية)، بالتوصل إلى حل رموزها التي يبدو أنها قد اكتملت في خطوطها العريضة .أما اللغة المكتوبة بهذه العلامات فكانت هندوأوروبية مثل الحيثية التي كتبت بالمسمارية ولكن باختلاف بسيط. على،رمضان عبده .،تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضاراته (منذ فجر التاريخ حتى مجيء حملة الإسكندر الأكبر)،جـ ٢(الأناضول – بلاد الشام)، القاهرة:دار نهضة الشرق،ط١ ،(٢٠٠٢م)، ص ص ٤٨-٤٩ .

(٥) على، تاريخ الشرق،صـ ٥٣ .

الفن المسيحي للسيدة مريم العذراء (عليها السلام) والسيد المسيح (عليهما السلام)[1].

نتائج الدراسة :

١- رغم أن صور الدراسة سبق نشرها إلا أن موضوع الدراسة يتم لأول مرة تناوله في دراسة مستقلة.

٢- أكدت الدراسة على أن الفنان المسلم كان راصدا لمناظر الأمومة،فمثل الأم في لحظات حياتية فريدة ومتنوعة بشكل طبيعي وواقعي عكس فيها الترابط الأسري والاجتماعي في المجتمع الإسلامي،مثل تمثيل الأمهات وهن يصطحبن أبنائهن إلى المساجد وتعكس الوعي الديني للأمهات،وكذلك تمثيل الأم وهي تصطحب اثنان من أبنائها وهي منهارة إلى الطبيب لعلاج زوجها .ورسم الأم وهي تصطحب ابنتها إلى المنزل.(اللوحات ٨،١٥،٧).

٣-برع الفنان المسلم في تمثيل مناظر الأمومة في مراحل عمرية مختلفة، سواء فيما يتعلق بالأم أو الأبناء،وأن غلب على تمثيل الأم في مرحلة عمرية مبكرة ،أما بالنسبة للأبناء فقد رسمهم في مراحل عمرية متنوعة منذ الميلاد وحتى مرحلة عمرية متقدمة قد تصل إلى عمر خمس سنوات.كما مثل مناظر الأمومة في أماكن مختلفة،سواء في المسجد أو في الحقل أو في البادية أو في البيت أوفي السفينة ولم يقتصر على تمثيل مكان محدد،ولحظة حياتية ثابتة.

٤-نوع الفنان في رسم مناظر الأمومة فلم تكن قاصرة على منظر واحد،فرسم مناظر الولادة والرضاعة والحمل والمصاحبة والحوار والاحتضان.كما أنه نوع في رسمها أحيانا منفردة،أو ضمن موضوع رئيسي آخر أو جزء منه .كما لم تقتصر مناظر الأمومة على التحف الفنية فحسب،بل مثلت كذلك في تصاوير المخطوطات الإسلامية،ولم تقتصر المناظر على فترة زمنية محددة وقطر معين،بل مثلت في

---

(١) انظر : ماهر، سعاد،. الفن القبطي، القاهرة: مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب،(١٩٧٧م). Migeon,G., les Art du Tissu,Paris,(1909) ., Rice,D.T, Byzantine Art, Great Britain, (1935).

فترات زمنية مختلفة،وأن غلب عليها تمثيلها بصفة خاصة في الهند وإيران وتركيا.

٥-انفرد الفنان المسلم برسم منظر فريد وعبقري للأمومة حين رسم الأم لحظة الوفاة وإلى جوارها ابنها وأكد من خلال هذا المنظر على استمرار عطاء الأم حتى الأنفاس الأخيرة.(لوحة٥).وفي منظر آخر فريد ورائع يشاهد فيه الأم وهي تحتضن ابنتها في أصعب الأوقات أثناء عمل جراحة لها .(لوحة ١٢).وهناك منظر فريد ونادر حيث مثل الفنان المسلم عملية ولادة قيصرية بشكل طبيعي وواقعي للغاية ، حيث يقوم الطبيب بشق بطن الأم وإنزال الوليد (لوحة ٢).

٦- أثبتت الدراسة أن الفنان المسلم قد أبدع وأجاد رسم مناظر الأمومة بشكل كبير،عكس بجلاء مشاعر الأمومة الصادقة من عطاء وعطف وحنان ودفء بأسلوب مرهف الحس،في جميع لوحاته الفنية سواء بالحركات أو اللفتات أو بالنظرات أو بالأوضاع التي برع في حسن اختيارها أو في المساحات المحددة والصغيرة للغاية في بعض لوحاته.(اللوحات ٦،٧،٩).

٧- نجح الفنان في بعض الأحيان في إظهار إنشغال الأم عن أبنائها لكنه رغم ذلك وفق في التعبير عن مشاعر الحب والحنان والعطف لدى الأم .كما وفق كل التوفيق في إبراز مشاعر العاطفة المتبادلة بين الأبناء والأمهات،وبصفة خاصة تمثيل أحد البنات وهي تلعب في غطاء رأس أمها وفي نقابها لتجذبها تجاهها أثناء انشغال الأم عنها بسماع الخطبة في المسجد،وفي نفس الصورة برع الابن في لفت انتباه أمه بإمساك عضدها .(اللوحات ٨،٩،١٥).

٨- تميزت أغلب رسوم مناظر الأمومة في الفن الإسلامي بأنها طبيعية وواقعية،فلم يمثل الفنان الأم في صورة ملكة أو آلهة مثل فنون الشرق القديم ، كما أنه لم يقصر الأمومة على الأنبياء فقط مثلما مثل في الفن المسيحي،من جعل معظم مناظر الأمومة منصبة على السيدة مريم العذراء وابنها السيد المسيح(عليهما السلام)،وإضفاء صفة القداسة على مناظر الأمومة ،بل نجد أن الفنان المسلم مثل الأم في الحياة الطبيعية والواقعية،فمثل الأم الأميرة والبدوية والفلاحة والأم البسيطة العادية،وهو ما يعكس واقعية وطبيعية الفن الإسلامي

وقربه من الحياة،وذلك كله مع مراعاة تقاليد الدين الإسلامي من التحوير والتجريد في رسوم الأشخاص .

٩- هناك تحفة فنية إسلامية،حفر عليها منظر أمومة ومناظر أخرى ذات صبغة مسيحية،وهي تعكس بجلاء سماحة الدين الإسلامي، سواء إذا كانت هذه التحفة نفذها فنان مسلم،أو فنان مسيحي،ففي جميع الحالات تؤكد على سماحة الدين الإسلامي،والمجتمع الإسلامي (لوحة ١٣).

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أولا : المراجع العربية :

أ- المصادر العربية :

- ابن دريد،أبي بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري ت ٣٢١هـ،**جمهرة اللغة**،جـ ١، حققه وقدم له رمزي منير بعلبكي ،بيروت :دار العلم للملايين ،(١٩٨٧م).

- ابن سيده،أبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي ت ٤٥٨هـ ، **المخصص** ، جـ٤ ،بيروت:دار الأوقاف الجديدة ،(د.ت).

- ابن كثير،إسماعيل القرشي الدمشقي،**تفسير القرآن العظيم** ،جـ ٤،بيروت:دار المعرفة، (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).

- ابن منظور،جمال الدين محمد بن مكرم ت ٧١١هـ)،لسان العرب ، جـ١ ، مراجعة عبد الله على الكبير، محمد أحمد حسب الله وآخرون ،القاهرة:مطبعة دار المعارف . (١٤٠١هـ/١٩٨١م).

الأزهري،أبو منصور محمد بن احمد ٢٨٢-٣٧٠هـ،**تهذيب اللغة** ، حققه إبراهيم الإبياري ، جـ ١٥ ،القاهرة: دار الكاتب العربي،(١٩٦٧م) .

- الرازي،محمد بن أبي بكر بن عبد القادر،**مختار الصحاح** ،رتبه محمود خاطر، القاهرة:دار المعارف،ط٧(١٩٩٤م).

- الزبيدي ،الأمام أحمد بن عبد اللطيف ٨١٢- ٨٩٣هـ،**مختصر صحيح البخاري** المسمى التجريد الصريح ، السلسلة السلفية في العلوم الإسلامية ، جـ٣،(د.م):مركز فجر للطباعة، (٢٠٠٣م).

- الزبيدي،محب الدين أبي الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي،**تاج العروس من جواهر القاموس**، جـ٨ ،بيروت:دار صادر ،(د.ت).

• السعدي،عبد الرحمن بن ناصر ١٣٠٧-١٣٧٦هـ،بهجة قلوب الأبرار **وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار**،الرياض:طبع ونشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ،ط٤ ،(١٤٢٣هـ).

• الفيروز آبادي،مجد الدين بن يعقوب،**القاموس المحيط** ،جـ٤ ،بيروت، دار الجيل، (د.ت).

• المحلي،جلال الدين محمد بن أحمد ٧٩١-٨٦٤هـ،السيوطي،جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ٨٤٩- ٩١١هـ،**تفسير الجلالين**،السلسلة السلفية في العلوم الإسلامية ،جـ١ ،(د.م):مركز فجر للطباعة،(٢٠٠٣م).

• المنذري،الحافظ زكي الدين عبد العظيم.،**مختصر صحيح مسلم** ، السلسلة السلفية في العلوم الإسلامية ، جـ ٤ ،(د.م): مركز فجر للطباعة ،(٢٠٠٣م).

ب: المراجع العربية :

• إبراهيم،جمال عبد الرحيم.،**الفنون الزخرفية الإسلامية في العصرين الأيوبي والمملوكي**،القاهرة:(د.ن)،(٢٠٠٠م).

• أديب،سمير.،**موسوعة الحضارة المصرية القديمة** ، القاهرة:العربي للنشر و التوزيع،(٢٠٠٠م).

• الابرش ،مها عبد الله عمر.،**الأمومة ومكانتها في الإسلام** في ضوء الكتاب والسنة،جـ١ ،جامعة أم القرى،مكة المكرمة سنة (١٤١٧هـ/١٩٩٦م).

• الزعبلاوي،محمد السيد محمد.،**الأمومة في القرآن الكريم والسنة النبوية**، بيروت : مؤسسة الرسالة ،(١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م).

• الزيات،إبراهيم مصطفى حسن.،**المعجم الوسيط** ، ج١ ،طهران:المكتبة العلمية،(د.ت).

• السامرائي،إبراهيم.،**من معجم الجاحظ** ،العراق،دار الرشيد للنشر ،(١٩٨٢م).

• برانشو،جونفيف.دانا،جاكلين.، ديارتي،فرانسواز وآخرون،**عالم الأسرة** ،مج٣ ،

الرباط:مطابع عكاظ ،(١٩٩٣م).

• بستاني،رئيف..**الموسوعة الطبية**،مج٨،جينيف:الشرقية للمطبوعات،(١٩٩٤م).

حسن،أسامة..**مصر الفرعونية** ،القاهرة:مطابع الوادي الجديد،(١٩٩٨م).

• حسن،زكي محمد.. **الصين وفنون الإسلام** ،القاهرة:مطبعة المستقبل،(١٩٤١م).

• ....،**فنون الإسلام** ،بيروت:دار الرائد العربي،(د.ت) .

• ....،**الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي**،القاهرة،مطبعة دار الكتب المصرية،(١٩٤٦م).

• ....،**أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية**،بغداد :(د.ن)،(١٩٥٦م) .

• خشيم ،على فهمي..**آلهة مصر العربية** ،مج١، الدار البيضاء: دار الأفاق الجديدة ، (١٩٩٠م)،

• على،رمضان عبده..**تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضاراته (منذ فجر التاريخ حتى مجيء حملة الإسكندر الأكبر)**جـ ٢(الأناضول - بلاد الشام)،القاهرة:دار نهضة الشرق،ط١ ;(٢٠٠٢م).

• ماهر،سعاد..**الفن القبطي**،القاهرة ،مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب،(١٩٧٧م).

• ....، **الفنون الإسلامية**، القاهرة:الهيئة المصرية العامة للكتاب،(١٩٨٦م).

• مسعود،جبران..**قاموس الرائد** ،مج١ ،بيروت:دار العلم للملايين،ط٥،(١٩٨٦م) .

• موسى،حسين يوسف.، الصعيدي ،عبد الفتاح..**الإفصاح في فقه اللغة** ، جـ١، ،القاهرة: دار الفكر العربي ،ط٢(١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م).

• الانترنت: الشبكة الإسلامية ، الأسرة السعيدة ، **الأم في الإسلام** .

ثانيا :المراجع الفارسية :

• سوداو ،أبو العلاء ..سز در بارماى إيران ، ترجمة ناميد محمد شميراني ، تهران ، شماره , ١٣٣٠

●وزارت فرهنك وآموزش عالى.ناموز نامه ، تهران - جاب نخست ١٣٧٠ .

ثانيا: المراجع الأجنبية :

- Boris,I.,Marshak and Ernst,J.,Peerless Images (Persian Painting and its Sources),Singapore:Yale University Press,(2002).

- Brend,B., Islamic Art, London:British Museum Press,(1991).

- Glück,H.,Diez,E.,Die Kunst des Islam,Berlin,(1925).

- Grube,E., La Pittura dell'Islam (Miniature Persiane dal Xii al Xvi Sec), Capitol: Bologna,(1980).

- http://www.islamweb.net/family/mother/mother3.

- Irwin,R., Islamic Art , London:Laurence King,(1997).

-James,D.,Islamic Art an Introduction, London:Hamlyn,(1974).

-Kühnel,E.,Islamische Kleinkunst, Berlin:Richard Carl Schmidt&co, (1925).

- Lewis,B., Ettinghausen ,R.and Grabar,O.,The World of Islam (Faith-Peaple- Culture),London:Thames and Hudson,(1976).

- Migeon,G.,Les Art du Tissu,Paris,(1909).

- Milanesi,E.,The Carpet,Spain: Milan,(1997).

- Persian Art,(an Illustrated Souvenir of the Exhibition of Persian Art at Burlington Hause),First Edition,London:Hudson &Kearns Ltd,(1931).

- Rice,D.T., Byzantine Art,Great Britain,(1935).

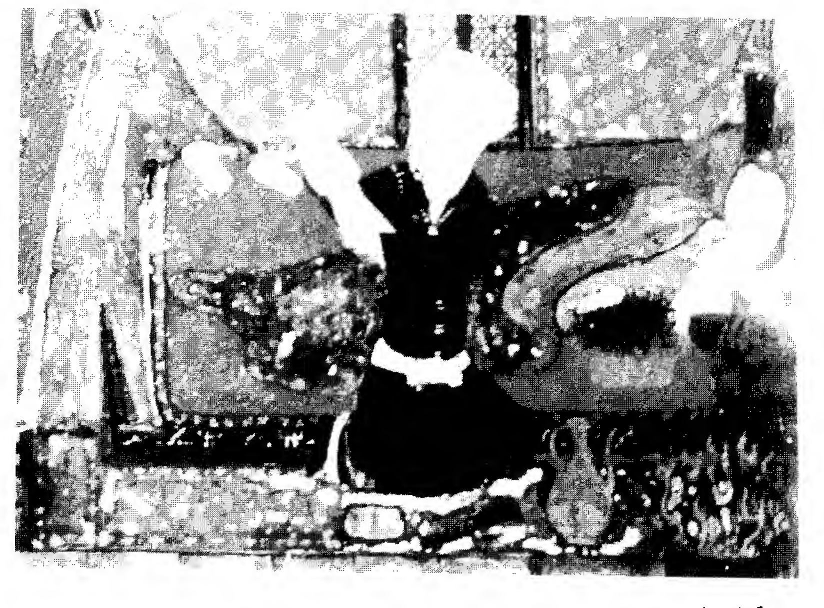
- Robinson,F.,The Cambridge Illustrated History of the Islamic World,Cambridge:Cambridge University Press,(1996).

- Sheila,S., Blair and Jonathan,M.,The Art and Architecture of Islam (1250-1800), Hong Kong: Yale university press,(1994).

- Uzbek Academy of Sciences, Miniature Illuminations of Nisa-mi's"Hamsah",Tashkent,(1985).



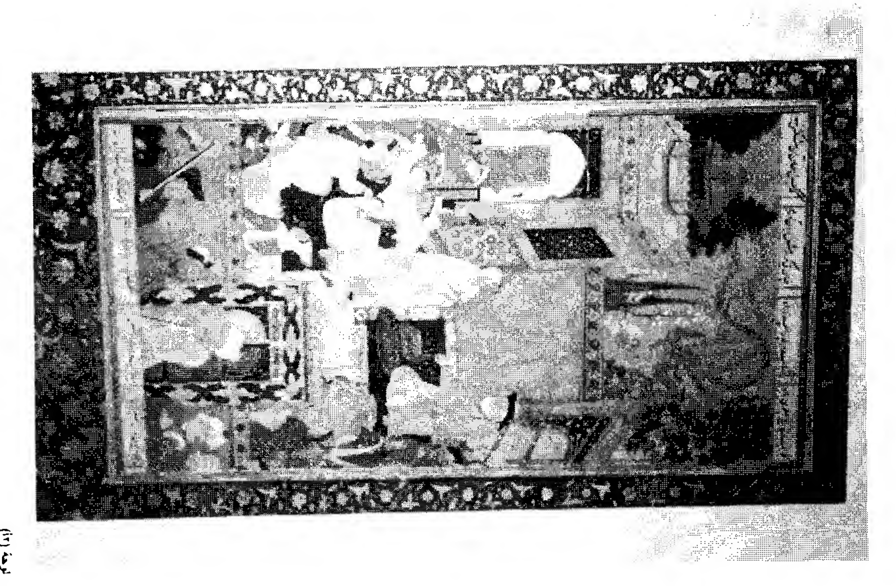
لوحة (أ)
صورة تمثل رودابة تلد رستم ،من عمل سزارين من العصر التيموري.
أبو العلاء سوداو : سز در بارماى إيران ،صـــ ٥٧ ، لوحة ١٢٧.اى .



لوحة (اب)
تفاصيل منظر الولادة باللوحة سالفة الذكر .



لوحة (٢ب)
تفاصيل منظر الولادة باللوحة سالفة الذكر.



لوحة (٢)
صورة تمثل ولادة رستم، من مخطوط شاهنامة الفردوسي من العصر المغولي الهندي (القرن ١١هـ/ ١٧م) مكتوب بخط
النستعليق (المقاس ٢٠١٫٧ × ٣٠٫٢١سم)، محفوظ بمتحف طهران (رقم سجل ٢٨٩١)
زيارات فرهنگ: تصوير نفسه، ص ٢٩١، لوحة ٢٨٨.



لوحة(٣)
تمثال لأم ترضع صغيرها،من الخزف ذي البريق المعدني،إيران،الري في القرن(٧هـ / ١٣م)،محفوظ بالقسم الإسلامي بمتحف برلين.

Kuhnel (E.), Islamische Kleinkunst , S.91, abb. 25.



لوحة (٤أ)

صورة تمثل الاستعدادات لحفل خطبة ليلى من ابن سالم من مخطوط خمسة نظامي، إيران، تبريز حوالي سنة (٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م)، محفوظ بمتحف فوج للفن (Fog –Art Museum).

James (D.), Islamic Art, p. 51, pl. 48.



لوحة (٤ب)
تفاصيل منظر الرضاعة باللوحة سالفة الذكر.



لوحة (٥أ)

صورة تمثل فيليب يشاهد سيدة متوفاة حديثا وإلى جوارها طفلها، من مخطوط خمسة نظامي، بخارا سنة (١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م).(المقاس ٢٥ × ٣٩ سم).المحفوظ بالمكتبة العامة بلينجراد (Leningrad) (رقمه INV. PNS.66).
Uzbek Academy of Sciences, Miniature Illuminatlons Of Nisami's , pl. 193.



لوحة (٥ب)
صورة تمثل تفاصيل لمنظر الأمومة باللوحة سالفة الذكر .



لوحة (٦أ)
سجادة أشخاص من الهند ترجع إلى العصر المغولي الهندي (بداية القرن ١١هـ / ١٧م)، محفوظة بمتحف بوسطن للفنون الجميلة (Boston Museum Of Fine Arts).
Milanesi (E.), The Carpet, pl.139



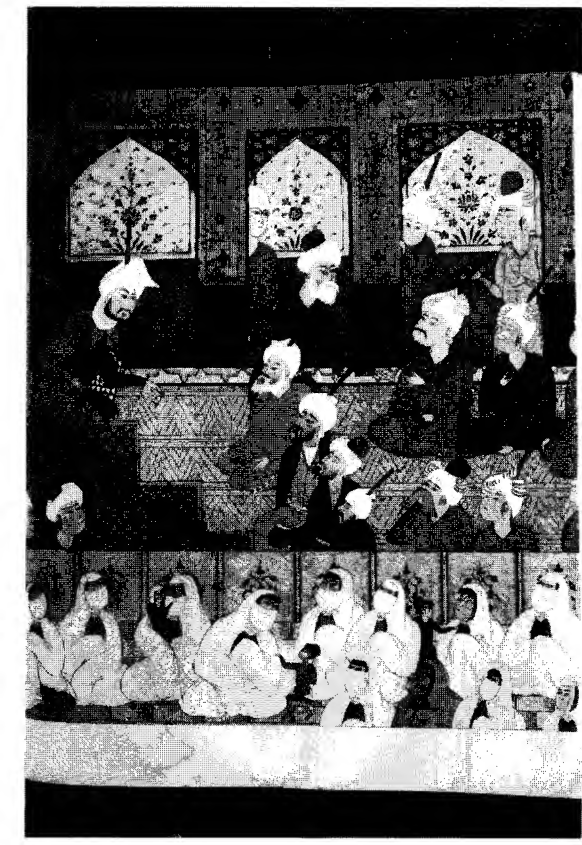
لوحة (٦ب)
تفاصيل لمنظر الأمومة بالسجادة سالفة الذكر .



لوحة (٧أ)
صورة تمثل منظر قرية من مخطوط مقامات الحريري أنتج في بغداد سنة (٦٣٥هـ /١٢٣٧م) والمخطوط مذهب (مقاسه ٣٤,٥ × ٢٦ سم) . محفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس.
Irwin (R.), Islamic Art , P. 186, pl. 145 .



لوحة (٧ب)
تفاصيل لمنظر الأمومة باللوحة سالفة الذكر .



لوحة (٨أ)

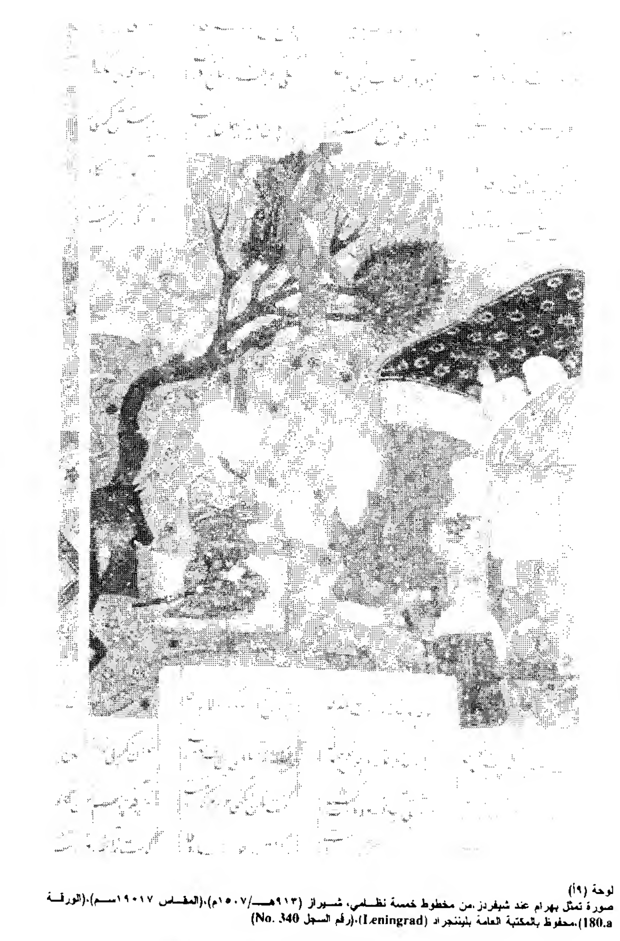
صورة تمثل الحاكم وأتباعه مجتمعون في مسجد. من مخطوط إيراني من القرن (١٠هـ/ ١٦م) .

Robinson(F.),The Cambridge Illustrated History . p. 178, pl. 179.



لوحة (٨ب)

تفاصيل لمناظر الأمومة باللوحة سالفة الذكر .



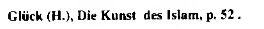
لوحة (٩أ)
صورة تمثل بهرام عند شيفردز،من مخطوط خمسة نظامي، شيراز (٩١٣هـ/١٥٠٧م)،(المقاس ١٩×١٧سم)،(الورقة 180.a)،محفوظ بالمكتبة العامة بلينينجراد (Leningrad)،(رقم السجل No. 340)

Uzbek Academy of Sciences, Miniature Illuminations Of Nisami's , pl.97.



لوحة(٩ب)
تفاصيل لمناظر الأمومة باللوحة سالفة الذكر .



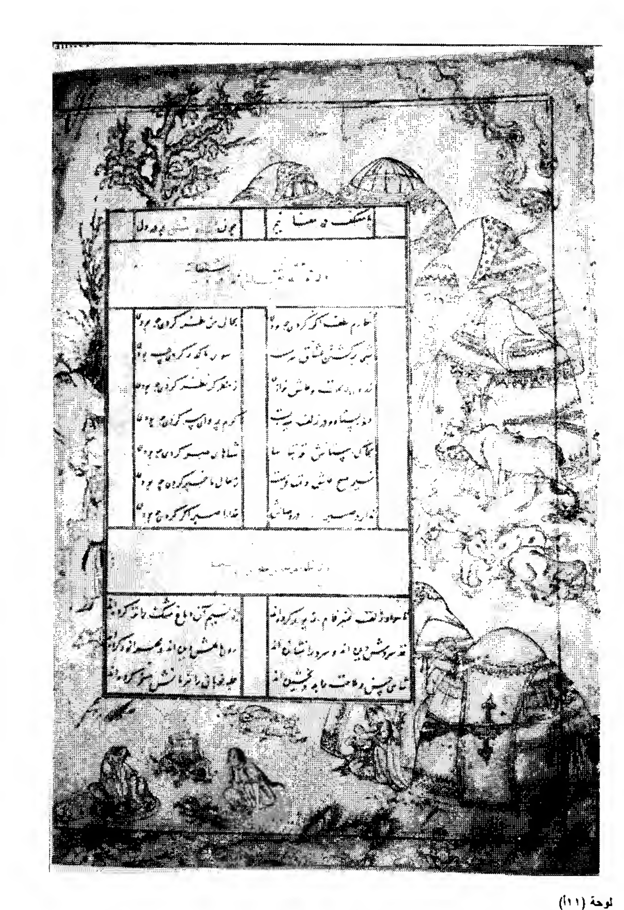


لوحة (١٠أ)
صورة تمثل العجوز تقود المجنون إلي خيمة ليلى. صفحة من مخطوط خمسة نظامي،من عمل مير سيد علي (٩٤٦-٩٥٠هـ/ ١٥٣٩ - ١٥٤٣م)،إيران، محفوظة بالمتحف البريطاني .

Glück (H.), Die Kunst des Islam, p. 52 .



لوحة (١٠ب)
تفاصيل لمنظر الأمومة باللوحة سالفة الذكر.



لوحة (١١أ)
صورة تمثل قصائد مجمعة للسلطان أحمد جلاير من المحتمل أنها نسخت في بغداد سنة (٨٠٥هـ / ١٤٠٢- ١٤٠٣م) وهي محفوظة بمتحف الفرير (Freer Gallery Of Art) بواشنطن (Washington).
Brend (B.), Islamic Art, p. 145, pl. 98.



لوحة (١١ب)
تفاصيل لمنظر الأمومة باللوحة سالفة الذكر.



لوحة (١٢أ)
قاعدة سلطانية من الخزف المزخرف بالمينا المتعددة الألوان، من الري في القرن (٧هـ / ١٣م)، محفوظة بالقسم الإسلامي بمتحف برلين.

Persian Art, p. 57, pl.iv.



لوحة (١٢ب)
تفاصيل لمنظر الأمومة باللوحة سالفة الذكر.



لوحة (١٣أ)
زمزمية من النحاس المكفت ،مزخرفة بمناظر مسيحية متنوعة ، تنسب إلى سوريا، في منتصف القرن (٧هـ / ١٣م).القطر ٣٦.٩سم، محفوظة بمتحف الفرير بواشنطن (Washington)
Lewis (B.), The World Of Islam,pl.9.



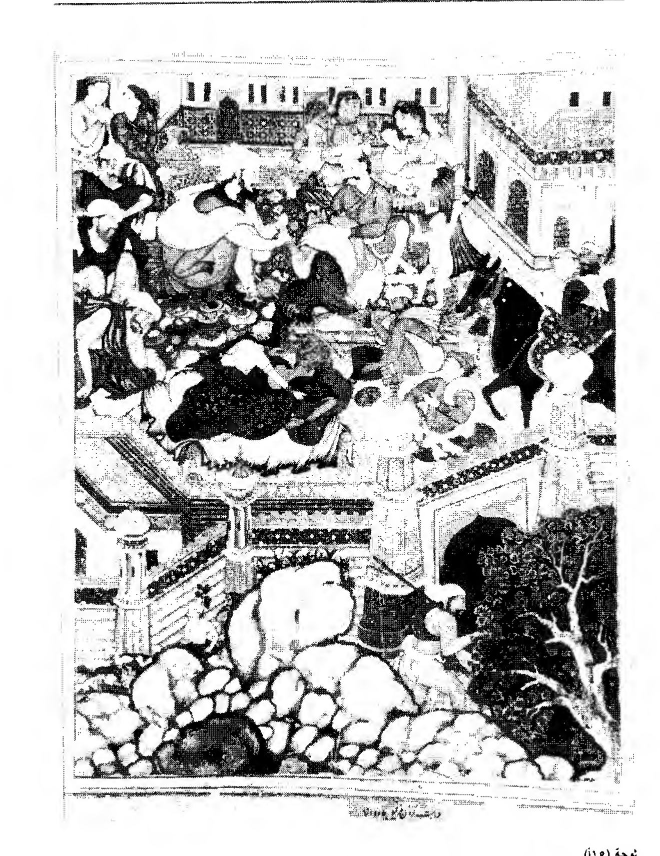
لوحة (١٣ب)
تفاصيل لمنظر الأمومة باللوحة سالفة الذكر.



لوحة (١٤أ)
صورة تمثل عوج بن عنوق ، من كتاب التراث لحافظ ابرو،العصر التيموري،عصر شاه رخ،هرات(٨٢٩-٨٣٧ هـ/ ١٤٢٥-١٤٣٣م).(المقاس ١٨،٧ × ٢٩،٩سم).(ورقه R.٢٣).محفوظة بمتحف طوبقابسراي باسطنبول(رقم سجل B.282) .
Grube (E.), La Pittura dell 'Islam, pl. 27.



لوحة (١٤ب)
تفاصيل لمنظر الأمومة باللوحة سالفة الذكر.

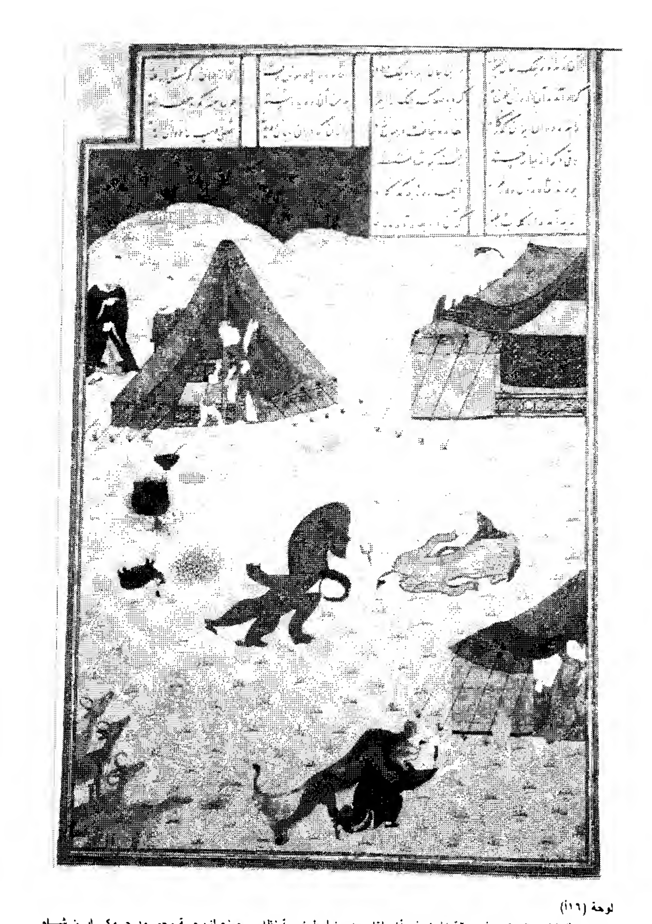


لوحة (١٥أ)
قطعة من نسيج القطن مرسوم عليها بالألوان المائية الغير شفافة صورة تمثل عمر يتنكر في صورة طبيب يعالج المسحورين في فناء، من مخطوطة حمزة نامة (٩٦٥-٩٨٠هـ / ١٥٥٧- ١٥٧٢م)، (المقاس ٦٧× ٥١ سم).محفوظة بمتحف بروكلين (Brooklyn Museum)

Sheila (S.), ,The Art and Architecture of Islam, P. 289,pl. 362.



لوحة (١٥ب)
تفاصيل لمنظر الأمومة باللوحة سالفة الذكر.



لوحة (١٦أ)
صورة تمثل ليلى والمجنون في حالة إغماء في أخر لقاء،من مخطوط خمسة نظامي، صنع لزوجة محمود جوكي ابن شاه رخ،هرات(٨٤٩-٨٥٠ هـ / ١٤٤٥- ١٤٤٦م)(المقاس١٤,٥×٢٠,١٠سم)،(ورقة 138.R)،محفوظ بمتحف طوبقابسراي بإسطنبول (رقم سجل H.781) .

Boris(I.),Peerless Images, P.242,pl.157.



لوحة (١٦ب)
تفاصيل لمنظر الأمومة باللوحة سالفة الذكر.

رسالة الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود إلى أهل المخلاف السليماني

(١٢١٥هـ/١٨٠٠م)

دراسة وتحقيق

الدكتور/ علي بن حسين علي الصميلي

قسم الاجتماعيات

كلية المعلمين - جازان



ملخص البحث

يتناول هذا البحث دراسة وتحقيق رسالة الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود إلى أهل المخلاف السليماني، لدعوتهم إلى اتباع دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وذلك من خلال وجود نسخ من هذه الرسالة في بعض المصادر التاريخية.

وقد بدأ الباحث بتسليط الأضواء على الأوضاع السياسية في المخلاف السليماني قبل وصول رسالة الإمام عبد العزيز، ثم عرف بالإمام عبد العزيز تعريفاً مختصراً لأنه علم من أعلام الجزيرة العربية في التاريخ الحديث، وقد تم تناوله في كل الدراسات التي تناولت تاريخ الدولة السعودية الأولى. ثم بين الباحث أهمية هذه الرسالة، والأسباب التي دفعت إلى دراستها وتحقيقها، باعتبار أن الحروب التي قامت بين الأشراف آل خيرات حكام المخلاف السليماني، وأتباع دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في المخلاف ثم مع الدولة السعودية قد ترتبت على هذه الرسالة، إذ أن الأشراف آل خيرات عندما لم يستجيبوا لرسالة الإمام، وحاربوا أتباع الدعوة هبَّ الإمام عبد العزيز لنجدتهم عن طريق إرسال الحملات العسكرية إلى المخلاف السليماني.

كما بين الباحث كيفية الحصول على نسخ الرسالة، مبدياً الملاحظات على ما تعرضت له هذه الرسالة من الزيادة بعد وصولها إلى المخلاف بما لا يتفق مع الوضع السياسي القائم آنذاك، أو التسلسل الزمني للحوادث التاريخية، وهذه الملاحظات كانت من الدوافع الأساسية لدراسة الرسالة وتحقيقها، ثم أعقب ذلك بالمقارنة بين نسخ هذه الرسالة موضحاً الاختلافات التي بينها ومعرفاً ومعلقاً في الهامش على ما يستحق ذلك.

Abstract

This research deals with Imam abdel Aziz bin Mohammed Al- Saud message to the people of Al-Mekhlaf Al-Sulimany. In which, the Imam invites them to follow sheikh Mohammed Bin Abd El- Wahab's call. The study is conducted by making use of some historical versions of this message.

The writer starts his study with a short biography of the Imam because he was awell known person in the modern history of the Arabian Peninsula. His life was dealt with, in detail, in all the sudies about first Saudi state. Then, the writer shows the importance of this message and the reasons led to sending it since it was the cause of the wars between the nobility of Al-Khirat (the rulers of Al-Mekhlaf Al-Sulimany) and the followers of Sheikh Mohammed Bin Abd El-Wahab's call in Al-Mekhlaf and then the wars between the rulers of Al-Mekhlaf Al-Sulimany and the Saudi State. When the nobility of Al-Khirat did not respond to the message and fought the followers of Sheikh Mohammed Bin Abd El-Wahab's call, Imam Abdel Aziz Bin Mohammed Al-saud hurried to support the followers of the call by sending militrary compaigns to Al-Mekhlaf.

The writer also shows his means of getting verions of the message adding remarks showing the changes in the message that exposed to after ar-

riving at Al-Mekhlaf. Such changes contradict with the political situation and chronological order of the historical events. These remarks from the springboard of this study. This is followed by a comparison between the different versions of the message, showing the differences they contain, and commenting on such changes when needed .

مقدمة :

من الأساليب التي لجأ إليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأئمة الدولة السعودية الأولى لنشر الدعوة السلفية كتابة الرسائل إلى أُمراء وعلماء أقاليم الجزيرة العربية. ومن الأقاليم التي وصلت إليها هذه الرسائل المخلاف السليماني، حيث وجه والإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود رسالة إلى أهل المخلاف في سنة ١٢١٥هـ /١٨٠٠م يدعوهم فيها إلى التوحيد ونبذ البدع والخرافات، واتباع دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وكانت رسالة الإمام عبد العزيز إلى أهل المخلاف هي البداية الفعلية لوصول الدعوة السلفية والنفوذ السعودي إلى المخلاف السليماني وبلاد اليمن. وقد كان موقف أمراء المخلاف الأشراف آل خيرات سلبياً من هذه الرسالة، وحاربوا أتباع الدعوة، الأمر الذي جعل الإمام عبد العزيز يسارع إلى نجدتهم عن طريق إرسال الحملات العسكرية، وقد تمكنت هذه الحملات من الاستيلاء على المخلاف بعد الانتصار على الأشراف آل خيرات.

وقد تعرضت هذه الرسالة التي أوردها المؤرخ عبد الرحمن بن أحمد البهكلي في كتابه نفح العود بعد وصولها إلى المخلاف إلى زيادة جملة لا تتفق مع سياق الحوادث التاريخية في المخلاف ولا تسلسلها الزمني.

ولأهمية هذه الرسالة والنتائج التي ترتبت عليها قام الباحث بدراستها وتحقيقها من خلال المصادر التي وردت فيها، والمصادر الأخرى المعاصرة لها، وحدد موضع الزيادة معتمداً على الأدلة النقلية، والاستنتاجات العقلية، وعزاه إلى النساخ، مستبعداً أن يكون المؤرخ عبد الرحمن بن أحمد البهكلي الذي أورد هذه الرسالة في كتابه نفح العود هو صاحب الزيادة.

المخلاف السليماني قبيل وصول رسالة الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود إلى أهل المخلاف

تمكن الأشراف آل خيرات[1] في عهد الشريف محمد بن أحمد[2] من بسط سيطرتهم على غالبية المخلاف السليماني[3]، فشمل نفوذهم المنطقة الممتدة من حرض[4] جنوباً إلى

---

(١) الأشراف آل خيرات: ينسب الأشراف آل خيرات إلى جدهم الشريف خيرات بن شبير بن بشير بن أبي نمي من ذوي زيد أشراف مكة، وقد قدم الشريف خيرات إلى المخلاف السليماني في سنة ١٠٧٦هـ/١٦٦٥م واتخذ من مدينة أبي عريش مقراً له حتى توفي، ولا تشير المصادر التي أمكن الإطلاع عليها إلى تاريخ وفاته، وكان أول من تولى الإمارة من هذه الأسرة الشريف أحمد بن محمد بن خيرات، فقد تولى إمارة أبي عريش في سنة ١١٤١هـ/١٧٢٨م بتكليف من إمام صنعاء المنصور حسين بن المتوكل، وظل الشريف أحمد في الإمارة حتى توفي في سنة ١١٥٤هـ/١٧٤١م. أحمد بن النمازي ، خلاصة السلاف في تاريخ صبيا والمخلاف، (مخطوط)، (جازان: مدينة بيش، مكتبة الشيخ علي بن أحمد موكلي،ورقة ٤٢)؛ عبد الرحمن بن حسن البهكلي، خلاصة العسجد في دولة الشريف محمد بن أحمد، تحقيق : ميشيل توشيرير و عدنان درويش ، ط١، (صنعاء: المركز الفرنسي للدراسات اليمنية، ٢٠٠٠م)، ص ١٠٤- ١١٦ .

(٢) الشريف محمد بن أحمد: أقوى أمراء الأشراف آل خيرات في القرن الثاني عشر الهجري، تولى الإمارة بعد وفاة والده في سنة ١١٥٤هـ/١٧٤١م، وتمكن في فترة إمارته من توحيد غالبية المخلاف السليماني، واستمر في الإمارة حتى توفي في سنة ١١٨٤هـ/١٧٧٠م. البهكلي، مصدر سابق،ص ١١٦-٢٥٠ .

(٣) المخلاف السليماني: يشمل المخلاف السليماني المنطقة الممتدة من حلي بن يعقوب شمالاً إلى الشرجة (مدينة الموسم) جنوباً، ومن البحر الأحمر غرباً إلى سلسلة الجبال الشرقية شرقاً، ويعرف حالياً بمنطقة جازان، وسمي المخلاف بهذا الاسم نسبة إلى الأمير سليمان بن طرف الحكمي الذي وحد بن مخلافي عثَّر وحَكَم في سنة ٣٧٣هـ/٩٨٣م، أو نسبة إلى الأشراف السليمانيين الذين تعاقبوا على حكم المخلاف من أواخر القرن الرابع الهجري حتى الثاني عشر. عمارة بن علي الحكمي، تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد، تحقيق : محمد بن علي الأكوع، ط٣، (صنعاء: المكتبة اليمنية ، ١٩٨٥م)، ص٥٣، ٤٦٣؛ تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني، بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق: عبد الله بن محمد = = الحبشي ومحمد بن أحمد السنباني، د.ط(صنعاء: دار الحكمة، ١٤٠٨هـ)، ص٣٨-٤١؛ أحمد بن عمر الزيلعي، الأوضاع السياسية والعلاقات الخارجية لمنطقة جازان في العصور الإسلامية الوسيطة، ط١، (الرياض: مطابع الفرزدق، ١٤١٣هـ)، ص١١ .

(٤) حرض: مدينة يمنية في تهامة اليمن على بعد حوالي ١٢ كم من حدود المملكة العربية السعودية، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى حرض بن خولان، وقد ظهر منها كثيراً من العلماء الأجلاء مثل الحافظ أبو بكر يحيى العامري الحرضي وغيره، وهي حالياً المنفذ الجمركي الوحيد للجمهورية العربية اليمنية إلى المملكة العربية السعودية في تهامة اليمن. الحسن بن أحمد الهمداني، صفة جزيرة العرب، تحقيق : محمد بن علي الأكوع، ط٣، (صنعاء: مركز الدراسات اليمنية، ١٤٠٣هـ)، ص١٣٥؛ محمد بن علي الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري، ط١،(بيروت: دار الفكر، ١٤١٩هـ)، ص٨٤٦؛ جولة ميدانية للباحث.

درب بني شعبة[١] شمالاً[٢]، لتنتهي الفوضى والاضطرابات التي كانت تعم المخلاف قبل وصول الأشراف آل خيرات إلى الإمارة. وبعد وفاة الشريف محمد بن أحمد في سنة ١١٨٤هـ/١٧٧٠م[٣] دب الصراع بين أبنائه على الإمارة، فقد أوصى الشريف محمد قبل وفاته بالإمارة إلى ابنه الثاني حيدر[٤] لما لمسه فيه من الكفاءة دون ابنه الأكبر أحمد[٥]، الأمر الذي جعل الشريف أحمد يرفض مبايعة أخيه حيدر بالإمارة،لأنه يرى أنه الأحق بها، وفي سبيل ذلك انقسم أبناء الشريف محمد إلى فريقين، فريق يؤيد الشريف حيدر لأنه الأحق بالإمارة حسب وصية والدهم، والفريق الآخر يؤيد الشريف أحمد بصفته الابن الأكبر، لكن الشريف حيدر حرصاً منه على مصلحة الأسرة تنازل عن الإمارة لأخيه الشريف أحمد.[٦]

وبمجرد أن تولى الشريف أحمد الإمارة بسط يديه في العطاء لأخوته وبقية الأشراف، رغبة منه في كسب مودتهم، ورهبة من منافستهم له على الإمارة[٧]، ولكن ذلك لما يحقق ما كان يصبوا إليه الشريف أحمد، فدب النزاع بين أبناء الشريف محمد. لأن كل واحد منهم يأنس في نفسه المقدرة، ويرى أنه الأجدر بالإمارة من

---

(١) درب بني شعبة: يقع في شمال منطقة جازان على بعد حوالي ١٢٥كم من مدينة جازان، وكان يعرف قبل أن تسكنه قبيلة بني شعبة بدرب ملوح، وقد لعبت قبيلة بني شعبة مع أميرهم عرار بن شار أمير الدرب دوراً كبيراً في نشر الدعوة السلفية والنفوذ السعودي في المخلاف السليماني في القرن الثالث عشر الهجري. عبد الرحمن بن أحمد البهكلي، نفح العود في سيرة دولة الشريف حمود، تكملة الحسن بن أحمد عاكش، تحقيق: محمد بن أحمد العقيلي، ط٢، (جازان: مطابع جازان، ١٤٠٦هـ)، ص ١٣٨-٢٣٠؛ محمد بن أحمد العقيلي، المعجم الجغرافي للبلاد السعودية (مقاطعة جازان)، ط٣، (جازان: شركة العقيلي وشركاه، ١٤١٥هـ)، ص٦٥، ٢١٣ .

(٢) البهكلي، الخلاصة،ص١١٦-. ٣٥٠ للاستزادة ينظر المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٦٨ .

(٤) الشريف حيدر بن محمد: أوصى له والده بالإمارة قبل وفاته لما لمسه فيه من الكفاءة، لكن نتيجة لمعارضة أخوه الأكبر الشريف أحمد تنازل له عن الإمارة، ثم ما لبث أن تولاها مرة أخرى في سنة ١١٨٦هـ/١٧٧٢م بعد أن تنازل له الشريف أحمد عنها، وكانت وفاته في سنة١١٩٠هـ/١٧٧٦م. البهكلي، الخلاصة،ص ٣٦٩؛ عبد الرحمن بن الحسن البهكلي، نزهة الظريف في سير دولة أولاد الشريف، (مخطوط)، (صنعاء: الجامع الكبير، رقم (٢٢٠٦)، نسخة مصورة)، حوادث سني ١١٨٥-١١٩٠هـ.

(٥) الشريف أحمد بن محمد: أكبر أبناء الشريف محمد بن أحمد، تولى الإمارة في سنة ١١٨٥هـ/١٧٧١م،ثم ما لبث أن تنازل عنها في سنة ١١٨٦هـ/١٧٧٢م، ثم ندم على ذلك فدخل في حروب مع أخوته من أجلها حتى استعادها وكانت وفاته في سنة ١١٩٩هـ/١٧٨٤م متأثراً بمرض الجدري. البهكلي، النزهة، حوادث سني ١١٨٥-١١٩٩هـ.

(٦) المصدر نفسه ، حوادث سنة ١١٨٥هـ، البهكلي، الخلاصة،ص ٣٦٩ .

(٧) المصدر نفسه والسنة.

أخيه، ودخلوا في صراعات وحروب أسرية مع بعضهم من أجل الإمارة، لدرجة أن بعضهم تولى الإمارة أربع مرات، وبعضهم ثلاث مرات، وبعضهم مرتين والبعض الآخر مرة واحدة. (1)

ولم يتوقف الصراع بين أبناء الشريف محمد بن أحمد إلا في سنة ١٢٠٤هـ /١٧٨٩م، بعد أن أرهقوا من كثرة الخلافات والحروب الدائرة بينهم، ووجدوا أن المصلحة تقتضي الإجماع على إمارة الشريف يحيى بن محمد(2) بصفته أكبرهم سناً مقابل تعهده بالمحافظة على حقوقهم(3)، وظل الشريف يحيى محتفظاً بالإمارة حتى عزل عنها وأُسندت إلى الشريف علي بن حيدر(4) في سنة ١٢١٤هـ/١٧٩٩م.(5)

---

(١) تولى الشريف يحيى الإمارة أربع مرات: الأولى في سنة ١١٩٢هـ/١٧٧٧م، والثانية في سنة ١١٩٨هـ/١٧٨٣م، والثالثة في سنة ١٢٠٠هـ/١٧٨٥م، والرابعة في سنة ١٢٠٤هـ/١٧٨٩م، وتولاها الشريف أحمد ثلاث مرات: الأولى في سنة ١١٨٥هـ/١٧٧٠م، والثانية في سنة ١١٩٠هـ/١٧٧٥م، والثالثة في سنة ١١٩٣هـ/١٧٧٨م، وتولاها الشريف علي ثلاث مرات : الأولى في سنة ١١٩١هـ/١٧٧٦م، والثانية في سبنة ١١٩٣هـ/١٧٧٨، والثالثة في سنة ١١٩٩هـ/١٧٨٤م، وتولاها الشريف حيدر مرتين الأولى في سنة ١١٨٦هـ/١٧٧١، والثانية في سنة ١١٩٠هـ/١٧٧٦م، وتولاها عمهم الشريف حسن بن أحمد أيضاً مرة واحدة في سنة ١١٨٨هـ/١٧٧٣م. البهكلي ، النزهة ،حوادث سني ١١٨٥-١٢٠٤هـ.

(٢) الشريف يحيى بن محمد : أكثر أبناء الشريف محمد بن أحمد تولياً للإمارة في ظل الصراع بين اخوته عليها، فقد تولاها أربع مرات كان آخرها في سنة ١٢٠٤هـ/١٧٨٩م، حين أجمع أخوته على إمارته. وظل محتفظاً بالإمارة حتى عزل عنها في سنة ١٢١٤هـ/١٨٠٩م، وكانت وفاته في سنة ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م. البهكلي، النزهة، حوادث سني ١١٩٢-١٢٠٤هـ؛ البهكلي،نفح العود، ص٢٧٩-٢٨٠؛ لطف الله بن أحمد جحاف، درر نحور الحور العين في سيرة الإمام المنصور وأعلام دولته الميامين ، تحقيق: عارف بن محمد الرعوي، (رسالة ماجستير غير منشورة)، (صنعاء: جامعة صنعاء، كلية الآداب، قسم التاريخ، ١٤١٩هـ)، ص٥٥٩ .

(٣) البهكلي، النزهة ، حوادث سنتي ١٢٠٣-١٢٠٤هـ.

(٤) الشريف علي بن حيدر بن محمد: من أشهر أمراء وقواد الأشراف آل خيرات، ولد في سنة ١١٨٢هـ/١٧٦٨م، ونشأ في ظل الصراع الدائر بين أبيه وأعمامه على الإمارة، وقد تولى الشريف علي إمارة المخلاف مرتين المرة الأولى في سنة ١٢١٤هـ/١٧٩٩م، ثم تنازل عنها في العام التالي لعمه الشريف حمود، وأصبح من كبار قواده، وساهم مساهمة كبيرة في الانتصارات التي حققها الشريف حمود، ثم ما لبث أن اختلف معه فسافر إلى مكة واستعان بواليها من قبل محمد علي باشا، وعقب وفاة الشريف حمود في سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٨م، تولى الشريف علي إمارة المخلاف في ظل تبعيته لمحمد علي باشا، ودخل في حروب متعددة مع إمراء عسير، واستمر في الإمارة حتى توفي في سنة ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م،. جحاف ، مصدر سابق، ص٥٥٩؛ الحسن بن أحمد عاكش، الديباج الخسرواني في أخبار أعيان المخلاف السليماني، تحقيق: إسماعيل بن محمد البشري، ط١، (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤٢٤هـ)، ص ٢٥٣-٣٥١؛ علي بن حسين علي الصميلي، العلاقة بين أمراء أبي عريش وأمراء عسير في القرن الثالث عشر الهجري ١٢١٧-١٢٦٤، ط١(جدة: مطابع البلاد، ١٤١٩)، ص٢٦، ٢٨-٣٣، ١٥٨-١٧٨ .

(٥) جحاف،مصدر سابق، ص ٥٥٩ .

لم يلبث الشريف علي بن حيدر كثيراً في الإمارة حتى بدت طلائع دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الوصول إلى المخلاف السليماني، الأمر الذي أدخل المخلاف في طور جديد، تمثل في اتباع كثير من سكانه لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ومن ثم دخوله في طاعة الدولة السعودية الأولى.وكانت رسالة الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود إلى أهل المخلاف هي البداية الفعلية لاتباع سكان المخلاف لهذه الدعوة.[١]

الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود:

هو الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود بن مقرن بن مرخان بن إبراهيم بن موسى بن ربيعة بن مانع، وينتهي نسب آل سعود إلى بني حنيفة ثم إلى وائل[٢].

ولد الإمام عبد العزيز في الدرعية في سنة ١١٣٢هـ/١٧٢٠م، ونشأ تحت كنف والده، فتعهده بالرعاية، حيث كان يعده لعظائم الأمور، وقد طلب الإمام عبد العزيز العلم على يد علماء الدرعية في ذلك الوقت، وعلى رأسهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب[٣] رحمه الله، حيث كان الشيخ يعقد حلقات الدروس العلمية في الدرعية بعد هجرته

---

(١) البهكلي، نفح العود، ص ١٢١ وما بعدها.

(٢) عثمان بن عبد الله بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، ج١، د.ط،(الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، د.ت)، ص١٦-١٧: راشد بن علي بن جريس، مثير الوجد في أنساب ملوك نجد، تحقيق: محمد بن عمر بن عبد الرحمن العقيل، ط٢، (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤١٩هـ)،ص١٤، ١٨، ٣١ .

(٣) هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي التميمي، ولد في العيينة في سنة ١١١٥هـ/١٧٠٣م ونشأ في أسرة علمية حيث كان أبوه عبد الوهاب قاضي العيينة، وقد حفظ الشيخ القرآن الكريم وهو صغير، ونال نصيباً من العلوم الدينية على يد علماء نجد، ثم هاجر لطلب العلم في الحجاز والعراق، وعند عودته إلى نجد لم يكن راضياً عما يراه من بدع وخرافات قد تفشت في المجتمع النجدي مما يتنافى مع التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى، فجاهر بمعارضته لذلك، ونذر نفسه لمحاربتها، وتحالف مع أمير العيينة عثمان بن معمر، وبدت ملامح الدعوة في النجاح، وأتباعها في ازدياد، إلا أن عثمان بن معمر ما لبث أن أخرج الشيخ من العيينة، فتوجه إلى الدرعية وتحالف مع أميرها محمد بن سعود في سنة ١١٥٧هـ/١٧٤٤م، وكان هذا التحالف بينهما هو النواة الأولى لقيام الدولة السعودية الأولى التي أخذت على عاتقها حماية الشيخ ونشر دعوته، وكانت وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في سنة ١٢٠٦هـ/١٨٩٢م بعد أن عمت دعوته السلفية غالبية شبه الجزيرة العربية. ابن بشر،مصدر سابق،ص٧-٩٦. لمزيدمن المعلومات ينظر:عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح = = آل بسام، علماء نجد خلال ثمانية قرون، جـ١، ط٢ (الرياض: دار العاصمة للنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ)، ص١٢٥-١٦٨: سليمان بن عبد الرحمن الحقيل، حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحقيقة دعوته، ط٢،(الرياض:مؤسسة المتاز للطباعة، ١٤٢١هـ)، ص٢٥-١١٣ .

إليها[١]. وقد شهدت الدرعية في ذلك الوقت نمواً علمياً ملحوظاً، تمثل في أن كثيراً من علماء نجد وطلاب العلم ممن تأثروا بالشيخ هاجروا إليها، لطلب العلم على يد الشيخ، والتدريس في الحلقات العلمية التي كانت تعقد في مساجد الدرعية، مما أدى إلى كثرة العلماء فيها، وبالتالي ازدهار الحياة العلمية[٢]، وقد أدى هذا المناخ العلمي إلى ظهور بعض الإسهامات العلمية لمؤيدي دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومعارضيها[٣].

وقد انعكس هذا على تحصيل الإمام عبد العزيز العلمي وظهر في رسائله التي كان يرسلها إلى علماء وأمراء المناطق المختلفة، ممن دعاهم إلى اتباع دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والدخول في طاعة الدولة السعودية الأولى. [٤] وقد حازت رسائله على ثناء بعض كبار العلماء في ذلك الوقت فوصفوه بغزارة العلم. [٥]

ورغم أن الإمام عبد العزيز قد درس على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ولازمه عن قرب[٦]، كما درس على بعض علماء الدرعية في ذلك الوقت، وظهور بعض

---

(١) ابن بشر، مصدر سابق، ص١٣-١٤ . وتذكر بعض الروايات المعاصرة لتلك الفترة إن الإمام عبد العزيز كان على صلة علمية بالشيخ محمد بن عبد الوهاب قبل هجرته إلى الدرعية. حسين بن غنام، روضة الأفكار والأفهام لمرتاد أحوال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام، جـ١، د.ط، (القاهرة: د.د، ١٣٦٨هـ)، ص٢٢٢ .

(٢) كامل ضاهر، الدعوة الوهابية وأثرها في الفكر الإسلامي الحديث، ط١(بيروت: دار السلام، ١٤١٤هـ)، ص٤١، ٥٩-٦٧: مي عبد العزيز العيسى، الحياة العلمية في نجد منذ قيام دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحتى نهاية الدولة السعودية الأولى، د.ط (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤١٧هـ)، ص١١١-١١٢، ١١٧ .

(٣) للاستزادة عن الحياة العلمية في نجد في ذلك الوقت ينظر: العيسى، المرجع نفسه، ص١٠٥-١٧١ .

(٤) للاطلاع على بعض رسائل الإمام عبد العزيز ينظر: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الدرر السنية في الأجوبة النجدية، ج١، ط١،(مكة: مطبعة أم القرى ١٣٥٢)، ص٨٠-١٥٠ .

(٥) أثنى عليه الإمام محمد بن علي الشوكاني بقوله:" وقد رأيت كتاباً من صاحب نجد الذي هو الآن صاحب تلك الجهات،أجاب به على بعض أهل العلم، وقد كاتبه وسأله بيان ما يعتقده، فرأيت جوابه مشتملاً على اعتقاد حسن، موافق للكتاب والسنة ... وفي سنة ١٢١٥هـ وصل من صاحب نجد المذكور مجلدان لطيفان أرسل بهما إلى حضرة الإمام حفظه الله تعالى، أحدهما يشتمل على رسائل لمحمد بن عبد الوهاب، كلها في الإرشاد إلى إخلاص التوحيد، والتنفير من الشرك الذي يفعله المعتقدون في القبور، وهي رسائل جيدة مشحونة بأدلة الكتاب والسنة، والمجلد الآخر يتضمن الرد على جماعة من المقصرين من فقهاء صنعاء وصعدة ذاكروه في مسائل متعلقة بأصول الدين، وبجماعة من الصحابة، فأجاب عليهم جوابات محررة مقررة محققة تدل على أن المجيب من العلماء المحققين العارفين بالكتاب والسنة ". الشوكاني، مصدر سابق، ص٥٢٦

(٦) لم يتوقف قرب الإمام عبد العزيز من الشيخ محمد بن عبد الوهاب في طلبه للعلم على يديه فحسب، بل تذكر بعض الروايات التاريخية نقلاً عن بعض علماء نجد أن الإمام عبد العزيز تزوج من ابنة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، إضافة إلى ما كان يساهم به الشيخ في تصريف أمور الدولة في عهد الإمام محمد بن سعود وابنه الإمام عبد العزيز. حجاف، مصدر سابق، ص٦٣٢: عبد الصالح العثيمين، تاريخ المملكة العربية السعودية، جـ١،ط٣، (الرياض: مطابع الشريف، ١٤١١هـ)، ص١٧١ .

الإسهامات العلمية له[١]، إلا أنه لم يصل إلى درجة أن يعد من كبار العلماء[٢]، ويعود ذلك بالدرجة الأولى إلى اعتماد والده عليه بصورة كبيرة في كثير من المهام ، حيث أسند إليه قيادة الكثير من الحملات العسكرية، لنشر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. ومد نفوذ الدولة السعودية وتأديب الخارجين والمتمردين عليها والعاصين لها، وقد تجلى ذلك في الحملات التي قادها لتوحيد نجد بصورة خاصة[٣]، إضافة إلى أن توجهه كان سياسياً حيث أخذت له البيعة بولاية العهد قبل وفاة والده. [٤]

وقد توفرت في الإمام عبد العزيز كثير من الصفات التي أهلته للدور الكبير الذي لعبه في تاريخ الدولة السعودية الأولى، فبالإضافة إلى تحصيله العلمي الجيد، فهو قائد عسكري متميز، اكتسب ذلك من خبرته في قيادة الحملات العسكرية في عهد والده، كما اكتسب أيضاً من صحبته لوالده والشيخ محمد بن عبد الوهاب خبراته إدارية كبيرة اتضحت بجلاء عقب توليه الإمامة.

تولى الإمام عبد العزيز الإمامة بعد وفاة والده في سنة ١١٧٩هـ/١٧٦٥م[٥]، وأثبت جدارة كبيرة وأبان عن قدرات فائقة في قيادة دفة الأمور والتعامل مع خصوم الدولة السعودية ومعارضيها في داخل نجد وخارجها، كما استمر في قيادة بعض الحملات العسكرية بنفسه[٦]، وتمكن من توحيد نجد، وضم الإحساء ،كما امتد نفوذه ليشمل بعض الإمارات المطلة على الخليج العربي، كما شمل الحجاز وعسير والمخلاف السليماني وجزء كبير من تهامة اليمن[٧]، واستمر الإمام عبد العزيز يدير دفة الأمور بنجاح واقتدار حتى توفي شهيداً في سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٣م على يد شخص رافضي من العراق، حيث طعنه وهو يصلي صلاة العصر في

---

(١) تتمثل إسهامات الإمام عبد العزيز في كتابة الرسائل المطولة في الدعوة إلى الله، والردود على المخالفين والمستفسرين، والوعظ والإرشاد، والأوراد وما شابه ذلك مما يتعلق بالدعوة إلى الله. ينظر على سبيل المثال:

١- عبد العزيز بن محمد بن سعود آل سعود ،رسالة مهمة ، الرياض: دار الوطن، ١٤١٠هـ.

٢- عبد العزيز بن محمد بن سعود، رسالة الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود، الرياض: مؤسسة النور، د.ت.

٣- عبد العزيز بن محمد آل سعود، الورد المصفى المختار من كلام سيد الأبرار، جدة: مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر، ١٣٩٠هـ.

(٢) العيسى ،مرجع سابق ،ص ١٠٥ ،كما لم يذكره آل بسام في كتابه علماء نجد خلال ثمانية قرون.

(٣) لمزيد من المعلومات عن الحملات التي قادها الإمام عبد العزيز ينظر: ابن بشر، مصدر سابق ، ص ٤٠-٨٢ .

(٤) المصدر نفسه ،ص ٤٩ .

(٥) المصدر نفسه والصفحة.

(٦) المصدر نفسه ،ص ٤٩-٨٠ .

(٧) المصدر نفسه ،ص ٤٩-١٢٥: ابن جريس، مصدر سابق ،ص ٢٣-٢٤؛ الشوكاني، مصدر سابق ،ص ٥٢٦-٥٢٧. للاستزادة ينظر: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الدولة السعودية الأولى، د.ط، (القاهرة: المطبعة العالمية، ١٩٦٩)، ص ٤٥-٢٠١ .

مدينة الدرعية وذلك انتقاماً من حملات الدولة السعودية على جنوب العراق.[١]

وتؤكد المصادر التي تناولت سيرة الإمام عبد العزيز على أنه رغم حزمه وصرامته، إلا أنه كان تقياً يخشى الله سبحانه وتعالى، كما كان يوصي عماله بذلك، وهو شديد المحاسبة لهم إذا ثبت تجاوزهم أو تقصيرهم فيما أسند إليهم، وكذلك العابثين بالأمن والمتمردين، وقد أدى هذا إلى انتشار الأمن في البلاد[٢] بصورة لم يألفها سكان الجزيرة العربية من فترة طويلة، كما كثرت وتنوعت في عهده الموارد الاقتصادية، الأمر الذي انعكس بصورة جلية على الرعية، فقد كان رحمه الله كثير الهبات والصدقات للفقراء والمحتاجين والعلماء وطلاب العلم.[٣]

أهمية رسالة الإمام عبد العزيز والأسباب التي أدت إلى دراستها وتحقيقها:

تكمن أهمية هذه الرسالة في أن وصولها إلى المخلاف السليماني، كان يمثل البداية الفعلية لوصول الدعوة السلفية والنفوذ السعودي إلى المخلاف، وما ترتب على ذلك من الحروب التي قامت بين الأشراف آل خيرات حكام المخلاف من جهة، وأتباع الدعوة السلفية والدولة السعودية من جهة أخرى، خاصة وأن أتباع الدعوة السلفية، بعد وصول هذه الرسالة زاد عددهم بصورة وجد فيها الأشراف آل خيرات تهديداً لمكانتهم السياسية كطبقة حاكة في المخلاف، إذ أن الأشراف آل خيرات ربطوا بين وصول الدعوة السلفية، وخروج الشريف أحمد بن حسين الفلقي[٤] الذي وصل

---

(١) ابن بشر، مصدر سابق، ص ١٢٦ .

(١) المصدر نفسه،ص ١٢٧-١٢٩ .

(٣) المصدر نفسه،ص ١٢٩ .

(٤) الشريف أحمد بن حسين الفلقي: ولد في مدينة صبيا، واهتم في مطلع حياته بطلب العلم حتى حاز منه نصيباً وافراً ، كما اشتغل بالتجارة، وعند ما سمع عن دعوة الشيخ محمد بن الوهاب ارتحل إلى الدرعية، وقابل الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود، وبعض علماء الدرعية، واقتنع بصحة ما يدعون إليه، ثم عاد إلى المخلاف السليماني مزوداً برسالة من الإمام عبد العزيز إلى أهل المخلاف، ولما لم يجد استجابة لدى الأشراف آل خيرات، انتقل إلى ساحل وادي بيش، عند الأشراف الجعافرة، وقام بواجب الدعوة إلى الله، فانضم إليه كثير من سكان الساحل، ثم ما لبثت أن قامت الحرب بينه وبين الأشراف آل خيرات، فتعرض لهزائم متعددة، الأمر الذي دعاه إلى التحالف مع أمير درب بني شعبة عرار بن شار، كما استنجد بالإمام بعد العزيز بن محمد، فزوده الإمام ببعض القوات التي رجحت كفته على الأشراف آل خيرات. وبهذا يعود إليه الفضل في إيصال الدعوة السلفية ثم النفوذ السعودي إلى المخلاف السليماني. ويغلب على الظن أن وفاته كانت في سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٣م. الحسن بن أحمد عاكش، إتحاف السادة الأشراف سكان المخلاف، (مخطوط)، (جازان: محافظة بيش، قرية أبو السلع، مكتبة الشريف إبراهيم أبو هادي النعمي)، نسخة مصورة. ورقة ١٦: حجاف:مصدر سابق، ص ٥٧٢؛ البهكلي، نفح العود،ص ١٢١-١٧٤؛ أحمد بن محمد الشعفي، لآلئ الدرر في تراجم رجال القرن الثالث عشر، ط١، (جدة: دار البلاد، ١٤١٢هـ)، ص٧٢-٧٤ .

برسالة الإمام عبد العزيز ومن معه من متبعي الدعوة السلفية والدولة السعودية على طاعتهم في ساحل وادي بيش[١]، خاصة وأن الشريف أحمد الفلقي الذي وصل برسالة الإمام عبد العزيز وكثُر الملتفين حوله في ساحل وادي بيش ينتمي إلى الأشراف آل الخواجي[٢]، أكثر أسر المخلاف رفضاً وتمرداً على السيادة الخيراتية[٣]، وقد تمثل خروج أحمد الفلقي ومن انضم إليه من أتباع الدعوة السلفية في رفضهم دفع الزكاة للأشراف آل خيرات، وتصميمهم على إرسالها إلى الدرعية.[٤] وهو الأمر الذي قرر الأشراف آل خيرات مواجهته بحزم وصرامة حتى لا يدفع إلى تمردات أخرى في المناطق التابعة لهم.

وقد أدرك صاحب نفح العود أهمية هذه الرسالة فصدَّر بها كتابة قائلاً: "وقد أوردنا نقل الكتاب الواصل إلى هنا، لأنه لا يخلوا من فائدة، لأنا سنذكر ما تسبب عنه من اختلاف الناس بسببه، وما جرى بينهم من أجله".[٥]

كما تكمن أهمية هذه الرسالة فيما ورد من اختلافات بين نسخها، وهو ما جعل الباحث يجزم بتعرضها للزيادة عند وصولها إلى المخلاف أو عند تدوينها في كتاب

---

(١) الصميلي، مرجع سابق،ص ٢٩-٣٠ .

(٢) الأشراف آل الخواجي: ينتسبون إلى الشريف محمد بن حسين بن أحمد بن حسين بن عيسى بن أبي القاسم بن أحمد بن علي – الملقب بالخواجي – بن سليمان بن غانم بن يحيى بن حازم بن المعافا بن رديني بن يحيى بن داود بن أبي الطيب، وهم من البيوت المشهورة بالفضل والرئاسة، تعاقبوا على حكم وادي صبيا من القرن التاسع الهجري حتى الثاني عشر، وكان مقر إمارتهم مدينة صبيا، ولا يزالون يتركزون في وادي صبيا إلى الآن، وقد لعب الأشراف آل خواجي دوراً كبيراً في مقاومة الوجود العثماني في المخلاف السليماني في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، كما كانوا أقوى الأسر السياسية في المخلاف من خروج العثمانيين حتى وصول الأشراف آل خيرات إلى إمارة المخلاف. عبد الله بن علي النعمان، العقيق اليماني في وفيات وحوادث المخلاف السليماني، (مخطوط)،(الرياض: جامعة الملك سعود، مكتبة جامعة الملك سعود المركزية، قسم المخطوطات، رقم ٩٢/٤ص/٧٧٠٨)، حوادث سني ٨٠٠-١٠٦٧هـ: عاكش، الديباج:ص٥٦-٥٧، ٦٢ : محمد بن حيدر القبي، الجواهر اللطاف المتوجة لهامات الأشراف من سكان صبيا والمخلاف، (مخطوط)، (جازان: محافظة صامطة، قرية الجحفار، مكتبة الشريف إبراهيم بن حسين الصميلي) نسخة مصورة، ص٢٥-٢٨ .

(٣) لمزيد من المعلومات عن الحروب بين الأشراف آل خيرات والأشراف آل خواجي، ينظر: البهكلي، خلاصة العسجد:ص ١٠٩-٣٥٠: البهكلي، النزهة، حوادث سني ١١٩٣هـ، ١١٩٦هـ.

(٤) محمد بن أحمد العقيلي، محاضرات في الجامعات والمؤتمرات السعودية، د.ط، (جازان: النادي الأدبي، د.ت)، ص١٢ .

(٥) البهكلي، نفح العود،ص ١٠٦ .

نفح العود، أو عند نسخ هذا الكتاب من قبل النساخ، إذ أن الزيادة التي أضيفت إلى هذه الرسالة لا تتفق مع سياق الحوادث التاريخية، ولا مع التسلسل الزمني لهذه الحوادث، ولا مع الأوضاع السياسية القائمة في ذلك الوقت، والتي أكدتها المصادر التاريخية المعاصرة لتلك الفترة، وهو ما لفت نظر الباحث إلى هذه الزيادة، التي سيتناولها بالتفصيل لاحقاً.

يضاف إلى ذلك ما تعرضت له هذه الرسالة عندما نشرها المؤرخ محمد بن أحمد العقيلي في كتابه المخلاف السليماني في سنة١٣٧٥هـ/١٩٥٦[١]، من الحذف والإضافة وتغيير بعض الكلمات بما لا يتفق مع القواعد العلمية في التأليف والتحقيق وغير ذلك، وقد أحصى أحد الباحثين ما يزيد على أربعين موقعاً تعرضت فيها هذه الرسالة إلى تدخل مؤلف كتاب تاريخ المخلاف السليماني وقد اعترف العقيلي بذلك فيما بعد.[٢]

كما توضح هذه الرسالة المنهج الذي قامت عليه دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والدولة السعودية الأولى في دعوة أمراء المناطق والقبائل والعلماء لاتباع دعوة الشيخ، وكذلك توضح الهدف الذي قامت من أجله، وهو إخلاص العبادة لله تعالى، والعودة بالناس إلى نقاوة التوحيد الأولي التي كان عليها سلف هذه الأمة، بعيداً عما لحق به من بدع وخرافات وشركيات، وما ترتب على ذلك من العبادات والمعاملات.

فقد كان إرسال الرسائل من الوسائل التي لجأ إليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وكذلك أئمة الدولة السعودية الأولى في مخاطبة القوى السياسية والعلماء داخل الجزيرة العربية وخارجها[٣]. ولا يتم اللجوء إلى القوة إلا بعد استنفاذ الطرق السليمة وإقامة الحجة البالغة، وهو ما أوضحه الإمام عبد العزيز في رسالته إلى

---

(١) محمد بن أحمد العقيلي، تاريخ المخلاف السليماني، ج١، ط٣(جازان: شركة العقيلي، ١٤٠٠هـ)، ص٤٤٠-٤٤٣ .

(٢) حجاب بن يحيى الحازمي، أبجديات في النقد والأدب، ط١(جازان: النادي الأدبي، ١٤٠٥هـ)، ص١٤٧-١٦٢ .

(٣) محمد بن عبد الله بن سليمان السلمان، دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي، ط١،(الرياض: وكالة الفرقان، ١٤٠٧هـ)،ص٦١ .

أهل المخلاف السليماني.

سار الإمام بعد العزيز على منهج الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابة مثل هذه الرسائل، فقد جاءت هذه الرسالة التي تكاد تبلغ الصفحتين مليئة بالآيات التي استشهد بها الإمام عبد العزيز لتأكيد حجته، وإيضاح دعوته التي دعى إليها أهل المخلاف السليماني، والتي تنص على التعريف بحقيقة التوحيد، وهو المنهج نفسه الذي سار عليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمة الله، إذ أن مؤلفاته ورسائله مليئة بسرد الآيات القرآنية التي تؤيد الأهداف التي يدعو إليها[1]، من "تصحيح العقيدة الإسلامية وتطهيرها مما علق بها من أدران الشرك والبدع والخرافات" ، وكثيراً من مبادئها التي كانت المحور الرئيسي للدعوة مثل "التوحيد، والشفاعة، وزيارة القبور والبناء عليها، والبدع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"[2].

كما تؤكد هذه الرسالة أيضاً أن الإمام عبد العزيز لم يسع إلى تبليغ دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى المخلاف السليماني، وبلاد اليمن. ومن ثم إخضاعها للنفوذ السعودي في ذلك الوقت. ولعل ذلك يعود إلى أن بلاد عسير والحجاز لم تدخل بعد في طاعة الدولة السعودية، وقد ذكر الإمام في مطلع رسالته أن سبب إرسال هذه الرسالة هو استجابة لطلب الشريف أحمد بن حسين الفلقي الذي قدم إلى الدرعية، وتأثر بالنهج الذي كان عليه أئمة وعلماء الدرعية[3]. ولعل طلب الفلقي لهذه الرسالة يعود لإدراكه مسبقاً أن الأشراف آل خيرات حكام المخلاف السليماني لن يستجيبوا له لاعتبارات عديدة منها:

١- إن الفلقي ينتسب إلى الأشراف آل الخواجي أقوى الأسر السياسية في المخلاف السليماني قبل وصول الأشراف آل خيرات،وحكام واديي صبيا وبيش. ولم يتمكن الأشراف آل خيرات من بسط سيطرتهم على المخلاف إلا بعد حروب كثيرة خاضها معهم الشريف محمد بن أحمد وأبناؤه من بعده حتى أخضعوهم بالقوة.

---

(١) المرجع نفسه،ص ٣٤: عبد الله بن محمد العجلان، حركة التجديد والإصلاح في نجد في العصر الحديث، ط١، (الرياض: د.د، ١٤٠٩هـ)، ص١٠٧-١٠٩ .
(٢) السلمان، مرجع سابق،ص ٣٤، ٤٣ .
(٣) ينظر متن الرسالة، ص٤٧ .

٢- ما ورد في كتاب درر نحو الحور العين في حوادث سنة ١٢١٤هـ/ ١٧٩٩م ،من أن أمير درب بني شعبة عرار بن شار [١] تحالف مع ساندروس[٢] أمير الحديدة من قبل إمام اليمن المنصور علي بن المهدي[٣]، ضد الأشراف آل خيرات، وقد كان الفلقي حاضراً لها الحلف[٤]، لذا سينظر إليه الأشراف نظرة عدائية، ولن يستجيبوا له أو يتعاونوا معه، وهو ما حدث بالفعل[٥].

لهذا وغيره من الأسباب أدرك الفلقي أنه بحاجة إلى دعم معنوي سياسي بحيث يكون مستنداً على قوة لها ثقلها في مسرح الحوادث في ذلك الوقت، وكان يدرك أن الدولة السعودية إذا كانت الظروف لا تمكنها في ذلك الوقت من مد نفوذها إلى المخلاف، فهي لن تتوانى عن نصرة أتباعها وأتباع دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وقد ظهر ذلك جلياً في نهاية رسالة الإمام، حيث حذر من عدم اتباع دعوة التوحيد،وأن من لم يستجب فسوف يقاتله، وإنه لا عذر له بعدم المعرفة والجهل، وقد أعذر إليهم بهذه الرسالة[٦].

---

(١) عرار بن شار: أمير قبيلة درب بني شعبة في العقد الثاني من القرن الثالث عشر الهجري، اتصف بالشجاعة والكرم، وعندما سمع بالدعوة السلفية ارتحل إلى الدرعية، ثم عاد إلى المخلاف السليماني، ودعى الناس إلى اتباعها، وخاض حروباً عديدة مع الأشراف آل = = خيرات، وكان يتلقى الدعم العسكري من الإمام عبد العزيز، وفي نهاية الأمر شك الأمام سعود بن عبد العزيز في ولائه فاستدعاه إلى الدرعية وفرض عليه الإقامة الجبرية حتى توفى في سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٧م. البهكلي، نفح العود،ص ١٣٨-٢٣٠؛ محمد بن أحمد العقيلي، الأدب الشعبي في الجنوب، ج٢، ط٢، (جازان: مطابع جازان، ١٤١٠هـ)، ص٨٢ .

(٢) ساندروس: من الأمراء العبيد الذين استعملهم الإمام المنصور علي بن المهدي، وهو من أقوى أمراء تهامة اليمن في العقدين الأول والثاني من القرن الثالث عشر الهجري، تولى إمارة الحديدة من قبل الإمام المنصور علي بن المهدي، كما قاد له بعض الحملات على الخارجين عليه، وكانت علاقته سيئة بالأشراف آل خيرات حكام المخلاف السليماني، فتحالف ضدهم مع أمير درب بني شعبة عرار بن شار. جحاف، مصدر سابق، ص٥٦٠-٥٦١؛ الشوكاني، مصدر سابق،ص ٤٦٣ .

(٣) الإمام المنصور علي بن المهدي عباس: ولد في سنة ١١٥١هـ/١٧٣٨م في صنعاء ونشأ بها، وفي سنة ١١٧٢هـ/١٧٥٨م أسند إليه والده الإمام المهدي ولاية صنعاء وقيادة الجند، لتأديب الخارجين عليه، وفي سنة ١١٨٩هـ/١٧٧٥م تولى إمامة اليمن بعد وفاة والده، فدبر أمور الدولة وأدب الخارجين عليها، وأكرم رجال العلم، وفي آخر عهده استبد وزراءه بالأمر وخرجت بعض أطراف البلاد عن طاعته، وقد استمر في الإمامة حتى وفاته في سنة ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م. الشوكاني، مصدر سابق، ص٤٦٢-٤٦٩. للاستزادة ينظر: جحاف مصدر سابق.

(٤) جحاف، مصدر سابق،ص ٥٦٠ .

(٥) للاستزادة عن موقف الأشراف آل خيرات من الشريف أحمد الفلقي بعد وصوله إلى المخلاف السليماني، ينظر: البهكلي، نفح العود،ص ١٢١-١٧٤: الصميلي، مرجع سابق،ص ٢٩-٣٧ .

(٦) ينظر متن الرسالة، ص٥٥ .

ومن الملاحظات الأخرى على هذه الرسالة ما يلي:

١- تواضع الإمام عبد العزيز رحمه الله فقد أورد اسمه مجرداً من أي لقب ديني أو سياسي "من عبد العزيز بن سعود" ولعله في هذا مقتدياً بالشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي كانت رسائله لا يسبقها أي لقب وإنما يكتب "من محمد بن عبد الوهاب إلى فلان بن فلان"[١].

٢- بدأت رسالة الإمام عبد العزيز هينة لينة غلب عليها جانب الترغيب، وهو ما يؤكد حرص الإمام على اتباع سكان المخلاف السليماني للدعوة السلفية بدون قتال،وختمها بالوعيد الشديد، إذا لم تجد استجابة من زعماء المخلاف. ولعل هذا من عوامل عدم استجابتهم، لأن اتباع أي منطقة أو قوة سياسية لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب،كان إيذاناً بدخولها في طاعة الدولة السعودية، وفقدان استقلالها السياسي[٢]، وهوماوعاه الأشراف آل خيرات وخشوا منه.

٣- عمق وغزارة علم الإمام عبد العزيز رحمه الله من خلال هذه الرسالة التي دعت إلى توحيد الله سبحانه وتعالى.

٤- اهتمام الإمام عبد العزيز بالدعوة إلى الله، والتعريف بالدين الذي بعث الله به جميع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، وحسن استدلاله على ذلك.

٥- إظهاره لنعمة الله تعالى وفضله عليهم بالدعوة إلى توحيد الله تعالى.

٦- بين أن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله مبنية على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأنه لم يأت بجديد كما يزعم خصومه.

٧- بيانه لأنواع الشرك وتحذيره منها.

٨- حسن وقوة استدلاله على تحريم الشرك والوعيد الشديد لمن وقع فيه.

---

(١) عبد الله الصالح العثيمين، بحوث وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية، ط١، (الرياض: دار الهلال، ١٤٠٤هـ)، ص٣٨ .

(٢) أحمد بن عبد العزيز البسام، "من أسباب المعارضة المحلية لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في عهد الدولة السعودية الأولى"، الرياض: مجلة الدرعية، السنة الرابعة، العدد الرابع عشر، ١٤٢٢هـ، ص٢٦-٢٧ .

٩- ربطه بين الاعتقاد والعمل. وذلك هو حقيقة الإيمان عند السلف، اعتقادا وقولاً وعملا.

١٠- سيره رحمه الله على النهج النبوي في إقامة الحجة والبيان قبل اللجوء إلى القوة.

ومن الملاحظات الهامة أيضاً أن الإمام عبد العزيز أسقط على المخلاف السليماني ما كان يوجد في نجد قبل ظهور الدعوة الإصلاحية والدولة السعودية من الشركيات، والمخلاف لا يبرأ من وجود مثل هذا الخلل[١]، ولكن لم يكن بحجم الصورة التي كان يعتقدها الإمام. خاصة وأن المخلاف في ذلك الوقت يعيش فترة من أزهى عصوره العلمية[٢]، ولا شك أن العلماء قد بينوا ووضحوا للناس حقيقة التوحيد، وقاموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن لم تكن هناك القوة السياسية التي تدعمهم لإلزام الناس بذلك.

كيفية الحصول على الرسالة ومنهج التحقيق:

عندما كنت مسجلا لدرجة الماجستير الموسومة "بالعلاقة بين أمراء أبي عريش وأمراء عسير في القرن الثالث عشر الهجري ١٢١٧- ١٢٦٤هـ/ ١٨٠٢-١٨٤٧م"، كنت أبحث في كيفية وصول دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى المخلاف السليماني، وموقف الأشراف آل خيرات منها، وكذلك قبائل المنطقة، وما ترتب على ذلك من إرسال الحملات العسكرية السعودية إلى المخلاف السليماني حتى تم إخضاعه للدولة السعودية الأولى.

وكان كتاب نفح العود في سيرة دولة الشريف حمود هو المصدر الأساسي لحوادث تلك الفترة، وادراكا من مؤلف الكتاب لأهمية هذه الرسالة صدر بها كتابه، وقد قام المؤرخ محمد بن أحمد العقيلي بدراسة وتحقيق هذا الكتاب،ونشر عن طريق دارة

---

(١) البهكلي، نفح العود، ص١٢٩، ١٣٢-١٣٣ .

(٢) ينظر على سبيل المثال: المصدر نفسه: الحسن بن أحمد بن عبد الله عاكش، حدائق الزهر في ذكر الأشياخ أعيان الدهر، تحقيق: إسماعيل بن محمد البشري، ط١، (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٣هـ): الحسن بن أحمد عبد الله عاكش، عقود الدرر في تراجم علماء القرن الثالث عشر، تحقيق: إسماعيل بن محمد البشري، لم ينشر بعد.

الملك عبد العزيز في سنة١٤٠١هـ /١٩٨٠م،كما قام العقيلي بطباعته مرة أخرى سنة١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

وبالإضافة إلى هذا الكتاب فإن مؤلفات الشيخ العقيلي تعتبر من المصادر الأساسية التي لا غنى عنها لدراسة حوادث هذه الفترة، ويأتي على رأس هذه المؤلفات أقدمها وأشهرها ذيوعاً وهو تاريخ المخلاف السليماني أو الجنوب العربي في التاريخ، وقد قام الشيخ العقيلي بنشر رسالة الإمام عبد العزيز في هذا الكتاب في سنة ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م.

وعندما قارنت بين نص الرسالة المنشور في كتاب المخلاف السليماني وبين النص الوارد في كتاب نفح العود. سواء النسخ المخطوطة، أو النسخة التي حققها الشيخ العقيلي وجدت اختلافاً كبيراً فيما بينها يدعو إلى دراستها وتحقيقها.

وقد حرصت في ذلك الوقت على الاطلاع على كل ما كتب عن المخلاف السليماني في عهد الدولة السعودية الأولى وبالذات الرسائل العلمية، وكان من ضمن الرسائل التي اطلعت عليها رسالة مي بنت عبد العزيز العيسى لدرجة الماجستير والموسومة "بالمخلاف السليماني في عهد الدولة السعودية الأولى"، وقد أشارت هذه الباحثة إلى رسالة الإمام عبد العزيز وذكرت أنها منشورة من ضمن الرسائل التي حواها كتاب "الدرر السنية في الأجوبة النجدية"[(١)]، فاطلعت على هذه الرسالة في الكتاب المشار إليه[(٢)]، ووجدت فيها بعض الاختلافات، وقد أشارت الباحثة إلى ذلك ونسبته إلى مؤلف كتاب نفح العود عبد الرحمن بن أحمد البهكلي[(٣)]، وقد أشرت إلى ذلك في دراستي أيضاً[(٤)]، ثم أرجأت دراستها وتحقيقها إلى وقت آخر.

ورغم البحث المضني والمتواصل عن أصل هذه الرسالة، والنسخة الأصلية لكتاب نفح العود في مضانها الأولى، إلا أنني لم أُوفق في الوصول إليها، وذلك لفقدان

---

(١) مي بنت عبد العزيز العيسى، المخلاف السليماني في عهد الدولة السعودية الأولى، (رسالة ماجستيرلم تنشر بعد)، الرياض: جامعة الملك سعود،كلية الآداب، قسم التاريخ، ١٤٠٢هـ، ص٧٧ .

(٢) ابن قاسم، مصدر سابق،ص ١٣٢-١٣٤ .

(٣) العيسى، المخلاف السليماني،ص ٧٧ .

(٤) الصميلي، مرجع سابق،ص ٥٤-٥٦ .

وتلف مقتنيات دواوين أمراء الأشراف آل خيرات، وكذلك فقدان الكثير من محتويات مكتبة المؤرخ عبد الرحمن بن أحمد البهكلي سواء في المخلاف السليماني أو في تهامة اليمن.

ومن المضان الرئيسية التي بحثت فيها مكتبات المؤسسات العلمية في المملكة العربية السعودية، والتي من اهتماماتها جمع الوثائق والمخطوطات والعناية بها، مثل دارة الملك عبد العزيز في الرياض. ومركز الملك فيصل بن عبد العزيز في الرياض. ومكتبة الملك فهد الوطنية في الرياض، ومعهد البحوث والمخطوطات في جامعة أم القرى في مكة، والمكتبات المركزية لجامعة الملك عبد العزيز في جدة، وجامعة الملك سعود في الرياض، وفي خارج المملكة العربية السعودية بحثت في مكتبة الجامع الغربي في مدينة صنعاء في الجمهورية اليمنية، وكذلك بحثت في بعض المكتبات الخاصة داخل المملكة وخارجها، ولكن دون جدوى.

الأمر الذي دعاني إلى الاعتماد على النسخ المخطوطة لكتاب نفح العود، وكذلك نص الرسالة المنشور في كتاب الدرر السنية، أما نص الرسالة المنشور في كتاب نفح العود الذي حققه المؤرخ العقيلي فقد استبعدته لكثرة تدخل محقق الكتاب في نص الرسالة بما لا يتفق مع المنهج العلمي في التحقيق.

ولم تواجهني صعوبة كبيرة في الحصول على بعض نسخ كتاب نفح العود لوجودها بوفرة في المؤسسات العلمية والمكتبات الخاصة داخل المملكة العربية السعودية والجمهورية اليمنية.

وقد قمت بدراسة وتحقيق هذه الرسالة من خمس نسخ، أربع منها من النسخ المختلفة لكتاب نفح العود، والخامسة نص الرسالة المنشور في كتاب الدرر السنية، والنسخ الخمس كالتالي:

١- النسخة الأولى من كتاب نفح العود وقد حصلت على صورة منها من قسم المخطوطات في دارة الملك عبد العزيز في الرياض، وهي محفوظة تحت الرقم الخاص (٤/٣)، وكان تاريخ الفراغ من نسخها في شهر محرم سنة ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م، وقد رمزت لها بالحرف (د) الحرف الأول من اسم الدارة.واسم الناسخ: غير واضح.

٢- النسخة الثانية من كتاب نفح العود وقد حصلت على صورة منها من مكتبة الأستاذ حجاب بن يحي الحازمي في مدينة ضمد، ويوجد أصل هذه النسخة في قسم المخطوطات في المكتبة المركزية في جامعة الملك عبد العزيز في جدة. وهو في الأصل من مقتنيات مكتبة الشيخ محمد نصيف رحمه الله. وقد أهديت إلى مكتبة الجامعة بعد وفاته. وكان تاريخ نسخها في شهر شوال سنة ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م وقد رمزت لها بالحرف (ن) الحرف الأول لها من اسم نصيف. الناسخ: إبراهيم بن علي النعمي.

٣- النسخة الثالثة من كتاب نفح العود نسخة مطبوعة على الآلة الكاتبة. وقد حصلت على صورة منها من قسم المخطوطات في دارة الملك عبد العزيز في الرياض، وهي محفوظة تحت الرقم (٦١)، ولعلها مهداة إلى الدارة من مكتبة الشيخ محمد بن أحمد العقيلي، إذ يوجد في صفحتها الأولى وصفحتها الأخيرة ختم المكتبة العقيلية في جازان. وهذه النسخة هي التي حققها الشيخ العقيلي. حيث اعترف بذلك في إحدى كتاباته الصحفية[١]، ولم يدون فيها اسم ناسخها ولا تاريخ النسخ. وقد رمزت لها بـ(المطبوع). وبمقارنتها بكتاب نفح العود الذي حققه الشيخ العقيلي. وجدت أنه نشرها بأخطائها وتصحيفها وتحريفها، بل وكذلك السقط في الآيات القرآنية الذي ورد فيها نقله العقيلي كما هو.

٤- النسخة الرابعة من كتاب نفح العود وقد حصلت على صورة منها من مكتبة الأستاذ فؤاد بن عبد الوهاب الشامي[٢] في مدينة صنعاء في الجمهورية العربية اليمنية، وأصلها في مكتبة الأوقاف في الجامع الكبير في صنعاء تحت رقم (٢٢٠٦)، ولم يدون ناسخها تاريخ النسخ، ولكنها منقولة من نسخة مذيلة بتاريخ ١٣٣٠هـ/١٩١١م، وقد رمزت لها بالحرف (جـ) الحرف الأول من اسم الجامع. الناسخ: إبراهيم بن علي النعمي.

٥- النسخة الخامسة وهي التي أوردها الشيخ عبد الرحمن بن قاسم في كتابه

---

(١) الحازمي، مرجع سابق،ص ١٦٤ .

(٢) قام الأستاذ فؤاد بن عبد الوهاب الشامي بتحقيق كتاب نفح العود، وحصل بموجب ذلك على درجة الماجستير في التاريخ الحديث من جامعة صنعاء في سنة ١٤٢٢هـ. ولم تنشر الرسالة بعد. ويقوم الباحث حالياً بتحقيق هذا الكتاب بتكليف من أمين دارة الملك عبد العزيز.

الدرر السنية في الأجوبة النجدية. وقد نشر هذا الكتاب في سنة ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م، وقد حاولت جاهداً الحصول على أصل هذه الرسالة من ورثة الشيخ ابن قاسم ولكن لم أوفق، حيث أكد لي ورثته إنهم لم يحصلوا على أصول هذا الكتاب، وأنهم عندما أعادوا طباعة كتاب الدرر السنية اقتصر جهدهم على إعادة تبويب هذه الرسائل من جديد. وقد رمزت لها بالحرف (ق) الحرف الأول من قاسم.

ولو حصلت على أصل هذه النسخة لربما اتخذتها أصلاً، لأنها في الغالب إن لم تكن الأصل فهي منقولة عن الأصل، لخلوها من الزيادة التي يرى الباحث أنها أضيفت إلى نص الرسالة الذي ورد في النسخ المختلفة لكتاب نفح العود بعد وصول الرسالة إلى المخلاف السليماني، وهو من الأسباب الرئيسية التي دفعته إلى تحقيقها كما ذكر سابقاً.

وقد اتخذت من النسخة (د) أصلاً وقابلت عليها بقية النسخ للأسباب التالية:

١- وضوحها وجمال خطها وسلامتها من الأخطاء الإملائية والتصحيف والتحريف قياساً بالنسخ الأخرى.

٢- إنها أقدم النسخ التي أمكن الحصول عليها، إذ أنها نسخت في سنة ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م.

أما بقية النسخ فقد جعلتها للمقابلة لوجود كثير من العيوب وهي كالتالي:

١- النسخة (ن) مكتوبة بخط جميل إلا أنها كثيرة التحريف، والتصحيف، والسقط، والبياض في بعض السطور، بسبب استخدام القلم الأحمر لكتابة بعض الكلمات والجمل، بالإضافة إلى كثرة التصويبات في الهامش، وتأخر نسخها إذ أنها نسخت في سنة ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م. أي بعد أن طبعت الرسالة مرتين وأصبحت في متناول أيدي الجميع سواء في كتاب ابن قاسم أو في كتاب العقيلي السابق ذكرهما.

٢- النسخة المطبوعة على الآلة لا يوجد عليها اسم الناسخ ولاتاريخ النسخ، بالإضافة إلى كثرة السقط والأخطاء الطباعة حتى في الآيات القرآنية.

٣- النسخة (جـ) أبرز عيوبها أن كثيراً من كلماتها غير معجمة، بالإضافة إلى كثرة السقط، والتحريف، والتصحيف، والأخطاء الإملائية، ولا يوجد تاريخ لنسخها.

٤- النسخة (ق) لم أحصل على أصلها لمعرفة مدى تدخل الشيخ ابن قاسم فيها، من عدمه بالإضافة إلى أنه لايوجد عليها اسم الناسخ أو تاريخ النسخ.

من المتعارف والمتفق عليه في دراسة وتحقيق النصوص أن الاختلافات بين النسخ المعتمدة للمقابلة يعلق عليها في الحاشية، وذلك حرصاً على الترابط بين التعليق والموضوع المعلق عليه، إلا أن الزيادة التي أضيفت إلى رسالة الإمام عبد العزيز بعد وصولها إلى المخلاف السليماني، لأهميتها وأهمية الاستطراد في إثباتها والتعليق عليها لا يمكن استيعاب ذلك في حاشية نص الرسالة، ولذلك فضلت أن أتناولها في الدراسة التي في العادة تسبق النص المحقق، لأنها هي السبب الرئيسي الذي دفعني إلى تحقيق هذه الرسالة.

وهذه الزيادة عبارة عن جملة وردت في نُسخ كتاب نفح العود المختلفة، سواء النسخ التي اعتمدها الباحث في هذه الدراسة، أو التي استبعدها، وهذه الجملة لم ترد في النسخة (ق)، وحتى لو وردت هذه الجملة في النسخة (ق) فإن الملاحظة ستظل قائمة، لأن لها علاقة بالبنية الأساسية لهذه الرسالة - التي يتم دراستها وتحقيقها- والهدف من كتابتها، وإرسالها إلى المخلاف السليماني، ولأن هذه الجملة أيضاً لا تتفق مع ما تذكره بعض المصادر الأولية التي تناولت حوادث تلك الفترة.

وهذه الجملة هي "خصوصاً الأشراف أولاد محمد بن أحمد، حمود وناصر ويحي، وسائر إخوانهم، وكذلك الأشراف بني النعمي[1]، وسائر أشراف تهامة".

فقد وردت هذه الجملة في نص الرسالة في كل النسخ التي أمكن الاطلاع عليها من كتاب نفح العود، ولم تذكر في نص الرسالة التي رمز لها الباحث بالحرف (ق)،

(١) الأشراف آل النعمي: من الأشراف السليمانيين وينتسبون إلى نعمة بن فليتة بن الحسن بن يوسف بن نعمة بن علي بد داود، وقد ظهر من آل النعمي الكثير من العلماء، وآلت إليهم الفتوى في المخلاف السليماني في كثير من الأحيان، وكانوا من الأسر التي رفضت الخضوع للأشراف آل خيرات، ويتركزون حالياً في مدن وقرى وادي بيش، وبعض منهم في بلاد اليمن . عاكش، اتحاف السادة،ص ٢٨-٣٦؛ القبي، مصدر سابق،ص ٣١-٣٦ .

وقد ذكر الباحث سابقا أن النسخة (ق) هي النسخة النجدية الوحيدة، وكذلك هي النسخة الوحيدة التي لم ترد فيها هذه الجملة، ولم يجد الباحث أصلاً لها وإنما أمكن الحصول عليها من خلال الكتاب الذي نشرت فيه..

ونتيجة لعدم حصول الباحث على النسخة الأصلية المخطوطة لهذه الرسالة فقد واجه صعوبة في دراسة السقط الذي ورد فيها، فهل هذه الجملة-التي يرى الباحث أنها أضيفت إلى رسالة الإمام عبد العزيز- في الأصل جزء من متن الرسالة، وسقطت من النسخة (ق) عند النسخ أو الطباعة بقصد أو غير قصد، أو أن النسخة (ق) سليمة وتم إضافة هذه الجملة إلى الرسالة بعد وصولها إلى المخلاف السليماني، وهو ما سيتم مناقشته والتعليق عليه.

فقد تضمنت هذه الجملة الساقطة من (ق) والمثبتة في بقية النسخ أسماء بعض العناصر السياسية في ذلك الوقت في المخلاف السليماني، وكذلك بعض الأسر، ولم تكن هذه العناصر السياسية التي وردت في هذه الجملة عند وصول الرسالة إلى المخلاف بيدها الحل والعقد، لاعتزال بعضها للحياة السياسية، والبعض الآخر لم يصل إلى الإمارة بعد. بينما العناصر السياسية المؤثرة والتي بيدها مقاليد الأمور لم يتم ذكرها أو الإشارة إليها، بالإضافة إلى الاقتصار على ذكر الأشراف آل النعمي دون غيرهم من أشراف المخلاف السليماني الذين لا يقلون عنهم مكانة، مثل الأشراف آل الخواجي وغيرهم، وهذا السقط في النسخة (ق) والمثبت في بقية النسخ ولَّد لدى الباحث تساؤلات واستنتاجات عديدة.

فهل يمكن القول إن الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود أرسل إلى المخلاف السليماني رسالتين:

الرسالة الأولى: إلى سكان المخلاف السليماني وهو ما ينطبق على النسخة (ق).

والرسالة الثانية: إلى الأسرة الحاكمة وبعض الأسر البارزة في المخلاف آنذاك[1]،

---

(١) كان أئمة الدولة السعودية والشيخ محمد بن عبد الوهاب لا يقتصرون على مكاتبة الأمراء فقط بل كانوا يكاتبون العلماء والأعيان أيضاً. ابن بشر، مصدر سابق، ص ٨٤ .

وهو ما ينطبق على بقية النسخ. والاختلاف بين الرسالتين في إثبات هذه الجملة أو سقوطها.

قد يكون هذا الاستنتاج مقبولاً للوهلة الأولى، وقد يقبل الباحث بالنسخة (ق) لأنها النسخة النجدية الوحيدة التي أمكن الحصول عليها، والرسالة مرسلة من نجد إلى المخلاف السليماني، وقد تكون النسخة (ق) منقولة عن الأصل أو من نسخ نقلت من الأصل. مع عدم استبعاد تعرضها للسقط والتحريف والتصحيف أثناء عملية النسخ أو الطباعة في ظل عدم العثور على أصل هذه الرسالة.

قد يكون هذا مقبولاً فيما يتعلق بالنسخة (ق)، ولكن لا يمكن التسليم بما في بقية النسخ الأخرى لاعتبارات عديدة تتعلق بالعناصر السياسية الواردة في تلك الجملة أو العناصر السياسية المؤثرة التي تم تجاهلها، بالإضافة إلى تاريخ وصول الرسالة ومنها:

١- تذكر بعض الروايات التاريخية أن سفر الشريف أحمد بن حسين الفلقي إلى الدرعية كان في سنة ١٢١٤هـ/١٧٧٩م، وقد شارك الفلقي في بعض حوادث ذلك العام قبل سفره. وكان حاكم المخلاف السليماني في ذلك الوقت. الشريف علي بن حيدر بن محمد بن أحمد[1]. لذا فالفلقي على معرفة أكيدة بمن يحكم المخلاف السليماني في ذلك الوقت. والشريف علي بن حيدر لم يكن من ضمن الأسماء المنصوص عليها في تلك الجملة المضافة إلى الرسالة.

٢- لا يوجد في ذيل نسخ هذه الرسالة -كما جرت العادة- أو في المصادر المعاصرة لتلك الفترة تاريخ محدد لكتابتها وإرسالها، ولكن من تتبع سياق الحوادث يتضح أنها كتبت في مطلع عام ١٢١٥هـ/١٨٠٠م، ووصلت إلى المخلاف السليماني والشريف علي بن حيدر لا يزال في سدة الحكم[2]، أي قبل وصول الشريف حمود إلى إمارة المخلاف. فكيف توجه الرسالة إلى الشريف حمود وهو لم يصل إلى الإمارة بعد ويتم تجاهل الشريف علي بن حيدر وهو الحاكم الفعلي..

(١) جحاف، مصدر سابق، ص٥٦٠ .

(٢) المصدر نفسه، ص٥٧٢؛ البهكلي، نفح العود، ص ١٢٨-١٣٨ .

٣- ورد اسم الشريف حمود بن محمد في طليعة الأسماء الموجهة إليهم رسالة الإمام عبد العزيز، والرسالة وصلت إلى المخلاف السليماني قبل وصول الشريف حمود إلى الإمارة، بل وتذكر بعض الروايات التاريخية أنه عند وصول هذه الرسالة كان في جنوب المخلاف السليماني منشغلاً بإحياء أراضيه الزراعية[١].

٤- ورد اسم الشريف ناصر بن محمد بن أحمد أمير صبيا السابق أيضاً ضمن الأسماء المنصوص عليها- والموجهة إليهم رسالة الإمام عبد العزيز -والشريف ناصر قد اعتزل الحياة السياسية وتنازل لابنه الشريف منصور عن الإمارة في سنة ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م[٢]، أي أن الشريف ناصر اعتزل الحياة السياسية قبل وصول هذه الرسالة بعشر سنوات تقريباً.

٥- ورد أيضاً اسم الشريف يحي بن محمد حاكم المخلاف السليماني السابق، ضمن الأسماء المنصوص عليها- والموجهة إليهم رسالة الإمام عبد العزيز- والشريف يحي قد اعتزل الحياة السياسية في سنة ١٢١٤هـ/١٧٧٩م عندما تنازل عن الإمارة لابن أخيه الشريف علي بن حيدر[٣] أي قبل سفر الشريف أحمد الفلقي إلى نجد، والفلقي يعرف ذلك كما أسلف الباحث سابقاً.

٦- الشريف علي بن حيدر أقوى شخصية في الأشراف آل خيرات والحاكم الفعلي للمخلاف السليماني آنذاك[٤]، حيث تسلم الإمارة في سنة ١٢١٤هـ/١٧٧٩م، قبل سفر الشريف أحمد الفلقي إلى الدرعية، لم يكن اسمه من ضمن الأسماء الذين وجهت إليهم رسالة الإمام عبد العزيز، وفي العادة يخاطب في مثل هذه الأمور الأمراء الفعليين الذين هم في سدة الحكم، وليس المتوارين عن مسرح الحوادث السياسية كالشريفين ناصر بن محمد ويحي بن محمد، أو المغمورين الذين لم يظهروا على مسرح الحوادث بعد كالشريف حمود بن محمد.

٧- الشريف منصور بن ناصر كان الشخصية الثانية في الأشراف آل خيرات من

---

(١) البهكلي، نفح العود، حاشية المحقق،ص ١٦٦ .

(٢) المصدر نفسه،ص ١١٥-١١٧، ٢٣١ .

(٣) جحاف، مصدر سابق،ص٥٥٩ .

(٤) المصدر نفسه،ص ٥٦٠: الشوكاني، مصدر سابق ص ٨١٥ .

حيث القوة، بعد الشريف علي بن حيدر حيث كان أميراً لمدينة صبيا مسقط رأس الشريف أحمد الفلقي، وسيرته مقبولة من الجميع، كما تؤكده الروايات التاريخية[١]، لم يكن اسمه من ضمن الأسماء الذين وجهت إليهم رسالة الإمام عبد العزيز، أسوة بالشريف علي بن حيدر، وكان من مصلحة الشريف أحمد الفلقي والدعوة السلفية أن يذكر الشريف منصور بن ناصر في رسالة الإمام، لأنه أمير المنطقة التي بدأ فيها الفلقي دعوته، وبالتالي سيكسب الفلقي إلى جانبه شخصية سياسية قوية تدعمه مادياً ومعنوياً. خاصة وأن الشريف منصور عرف بقوته واتزانه، ولقب في ذلك الوقت بالملك العادل. وحازت سياسته على رضا رعيته في صبيا وبيش، وكان فيما بعد أول أمير من الأشراف آل خيرات يتبع الدعوة السلفية ويلتزم بمبادئها. ويدخل في طاعة الدولة السعودية الأولى[٢].

٨- يفترض في الإمام عبد العزيز أن يكون على معرفة كاملة بالوضع السياسي القائم في المخلاف السليماني خاصة وأنه سيحاول أن يمد نفوذ الدولة السعودية الأولى إلى هذه المنطقة وما وراءها من بلاد اليمن ، وحماية أتباع دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فيها. لذا لن يوجه رسالته إلا إلى الشخصية التي بيدها زمام الأمور كالشريف علي بن حيدر أوالشريف منصور بن ناصر. لا إلى أشخاص انسحبوا من المسرح السياسي كالشريف ناصر بن محمد والشريف يحيى بن محمد، أو لم يظهروا عليه بعد كالشريف حمود بن محمد،أو يرسلها إلى سكان المنطقة عامة دون تحديد وهو ما ينطبق على النسخة (ق).

٩- ويفترض أيضا أن الإمام عبد العزيز استقى معلوماته عن الأوضاع القائمة في المخلاف السليماني عن طريق الشريف أحمد الفلقي، بدليل أن الإمام عبد العزيز ذكر أن رسالته هذه بناء على طلب أحمد الفلقي، ومن المستبعد أن يكون الفلقي زود الإمام بمعلومات خاطئة، لأن ذلك لن يفيده بشيء وسيفقده ثقة الإمام، كما أن ذلك لن يساعده على النجاح بعد العودة إلى المخلاف السليماني، بل إن من مصلحته أن توجه الرسالة إلى الشخصية الحاكمة، لما في ذلك من المردود المعنوي الذي سيساعد

(١) البهكلي، نفح العود، ص٣٤١؛ عاكش، عقود الدرر، ص ٦٩٦ .
(٢) البهكلي، المصدر نفسه،ص ١٥٠ .

على الاستجابة، أما أن يتم تجاهل الشخصيات القوية المؤثرة كالشريفين علي بن حيدر ومنصور بن ناصر، وتوجه الرسالة إلى شخصيات توارت عن المسرح السياسي كالشريفين ناصر بن محمد. ويحي بن محمد أو الشريف حمود الذي لم يصل إلى الإمارة بعد، أو يتجاهل بقية أسر الأشراف في المنطقة، وهم كثيرون، ومنهم أسرة الأشراف آل الخواجي على سبيل المثال أقوى الأسر السياسية في المخلاف السليماني بعد الأشراف آل خيرات، ويقتصر ذكر الأشراف آل النعمي فقط، الذين اشتهروا كقضاة وعلماء. وليسوا ساسة وأمراء[1].

وهذا لن يفيد الدعوة شيئا. ويتعارض مع الهدف الذي كان يسعى الإمام عبد العزيز والداعية الفلقي إلى تحقيقه من خلال هذه الرسالة.

١٠- يذكر بعض المؤرخين المتأخرين أن الشريف أحمد الفلقي عندما عاد إلى المخلاف السليماني. سلم رسالة الإمام عبد العزيز إلى أمير صبيا الشريف منصور بن ناصر. ليوصلها بدوره إلى حاكم المخلاف السليماني الشريف علي بن حيدر[2]، رغم أنهما ليسا من الأسماء المنصوص عليها في رسالة الإمام. كما أن في هذا مخالفة من الفلقي للإمام عبد العزيز. ورغم أن هؤلاء المؤرخين لم يذكروا المصدر الذي استقوا منه هذه المعلومة. إلا أنه بالإمكان قبولها لاتفاقها مع سياق الأوضاع السياسية في المخلاف آنذاك.

ومن خلال ما سبق يتضح للباحث أن هذه الجملة التي وردت في مطلع الرسالة، وتضمنت أسماء بعض أمراء الأشراف آل خيرات، وكذلك الأشراف آل النعمي، لم تكن أصلاً في نص رسالة الإمام عبد العزيز، كما يُستَبعد آن يكون الفلقي هو الذي أضافها إلى الرسالة عندما وصل بها إلى المخلاف السليماني. بدليل أنه لم يسلمها إلى أحد من الذين وردت أسماؤهم في تلك الجملة، وإنما سلمها لحكام المخلاف الفعليين في ذلك الوقت الشريفين علي بن حيدر ومنصور بن ناصر- إذا سلمنا بصحة ما ذكره بعض المؤرخين المتأخريين- كما أنه لم يذكر أسرته الأشراف آل

(١) عاكش: الإتحاف،ص ٢٨-٣٦؛ القبي، مصدر سابق،ص ٢١-٣٦ .

(٢) الشعفي، مرجع سابق، ص ٧٣؛ محمد بن أحمد العقيلي، التاريخ الأدبي لمنطقة جازان، ج١، ط١، (جازان: النادي الأدبي، ١٤١١هـ)، ص٤٣٦ .

الخواجي في هذه الجملة، وهم يأتون في المرتبة الثانية من حيث القوة والمكانة بعد الأشراف آل خيرات، بالإضافة إلى أن ما تضمنته هذه الجملة لا يساعد على تحقيق الهدف الذي كتبت من أجله هذه الرسالة.

ولهذا يترجح للباحث إن هذه الجملة أضيفت إلى الرسالة بعد وصولها إلى المخلاف السليماني، وتسليمها للشريفين علي بن حيدر، ومنصور بن ناصر.

وفي حالة استبعاد أن تكون هذه الجملة أصلاً في نص الرسالة، وكذلك استبعاد أن يكون أحمد الفلقي هو الذي أضافها، بالإضافة إلى الجزم بأن هذه الجملة أضيفت إلى الرسالة بعد وصولها إلى المخلاف السليماني، يظهر أمام الباحث احتمالان:

الاحتمال الأول: أن هذه الجملة أُضيفت إلى الرسالة بعد وصولها إلى المخلاف السليماني، وقبل وصولها إلى المؤرخ البهكلي، كأن تكون هذه الجملة أضيفت إلى أول الرسالة، أو أن أحد النساخ قام بنسخها وأضاف إليها هذه الجملة، ودونها البهكلي في كتابه نفح العود كما وصلت إليه.

الاحتمال الثاني: أن يكون المؤرخ عبد الرحمن البهكلي، هو الذي أضافها عند تأليفه لكتابه هذا، لأن هذا الكتاب يعد أقدم المصادر التي دونت هذه الرسالة، وما ترتب عليها من حوادث، وقد أكد البهكلي على أنه أوردها للفائدة حيث قال "وقد أوردنا نقل الكتاب الواصل إلى هنا لأنه لا يخلو من فائدة، لأنا سنذكر ما تسبب عنه من اختلاف الناس بسببه، وما جرى بينهم من أجله"[١].

ورغم حرص البهكلي على إيراد نص هذه الرسالة في كتابه نفح العود، إلا أنه لم يذكر كيفية حصوله عليها، ولا تاريخ كتابتها، ولا السنة التي ألف فيها كتابه هذا الذي تضمن هذه الرسالة، وقد توفي قبل إتمامه، وقد قام بإكماله المؤرخ الحسن بن أحمد عاكش.

واحتمال أن يكون البهكلي هو صاحب هذه الإضافات يعود في اعتقادي إلى أمرين:

(١) البهكلي، نفح العود،ص ١٠٦ .

١- ألف المؤرخ عبد الرحمن البهكلي كتابه نفح العود بعد وفاة الشريف حمود أي بعد سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٨م، لورود ما يؤكد ذلك في ثنايا الكتاب[١]، بل تذكر بعض الروايات أنه بدأ في تأليف كتابه هذا في سنة ١٢٣٧هـ/١٨٢٢م[٢]، أي بعد حوالي اثنين وعشرين عاماً من وصول هذه الرسالة إلى المخلاف السليماني، وقد ذكر البهكلي في ثنايا كتابه هذا أنه دون كثيراً من المعلومات معتمداً على ذاكرته، بالإضافة إلى ما استقاه من الرواة الثقات[٣]، لأن هناك ما يشير إلى وجوده في تهامة اليمن قبيل وصول هذه الرسالة إلى المخلاف[٤].

وقد يصح هذا ويقبل فيما يتعلق بالحوادث التاريخية، ولكن لا يقبل في تسجيله لنص الرسالة كاملاً.

٢- إعجاب المؤرخ البهكلي بشخصية الشريف حمود، بدليل أنه خصه بكتابه هذا، وخلد فيه كل بطولاته، وحروبه العسكرية، وإنجازاته السياسية والحضارية، لذلك رأى إيراد اسمه في مطلع هذه الرسالة كأكثر وأقوى أمراء الأشراف آل خيرات رفضاً ومحاربة لأتباع الدعوة السلفية والدولة السعودية في المخلاف السليماني، ولا ينبغي أن تكون هذه الرسالة التي ترتب على وصولها كثيراً من الحوادث خلواً من ذكر الشريف حمود.

وعلى هذا فقد يكون البهكلي قد حصل على هذه الرسالة بعد تعرضها للإضافة، ودونها كما هي وهو ما يؤكد الاحتمال الأول الذي يذكر تعرضها للإضافة قبل وصولها إليه. أو أن الرسالة وصلت إليه كما جاءت من الإمام عبد العزيز وهو الذي أضاف إليها هذه الجملة للأسباب التي ذكرها الباحث آنفاً.

وإذا كانت هذه الافتراضات والاحتمالات والمبررات تشير إلى أن المؤرخ البهكلي هو صاحب هذه الإضافات، فإن هناك من المبررات أيضاً ما يدعوا إلى استبعاد أن يكون البهكلي هو صاحبها. أو أنها أضيفت إلى الرسالة قبل وصولها إليه، وبالتالي البحث

---

(١) المصدر نفسه، على سبيل المثال،ص ١٩٨ .

(٢) المصدر نفسه، مقدمة المحقق،ص ٦ .

(٣) المصدر نفسه، ص ١٦٨-١٦٩ .

(٤) عاكش، عقود الدرر، ص ٦٣، ٣٣٥ .

عن احتمالات أخرى. فعبد الرحمن البهكلي من كبار علماء ومؤرخي ونسّابي المخلاف السليماني في ذلك الوقت، وقد عاصر حوادث تلك الفترة، وعايشها معايشة كاملة بحكم منصبه كقاضي في تهامة اليمن[١]، وكونه عالماً جليلاً لا يستغني عن رأيه، بالإضافة إلى صلته الوثيقة والقريبة بالأشراف آل خيرات، وانفراده مع سلفه عبد الرحمن بن حسن البهكلي بتدوين تاريخ أسرة الأشراف آل خيرات منذ قدومهم إلى المخلاف السليماني حتى سنة ١٢٢٥هـ/١٨١٠م[٢].

بالإضافة إلى أن عبد الرحمن بن أحمد البهكلي أورد في أكثر من موضع من كتابه نفح العود، إن له كتاب في أنساب ووفيات المخلاف السليماني[٣] وقد اعتمدت عليه بعض كتب الأنساب اللاحقة[٤]، لذا فهو على دراية ومعرفة كبيرة بأعلام وأنساب أسر وقبائل المخلاف، كما وصفته بعض الروايات التاريخية بغزارة العلم، وكمال التحقيق، وحسن الفهم، وجودة التصور وقوة الذهن[٥].

وإذا كانت هذه الجملة قد أضيفت إلى هذه الرسالة قبل وصولها إلى البهكلي، فإنه لن يخفي عليه ذلك عند تدوينه لها، لا سيما وأنه يذكر في كتابه نفح العود عند وصول الشريف أحمد الفلقي برسالة الإمام عبد العزيز إن أمير صبيا هو الشريف منصور بن ناصر، وأمير المخلاف السليماني الشريف علي بن حيدر، ووصفه "بالقائم بأمر أبي عريش"[٦]، بالإضافة إلى أنه في ترجمته المستفيضة للشريفين ناصر بن محمد ويحي بن محمد لم يذكر أنهما كانا في منصب الإمارة عند وصول الفلقي برسالة الإمام عبد العزيز.

أما بالنسبة للشريف حمود بن محمد فقد كان البهكلي أعلم الناس به، لذا

---

(١) تولى عبد الرحمن بن أحمد البهكلي منصب القضاء في مدينة بيت الفقيه في تهامة اليمن من سنة١٢١٢-١٢٤٨هـ/١٧٩٧-١٨٣٢م.عاكش، الحدائق،ص٨٤-٨٥ ،٩١؛ عاكش، العقود، ص٦٣، ٣٣٥،٥٩ .

(٢) في سنة ١٢٢٥هـ/١٨١٠م توقف البهكلي في كتابه نفح العود، وما بعد هذه السنة حتى سنة ١٢٣٣هـ/١٨٨٨م أتمه الحسن بن أحمد عاكش. البهكلي، نفح العود، تكملة عاكش، ص ٣٠٩-٣١١ .

(٣) المصدر نفسه، على سبيل المثال، ص٢٧٩ .

(٤) مثل: الإتحاف لعاكش، والجواهر اللطاف للقبي، في مواقع متعددة منها.

(٥) الشوكاني، مصدر سابق، ص٣٢٨؛ عاكش، العقود، ص ٣١٦ .

(٦) البهكلي، نفح العود، ص ١٢٨، ١٣٥ .

اختصه بكتابه نفح العود، وسجل في هذا الكتاب معظم الحوادث التي حصلت في عهده، وبالذات مواقفه من أتباع الدعوة السلفية والدولة السعودية في المخلاف السليماني، والمعارك التي دارت بينه وبين قوات الدولة السعودية التي أُرسلت إلى المخلاف[1].

بالإضافة إلى ذلك معرفة البهكلي الوثيقة بالأسر الهاشمية في المخلاف والتي تجلت في كتابه نفح العود، ففي تلك الجملة المضافة اقتصار على ذكر الأشراف آل النعمي فقط دون بقية الأشراف في المخلاف، علماً بأنه يوجد من الأسر الهاشمية من لا يقلون مكانة عن آل النعمي، بل ويتفوقون عليهم من الناحية السياسية، كالأشراف آل الخواجي الذين ينتسب إليهم الشريف أحمد الفلقي، وقد نقلت بعض كتب الأنساب اللاحقة عن عبد الرحمن البهكلي فيما يتعلق بهذه الأسر كما ذكرت سابقاً.

وبهذا يستبعد الباحث أن تكون هذه الرسالة قد تعرضت لإضافة تلك الجملة قبل وصولها إلى عبد الرحمن البهكلي، أو يكون عبد الرحمن البهكلي هو الذي أضافها إلى الرسالة بعد وصولها إليه.

ولو كانت هذه الجملة قد أضيفت إلى الرسالة قبل وصولها إلى البهكلي لما غاب عنه اكتشافها أو الإشارة إلى ذلك. ولو كان عبد الرحمن البهكلي هو الذي أضافها لما غاب ذلك أيضاً عن المؤرخ الحسن بن أحمد عاكش الذي وضع مقدمة وتكملة كتاب نفح العود الذي ألفه شيخه البهكلي كما ذكرت سابقاً.

لذا ليس من المقبول أن عالمين جليلين ومؤرخين كبيرين كعبد الرحمن البهكلي والحسن عاكش لم ينتبها إلى هذه الزيادة، وهما صاحبا المدونات التاريخية المعاصرة لحوادث هذه الفترة وهما ممن اشتهرا بقوة الحدس والملاحظة وغزارة الإنتاج التاريخي، بالإضافة إلى ملازمتهما اللصيقة للأشراف آل خيرات[2].

---

(١) ينظر ذلك مفصلاً في: نفح العود، ص ١٦٩-٣٠٧ .

(٢) يظهر هذا في مؤلفاتهما التي استفاضا فيها في الحديث عن الأشراف آل خيرات، وقد اعتمد الباحث على بعضها في هذه الدراسة.

وفي حالة استبعاد أن تكون الرسالة قد تعرضت للإضافة قبل وصولها إلى عبد الرحمن البهكلي، أو أن عبد الرحمن البهكلي هو صاحب هذه الزيادة، يترجح للباحث أن هذه الإضافة من فعل النساخ المتأخرين، الذين نسخوا كتاب نفح العود، في ظل عدم الحصول على النسخة الأصلية لهذا الكتاب.

وغالبية النسخ التي عُثر عليها من هذا الكتاب كتبت في القرن الرابع عشر الهجري، أقدمها بتاريخ ١٣١١هـ/١٨٩٣م وأحدثها بتاريخ ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م[(١)].

والجدير بالذكر هنا أن يشير الباحث إلى أمر في غاية الأهمية وهو أن غالبية النسخ التي عثر عليها الباحث هي بأقلام نساخ من الأشراف آل النعمي، ولا يستبعد أن تكون الجملة التي أُضيفت إلى هذه الرسالة أحدثها أحدهم من المتأخرين، ثم نُقلت منه النسخ الأخرى، بدليل ذكر الأشراف آل النعمي في الجملة المضافة بعد ذكر أسماء أمراء الأشراف آل خيرات، رغم أن الأشراف آل النعمي لم يكونوا أصحاب مكانة سياسية متميزة في المخلاف كالأشراف آل خيرات وآل الخواجي وغيرهم. لذا أورد الناسخ اسم أسرته في هذه الجملة بجانب الأشراف آل خيرات الذين ذكرهم في أول الجملة المضافة، ولكنه لم يصب في تحديد الأشخاص الذين كانوا يتولون الأمور عند وصول الرسالة، ولو أنه أصاب في ذلك لربما لم ينتبه أحد لهذا الأمر.

مصطلحات ورموز التحقيق

(د) لنسخة كتاب نفح العود التي اتخذها الباحث أصلاً وهي نسخة دارة الملك عبد العزيز.

(ن) لنسخة كتاب نفح العود التي حوتها مكتبة الشيخ محمد نصيف.

(ج) النسخة كتاب نفح العود التي توجد في مكتبة الجامع الغربي في صنعاء.

(المطبوع) لنسخة كتاب نفح العود المطبوع على الآلة الكاتبة .

(ق) لنسخة الرسالة التي وردت في كتاب ابن قاسم.

---

(١) أشار الباحث إلى تاريخ نسخ هذه النسخ عند حديثه عن كيفية الحصول على هذه النسخ.

( ) ما بين القوسين للعبارات المختلف فيها بين جميع النسخ. وللساقط من النسخ (ن) و(جـ) و(ق) والمطبوع.

[ ] ما بين المعقوفتين للساقط من (د) والمستكمل من بقية النسخ.

نص الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن سعود إلى من يراه من أهل المخلاف السليماني، (خصوصاً الأشراف أولاد محمد بن أحمد، حمود(١) وناصر(٢) ويحي، وسائر إخوانهم، وأولاد(٣) إخوانهم(٤) وكذلك الأشراف بني النعمي، وسائر أشراف(٥) تهامة(٦)،(٧)، وفقنا الله

(١) هو الشريف حمود بن محمد بن أحمد آل خيرات، آخر من تولى إمارة المخلاف السليماني من أبناء الشريف محمد أحمد، وأقواهم على الإطلاق، ولد في سنة ١١٧٠هـ/١٧٥٦م في مدينة أبي عريش، ونشأ على حب الفروسية، ولم ينل نصيباً كبيراً من العلم، وتكاد تكون الفترة المبكرة من حياته شبه مجهولة ولا يعرف منها إلا القليل، وقد تولى الإمارة في سنة ١٢١٥هـ /١٨٠٠م، ودخل في حروب مع قادة الدولة السعودية الأولى ودعاتها في عسير والمخلاف السليماني، انتصر في بعضها وخسر في الأخرى، ونتيجة لتفوق القوات السعودية وهزيمته في معركة أبي عريش دخل في طاعة الدولة السعودية، وأصبح أحد أمرائها وقادتها وساعد بعدئذ على مد نفوذها إلى بلاد اليمن، فشمل غالبية تهامة اليمن، وبلاد حجة وكوكبان، وعندما هاجم محمد علي باشا الدولة السعودية الأولى استقل الشريف حمود بالمخلاف، ثم تقدم إلى عسير بتنسيق مع أمرائها وأئمة الدولة السعودية، وألحق بقوات محمد علي هزيمة كبيرة في معركة الملاحة في سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٨م وتوفي عقب المعركة بثلاثة أيام. البهكلي، نفح العود، تكملة عاكش،ص ١٤٥-٣٤٨: عاكش ، الديباج، ص٩٥-٢٥١ .

(٢) هو الشريف ناصر بن محمد بن أحمد آل خيرات، من أشهر الأشراف آل خيرات وأرجحهم عقلاً، اتصفت بالحكمة والهدوء والتروي، ونجح في تجنب الصراع الدائر بين إخوانه على الإمارة في أبي عريش، واحتفظ بإمارة صبياء من عهد والده حتى سنة ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م حيث تنازل عنها في هذا التاريخ لابنه منصور، وكانت وفاته سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م. البهكلي، نفح العود، ص١١٥-١١٧، ٢٣١. لمزيد من المعلومات ينظر: البهكلي، نزهة الظريف، حوادث سني ١١٨٥-١٢٠٤هـ.

(٣) في المطبوع: وبني.

(٤) في (جـ): إحوانهم.

(٥) في المطبوع: وكافة أهل.

(٦) تهامة: تجمع على تهائم، وإذا أُطلقت بدون تحديد فالمقصود بها المنطقة المحاذية لساحل البحر الأحمر الشرقي الممتدة من خليج العقبة شمالاً حتى باب المندب جنوباً، والمقصود بها هنا تهامة المخلاف السليماني. لمزيد من المعلومات عن تهامة ينظر: عبد الرحمن الحضرمي، تهامة في التاريخ، مجلة الإكليل، صنعاء، س ١، ع٢، ١٤٠٠هـ، ص٢٤ .

(٩٦) ساقط من (ق).

وإياهم إلى سبيل الحق والهداية. وجنبنا وإياهم طريق الشرك والغواية،(وأرشدنا وإياهم إلى اقتفاء آثار أهل العناية)(١).

أما بعد:

فالموجب لهذه الرسالة أن الشريف أحمد (بن حسين)(٢) [الفلقي](٣) قدم علينا(٤) فرأى ما نحن عليه، وتحقق صحة ذلك لديه، فبعد(٥) ذلك التمس منا أن نكتب

---

(١) ساقط من المطبوع.

(٢) ساقط من (ق).

(٣) من المطبوع.

(٤) في المطبوع: إلينا. لم يرد في نص الرسالة، أو في المصادر المعاصرة لتلك الفترة من مصادر تاريخ الدولة السعودية ومن ذلك مصادر تاريخ المخلاف السليماني التي أمكن الاطلاع عليها ذكر المكان والتاريخ الذي قدم فيه الشريف أحمد الفلقي على الإمام عبد العزيز. وأقدم الروايات التاريخية التي أمكن الوصول إليها هي ما ذكره المؤرخ اليمني لطف الله بن أحمد جحاف في حوادث سنة ١٢١٥هـ/١٨٠٠م من أن الفلقي كان "يتحدث في المجامع بصلاح صاحب نجد في الدين"، ويخبرهم " عن ملاقاته له بمكة عام أربعة عشر " أي في سنة ١٢١٤هـ/١٧٩٩م. جحاف، مصدر سابق،ص ٥٧٢. ولم يذكر جحاف من صاحب نجد هذا، ولا الهدف من توجه الفلقي إلى مكة. بينما تذكر بعض المؤلفات دون ذكر المصادر التي استقت منها هذه المعلومات أن الفلقي قدم على الإمام عبد العزيز في الدرعية، دون = = تحديد للسنة التي قدم فيها. الشعفي، مرجع سابق،ص ٧٣: العقيلي، تاريخ المخلاف، ص٤٤٠، ويفهم من سياق ما ذكره المؤرخ جحاف أن صاحب نجد الذي قابله الفلقي في مكة هو الإمام عبد العزيز بن محمد. لكن الذي يدحض هذا ما ذكره ابن بشر من أن الأمير سعود بن عبد العزيز هو الذي حج بأهل نجد نيابة عن والده في هذه السنة، كما أن الإمام عبد العزيز لم يحج في السنة التي قبلها أو بعدها. ابن بشر، مصدر سابق، ص ١٧-١٢١؛ أحمد زيني دحلان، خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام، د.ط، (بيروت: الدار المتحدة للنشر والتوزيع، د.ت)، ص٢٩٠-٢٩١. والذي يبدو للباحث أن الفلقي توجه إلى مكة في عام ١٢١٤هـ/١٧٩٩م لأداء فريضة الحج، لأن هناك ما يؤكد وجوده في المخلاف قبل موسم حج هذا العام. جحاف. مصدر سابق، ص ٥٦٠. ويمكن الجمع بين الرواية التي تقول أن الفلقي قابل صاحب نجد في مكة، والرواية التي تقول إنه قدم على الإمام عبد العزيز في الدرعية بالقول: إن الفلقي قابل الأمير سعود بن عبد العزيز في مكة المكرمة في حج عام ١٢١٤هـ/١٧٩٩م، وعاد معه إلى الدرعية وقابل فيها الإمام عبد العزيز، وطلب منه أن يزوده بكتاب يعود به معه إلى المخلاف السليماني. ويلاحظ أن الفلقي لم يمكث كثيراً في الدرعية لطلب العلم على أئمة وعلماء الدرعية، وإنما عاد سريعاً إلى المخلاف السليماني في العام التالي ١٢١٥هـ/١٨٠٠م حاملاً رسالة إلى الإمام عبد العزيز وداعياً له. وهذا يؤكد ما ذكرته بعض الروايات التاريخية من أن الفلقي كان من علماء وطلاب العلم في المخلاف، وممن تتلمذوا على عالم المخلاف السليماني في ذلك الوقت الشيخ أحمد بن عبد الله الضمدي. جحاف،مصدر سابق، ص٥٧٢؛ عاكش، الاتحاف،ص١٦. لذا لم يكن الفلقي في حاجة إلى الإقامة الطويلة في الدرعية لطلب العلم، وإنما كان الهدف من رحلته إلى الدرعية الإطلاع على ما لدى أئمة وعلماء الدرعية، وهو ما أكده الإمام عبد العزيز في رسالته التي قدم بها الفلقي.

(٥) في (د): وبعد، والإثبات من بقية النسخ.

لكم[1] ما يزول به الاشتباه، لتعرفوا[2] دين الإسلام الذي لا يقبل [الله][3] من أحد [ديناً][4] سواه[5]، فاعلموا رحمكم الله تعالى أن الله [سبحانه[6] وتعالى[7]] أرسل محمداً صلى الله عليه وآله[8] [وسلم][9] على فترة من الرسل، فهدى[10] به إلى[11] الدين الكامل، والشرع التام، وأعظم ذلك وأكبره وزبدته[12] إخلاص العبادة لله [وحده][13] لا شريك له، والنهي عن الشرك، وذلك هو الذي خلق الله تعالى[14] الخلق لأجله، ودل الكتاب على فضله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[15]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[16]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[17]، وإخلاص الدين (هو صرف جميع أنواع)[18] العبادة لله تعالى وحده لا شريك له، وذلك بأن لا يدعي إلا الله [تعالى][19]، ولا يستغاث إلا بالله[20]، ولا يذبح إلا لله[21]، ولا يخشى ولا يرجى سواه، (ولا يرهب)[22] ولا يرغب إلا

---

(١) ساقطة من (ق).
(٢) من (ق)، وفي (د) و(ن) و(جـ): فتعرفوا.
(٣) من (ق).
(٤) من (ق).
(٥) ساقطة من المطبوع.
(٦) من المطبوع.
(٧) من (ن) والمطبوع.
(٨) ساقطة من (ق).
(٩) من بقية النسخ.
(١٠) في (جـ): فهدى الله.
(١١) ساقطة من المطبوع.
(١٢) من (ق) والمطبوع، وفي (د) و(جـ): وزبيده، في (ن): ورائده.
(١٣) من المطبوع.
(١٤) ساقطة من بقية النسخ.
(١٥) سورة الذاريات، الآية (٥٦).
(١٦) سورة النحل، الآية (٣٦).
(١٧) سورة البينة، الآية (٥)، وهذه الآية في (ق) متقدمة على الآية التي قبلها.
(١٨) في المطبوع: هو إخلاص.
(١٩) من المطبوع.
(٢٠) في المطبوع: به.
(٢١) في المطبوع: له.
(٢٢) ساقط من المطبوع.

فيما لديه، ولا يتوكل في جميع الأمور إلا عليه، وأن كل ما هنالك لله تعالى، لا يصلح (شيء منه)[١] لملك مقرب، ولا نبي[٢] مرسل، ولا شيء[٣] غيرها.

وهذا هو بعينه توحيد الألوهية الذي أُسس الإسلام عليه، وانفرد به المسلم عن الكافر، فلما منَّ الله علينا بمعرفة ذلك، وعلمنا[٤] أنه دين الرسل اتبعناه ودعونا الناس إليه، وإلا فنحن قبل ذلك على[٥] ما عليه غالب الناس، من الشرك بالله، من عبادة أهل القبور، والاستغاثة بهم، والتقرب [إلى الله][٦] بالذبح لهم، وطلب الحاجات منهم، مع ما ينضم إلى ذلك من فعل الفواحش والمنكرات، وارتكاب الأمور المحرمات، وترك الصلوات[٧]، وترك شعائر الإسلام[٨]، حتى أظهر الله تعالى الحق بعد خفائه، وأحيا أثره بعد عفائه[٩]،[١٠] على يد شيخ الإسلام، (فهدى الله [تعالى][١١] به ما شاء من الأنام، وهو الشيخ)[١٢] محمد بن عبد الوهاب، أحسن الله تعالى[١٣] إليه[١٤] (في آخرته)[١٥] المآب، فأبرز لنا ما هو الحق والصواب من كتاب الله تعالى[١٦] المجيد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد[١٧]، فبين[١٨]

---

(١) في (ق): منه شيء.
(٢) في المطبوع: ولا لنبي.
(٣) ساقطة من (ق).
(٤) في (ق): وعرفنا.
(٥) في المطبوع: كنا على.
(٦) من (ق).
(٧) من (ق)، وفي بقية النسخ: الصلاة.
(٨) في المطبوع: الدين.
(٩) عفائه: من عفت الريح الأثر عفاءاً إذ درسته ومحته. أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، جـ١٥، د.ط، (بيروت، دار صادر، ١٤١٠هـ)، ص١٢.
(١٠) ساقط من المطبوع.
(١١) من (ق).
(١٢) ساقط من المطبوع.
(١٣) ساقطة من (ن) و(ق) والمطبوع.
(١٤) في المطبوع: له.
(١٥) ساقط من المطبوع.
(١٦) ساقطة من بقية النسخ.
(١٧) من (ن) و(ق)، وفي بقية النسخ: مجيد.
(١٨) في المطبوع: فتبين.

[لنا][1] الذي نحن عليه، وهو دين غالب الناس اليوم[2]، من الاعتقادات[3] في الصالحين وغيرهم، ودعوتهم(والتقرب بالذبح)[4] لهم، والنذر [لهم][5]، والاستغاثة بهم في الشدائد، وطلب الحاجات منهم.

إنه الشرك الأكبر الذي نهى الله تعالى[6] عنه، وتهدد بالوعيد الشديد عليه، وأخبر في كتابه أنه لا يغفره إلا بالتوبة منه، قال [الله][7] تعالى[8]: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ[9]وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[10]، وقال [تعالى][11]﴿إِنَّهُ مَن[12] يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ[13] عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[14]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ[15] تَدْعُونَ[16] مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ [17] إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[18]. والآيات في أن دعوة (غير الله)[19](شرك أكبر)[20] كثيرة واضحة شهيرة، فحين كشف الله[21] لنا الأمر، وعرفنا ما نحن عليه

---

(1) من (ق) والمطبوع.
(2) ساقطة من (ق).
(3) في المطبوع: الاعتقاد.
(4) في (ن): والتقرب بهم وبالذبح.
(5) من بقية النسخ.
(6) ساقطة من (ن) والمطبوع.
(7) من (ق).
(8) ساقطة من (د).
(9) ساقطة من (د).
(10) سورة النساء، الآية (48).
(11) من (ق) والمطبوع.
(12) في (ق): ومن.
(13) ساقطة من المطبوع.
(14) سورة المائدة، الآية (72).
(15) في (جـ): والدين.
(16) في (د): يدعون، والإثبات من بقية النسخ.
(17) ساقط من (ق).
(18) سورة فاطر، الآيتين (13،14).
(19) في المطبوع: غيره.
(20) في (ق): الشرك الأكبر. ولعله الصواب.
(21) ساقطة من (ق).

من الشرك والكفر بالنصوص القاطعة، والأدلة الساطعة من كتاب الله تعالى[١]، وسنة (رسوله صلى الله عليه وآله[٢] وسلم)[٣]، وكلام الأئمة الأعلام الذين أجمعت[٤] الأمة على روايتهم[٥]، عرفنا (أن ما نحن)[٦] عليه ، وما كنا ندين به أولاً[٧] أنه الشرك الأكبر الذي نهى الله [تعالى][٨] عنه وحذر[٩]، وأن الله [تعالى][١٠] إنما أمرنا[١١] أن ندعوه وحده [لا شريك له][١٢]، وذلك كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[١٣] وقال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾[١٤]، وقال تعالى : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ[١٥] مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ، وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا[١٦] لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾[١٧].

إذا عرفتم فاعلموا رحمكم الله تعالى[١٨] (أن الذي[١٩] ندين[٢٠] لله تعالى[٢١] به)[٢٢]

(١) ساقطة من (ق).
(٢) ساقطة من (ق).
(٣) في المطبوع: رسول الله.
(٤) من (ق) والمطبوع، وفي بقية النسخ: اجتمعت.
(٥) في (ق): درايتهم.
(٦) من (ق) و(جـ)، وفي (د) و(ن): إنما نحن، وفي المطبوع: ما نحن.
(٧) ساقطة من المطبوع.
(٨) من (ن).
(٩) في (جـ): وحذره.
(١٠) من (ن).
(١١) في المطبوع: أول ما أمرنا.
(١٢) من (ق).
(١٣) سورة الجن، الآية (١٨).
(١٤) سورة الرعد، الآية (١٤).
(١٥) في المطبوع: أظلم.
(١٦) في (جـ): كان.
(١٧) سورة الأحقاف، الآيتين (٥ ،٦).
(١٨) ساقطة من المطبوع.
(١٩) في (د): الذين، والإثبات من بقية النسخ.
(٢٠) في (ق): له.
(٢١) في المطبوع: إن الدين لله تعالى.
(٢٢) في (جـ) والمطبوع: وأقام.

هو إخلاص العبادة لله وحده، ونفي الشرك وإقامة[1] الصلاة (في الجماعة)[2]، وغير ذلك من أركان الإسلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،ولا يخفى على ذوي البصائر والأفهام،والمتدبرين من الأنام، أن هذا الدين الذي جاءنا به (سيد الأنام)[3]، قال جل جلاله: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ[4] غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا[6] ﴾[7].

فمن قبل هذا[8] ولزم[9] العمل به فهو حظه في الدنيا والآخرة، ونعم (الحظ دين)[10] الإسلام، ومن أتى[11] غيره[12] واستكبر فلم يقبل هدى الله لما تبين له[13] نوره وسناه، نهيناه[14] عن ذلك وقاتلناه، قال [الله][15] تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه ﴾[16]. وقصدنا بإرسال هذه النصيحة إليكم[17] القيام بواجب الدعوة، قال الله [تعالى][18] ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[19]،

---

(١) في المطبوع: جماعة.
(٢) من (ن)، وفي (د) و(جـ): الرسول، وفي المطبوع و(ق): الرسول صلى الله عليه وسلم.(١٨٧) في المطبوع: يتبع، وفي (جـ): يبع.
(٣) سورة آل عمران، الآية (٨٥).
(٤) ساقطة من (جـ).
(٥) سورة المائدة، الآية (٣).
(٦) ساقطة من (ق).
(٧) من (ن) و(ق)، وفي بقية النسخ: وألزم.
(٨) في المطبوع: الحظين.
(٩) في (ق): أبى.
(١٠) ساقطة من (ق).
(١١) ساقطة من المطبوع.
(١٢) من (ن) و(ق)، وفي (د): عبناه، وفي (جـ) والمطبوع: نحيناه.
(١٣) من (ن) و(جـ) و(ق).
(١٤) سورة الأنفال، الآية (٣٩).
(١٥) في المطبوع: لكم.
(١٦) في (جـ) والمطبوع: تبارك وتعالى.
(١٧) سورة يوسف، الآية (١٠٨).
(١٨) في (ن): لله وسلم.
(١٩) ساقطة من (ق).

وصلى الله[١] على سيدنا[٢] محمد وآله[٣] (وسلم تسليماً)[٤].

(١) في (ن): لله وسلم.
(٢) ساقطة من (ق).
(٣) في المطبوع: وعلى آله. وزاد في (ق): أيضاً.
(٤) ساقط من (ق).

الخاتمة

خلص الباحث مما سبق إلى أن أهمية هذه الرسالة تكمن في كونها البداية الفعلية لوصول دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والسبب الرئيسي في الحروب التي قامت بين الأشراف آل خيرات وأتباع دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في المخلاف السليماني ثم مع القوات التي أرسلتها الدولة السعودية لنجدة أتباع الدعوة في المخلاف.

كما خلص الباحث إلى أن هذه الرسالة تعرضت للزيادة بعد وصولها إلى المخلاف السليماني. وأن تلك الزيادة لم تكن في نص الرسالة التي أرسلها الإمام عبد العزيز.وقد استبعد الباحث أن يكون صاحب الزيادة التي تعرضت لها الرسالة الشريف أحمد بن حسين الفلقي الذي أوصلها إلى المخلاف السليماني، أو المؤرخ عبد الرحمن بن أحمد البهكلي الذي أوردها في كتابه نفح العود، ورجح أن تكون الزيادة من فعل نساخ كتاب نفح العود، وقد أورد من الشواهد والاستنتاجات والتحليل ما يؤيد ما ذهب إليه، وعلى هذا يمكن القول إن نسخة (ق) التي أوردها ابن قاسم في كتابه الدرر السنية هي الأصوب لخلوها من الزيادة مع ما اعتراها من التصحيف والتحريف والسقط والأخطاء الطباعية. وهو ما تبين للباحث عندما قارنها بالنسخ الأخرى. كما حدد الباحث تاريخ قدوم الشريف أحمد بن حسين الفلقي إلى الإمام عبد العزيز في الدرعية، وعودته منها، وأنه لم يقابله في موسم حج سنة ١٢١٤كما ذكر المؤرخ حجاف.

وعسى أن أكون قد تمكنت من توضيح هذا اللبس الذي غشي رسالة الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود إلى سكان المخلاف السليماني، وحددت الزيادة التي أضيفت إلى هذه الرسالة. وتاريخ قدوم الشريف أحمد الفلقي إلى الدرعية وعودته منها إلى المخلاف.

المصادر

البسام ، أحمد بن عبد العزيز. "من أسباب المعارضة المحلية لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في عهد الدولة السعودية الأولى" مجلة الدرعية، السنة الرابعة العدد الرابع عشر، ربيع الآخر ، ١٤٢٢هـ.

آل بسام، عبد الله بن عبد الرحمن. علماء نجد خلال ثمانية قرون، جـ١، ط٢، (الرياض: دار العاصمة للنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ).

ابن بشر، عثمان بن عبد الله. عنوان المجد في تاريخ نجد،جـ١، د.ط، الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، د.ت.

البهكلي، عبد الرحمن بن أحمد. نفح العود في سيرة دولة الشريف حمود، تكملة الحسن بن أحمد عاكش، تحقيق: محمد بن أحمد العقيلي، ط٢، (جازان: مطابع جازان، ١٤٠٦هـ).

البهكلي، عبد الرحمن بن حسن، خلاصة العسجد في دولة الشريف محمد بن أحمد، تحقيق: ميشيل توشرير وعدنان درويش، (صنعاء: المركز الفرنسي للدراسات اليمنية، ٢٠٠٠م).

-نزهة الظريف في حوادث دولة أولاد الشريف (مخطوط) (صنعاء:مكتبة الجامع الكبير،رقم (٢٢٠٦)،نسخة مصورة،حوادث سني ١١٨٥-١١٩٠هـ

حجاف، لطف الله بن أحمد. درر نحور الحور العين في سيرة المنصور علي وأعلام دولته الميامين، تحقيق: عارف بن محمد الرعوي، (رسالة ماجستير لم تنشر بعد)، جامعة صنعاء، كلية الآداب، قسم التاريخ.

ابن جريس، راشد بن علي. مثير الوجد في أنساب ملوك نجد، تحقيق: محمد بن عمر بن عبد الرحمن العقيل، ط٢، (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤١٩هـ).

الحازمي: حجاب بن يحيى، أبجديات في النقد الأدبي، ط١، (جازان: النادي الأدبي،١٤٠٥هـ).

الحقيل. سليمان بن عبد الرحمن. حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحقيقة دعوته،ط٢، (الرياض: مؤسسة الممتاز للطباعة، ١٤٢١هـ).

الحضرمي. عبد الرحمن."تهامة في التاريخ"، مجلة الإكليل، (صنعاء، س١، ع٢، ١٤٠٠هـ).

الحكمي، عمارة بن علي. تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد، تحقيق: محمد بن علي الأكوع. ط٣. (صنعاء: المكتبة اليمنية، ١٩٨٥م).

دحلان. أحمد زيني. خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام، د.ط. (بيروت: الدار المتحدة للنشر والتوزيع، د.ت).

الزيلعي، أحمد بن عمر. الأوضاع السياسية والعلاقات الخارجية لمنطقة جازان في العصور الإسلامية الوسطية، ط١، (الرياض: مطابع الفرزدق، ١٩٨٦م).

السلمان، محمد بن عبد الله. دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي. ط١. (الرياض: وكالة الفرقان، ١٤٠٧هـ).

الشعفي، أحمد بن محمد. لآلئ الدر في تراجم رجال القرن الثالث عشر. ط١، (جدة: دار البلاد، ١٤١٢هـ).

الشوكاني، محمد بن علي. البدر الطالع بمحاسن من جاء بعد القرن السابع، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري، ط١، (دمشق: دار الفكر، ١٤١٩هـ).

الصميلي، علي بن حسين. العلاقة بين أمراء أبي عريش وأمراء عسير في القرن الثالث عشر الهجري. ط١. (جدة: دار البلاد، ١٤١٩هـ).

ضاهر، محمد كامل. الدعوة الوهابية وأثرها في الفكر الإسلام الحديث، ط١، (بيروت: دار السلام، ١٤١٤هـ).

عاكش، الحسن بن أحمد عبد الله. إتحاف السادة الأشراف سكان المخلاف (مخطوط) مكتبة الشريف إبراهيم أبو هادي القبي النعمي من قرية أبو السلع التابعة لمحافظة في منطقة جازان.

- حدائق الزهر في ذكر الأشياخ أعيان الدهر، تحقيق: إسماعيل بن محمد البشر، ط١، (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٣هـ).

- عقود الدرر بتراجم علماء القرن الثالث عشر، تحقيق: إسماعيل بن محمد البشري. لم ينشر بعد.

عبد الرحيم، عبد الرحيم عبد الرحمن. الدولة السعودية الأولى، ط١، (القاهرة: المطبعة العالمية، ١٩٦٩م).

ابن عبد المجيد، تاج الدين عبد الباقي. بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق: عبد الله بن محمد الحبشي، ومحمد بن أحمد السنباني، ط١، (صنعاء: دار الحكمة، ١٤٤٠٨هـ).

العثيمين، عبد الله الصالح. بحوث وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية، ط١، (الرياض، دار الهلال، ١٤٠٤هـ).

- تاريخ المملكة العربية السعودية، جـ١، ط٣، (الرياض: مطابع الشريف، ١٤١١هـ).

العجلان، عبد الله بن محمد. حركة التجديد والإصلاح في نجد في العصر الحديث،ط، (الرياض: د. ، ١٤٠٩هـ).

العقيلي: محمد بن أحمد. الأدب الشعبي في الجنوب، ج٢،(جازان: مطابع جازان، ١٤١٠هـ).

- التاريخ الأدبي لمنطقة جازان، جـ١، ط١،(جازان:النادي الأدبي،١٤١١هـ).

- تاريخ المخلاف السليماني، جـ١، ط٣،(جازان:شركة العقيلي، ١٤١٠هـ).

- محاضرات في الجامعات والمؤتمرات السعودية، ط١، (جازان: النادي الأدبي، د.ت).

- المعجم الجغرافي للبلاد السعودية (مقاطعة جازان)، ط٣(جازان: شركة العقيلي وشركاه، ١٤١٥هـ).

العيسى، مي بنت عبد العزيز. الحياة العلمية في نجد منذ قيام دعوة الشيخ

محمد بن عبد الوهاب وحتى نهاية الدولة السعودية الأولى.ط١، (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤١٧هـ).

المخلاف السليماني في عهد الدولة السعودية الأولى، (رسالة ماجستير، غير منشورة)، جامعة الملك سعود، كلية الآداب، قسم التاريخ، ١٤٠٣هـ.

ابن غانم، حسين. روضة الأفكار والأفهام لمرتاد أحوال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام، جـ١، د.ط (القاهرة: د.د، ١٣٦٨هـ).

ابن قاسم، عبد الرحمن بن محمد. الدرر السنية في الأجوبة النجدية، ط١، (مكة: مطبعة أم القرى، ١٣٥٢هـ).

القبي، محمد بن حيدر. الجواهر اللطاف المتوجه لهامات الأشراف من سكان صبيا والمخلاف،(مخطوط)، جازان: محافظة صامطة، قرية الجحفار، مكتبة إبراهيم بن حسين الصميلي، نسخة مصورة .

ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. لسان العرب، جـ١٥، د.ط، (بيروت: دار صادر، ١٤١٠هـ).

النعمان، عبد الله بن علي. العقيق اليماني في وفيات وحوادث المخلاف السليماني،(مخطوط)، الرياض: جامعة الملك سعود، مكتبة جامعة الملك سعود المركزية، قسم المخطوطات، رقم٩٢/ع ص/٧٧٠٨ .

النمازي، أحمد بن محمد. خلاصة السلاف في أخبار صبيا والمخلاف (مخطوط) يوجد أصله لدى الشيخ علي بن أحمد الموكلي، في مدينة بيش في منطقة جازان.

الهمداني، الحسن بن أحمد. صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، ط٣، (صنعاء: مركز الدراسات اليمنية، ١٤٠٣هـ).

انعكاسات احتلال نابليون بونابرت لمصر على العلاقات الفرنسية-الجزائرية

فيما بين ١٧٨٩ و ١٨١٤

د. محمـــد أميـــن

قسم التاريخ- كلية الآداب - جامعة الملك سعــود

ملخص البحث

الهدف من هذا البحث هو إبراز مدى تأثير إحتلال نابليون بونابرت لمصر سنة ١٧٩٨ على العلاقات الفرنسية- الجزائرية . فقبل إنطلاق مشروع الحتلال كانت العلاقات ودية ومستقرة . لكنها عرفت تراجعا بعد ذلك . وقد كان لتضافر جهود كل من الدولتين العثمانية والبريطانة، من أجل عرقلة السياسة الإستعمارية الفرنسية في حوض المتوسط، دور في تقهقر العلاقات الفرنسية - الجزائرية التي دخلت مرحلة غلب عليها طابع التوتر والتهديد المستمر من قبل نابليون.

Abstract

Repercussions of the Occupation of Egypt
upon the French-Algerian relations
(1798-1914)

The aim of this study is to claify how the occupation of Egypt by Napoleon Bonaparte in 1798 has affected the relations between France-Algerian relations were stable, but the situation has changed after. Both, the Ottoman and British governments were determinate to make difficulties for the colonail policy of France around the Mediterranean area. Therefore the relations between France and Algeria entered the stage of confrontation as a result of this repprochement.

تمهيـــــد:

تميزت مدة الأربعين سنة التي سبقت احتلال القوات الفرنسية للجزائر سنة ١٨٣٠ بتدهور شديد في مجال العلاقات بين القوى الأوربية الاستعمارية تجلى في: حروب الثورة الفرنسية وفي المنافسة الشديدة بين فرنسا وإنجلترا للهيمنة على تجارة المتوسط. واشرئبابهما لاحتلال آجزاء من أراضي الدولة العثمانية في المشرق والمغرب العربيين بعد اقتسامهما النفوذ على أهم جزر المتوسط. ولعل أبرز ما ميز هذه المرحلة التاريخية هو انكشاف الوجه الحقيقي لمشروعي الاستيطان والاستغلال التجاري الفرنسي بالعديد من المراكز بسواحل المشرق والمغرب العربيين. إذ سرعان ما حاولت فرنسا. بعد أن شعرت بامتلاك القوة اللازمة واستعادت ثقتها بنفسها. إعادة بناء إمبراطوريتها المفقودة منذ نهاية حرب السبع سنين سنة ١٧٦٣. ليس في أمريكا والهند هذه المرة. ولكن في مجالها المتوسطي القريب وبالأخص على حساب أراضي الدولة العثمانية. فقد تزامنت هذه المرحلة مع تفسخ عام للنظام العثماني. نجمت عنه العديد من الثورات الداخلية ونزوع العديد من الأقاليم بأوربا الشرقية (اليونان وصربيا وملدافيا وفلاشيا) إلى الاستقلال بدعم من القوى الأوربية. فضلا عن السباق المحموم من جانب كبرى نفس القوى الاستعمارية لاقتسام تركة الرجل المريض. هذا مع العلم أن العديد من الولايات العثمانية - كما هو الشأن بمصر مع المماليك وبطرابلس (ليبيا) مع القرمانليين وبتونس مع العائلة الحسينية وآخيرا بالجزائر مع حكم الدايات - كانت تنعم بصيغ من الاستقلال الذاتي مع الاعتراف بسيادة الباب العالي عليها. فهل حققت فرنسا مطلبها في الحصول على حصة من تلك التركة ؟ وهل تم لها ذلك بسهولة ويسر ؟ وما هو موقع الجزائر من مشروعها التوسعي العام بالمتوسط خلال هذه المرحلة ؟

١- موقف الجزائر من الصراع الفرنسي- الأوربي :

لم تترك دول وممالك أوربا التقليدية فرنسا منذ ثورة ١٧٨٩ تستجمع قواها وترتب بيتها، لخوفها الشديد من أن تنتقل عدوى مبادئ الثورة لكافة البلاد المجاورة، حتى بدأت في شن حربها من أجل وأد ما اعتبرته خطرا داهما وشيك الوقوع. وقد نجح الائتلاف الأوربي إلى جانب شغل لجنة الإنقاذ الوطني الفرنسي في حروب اندلعت بجهات فرنسا الأربع ابتداء من فبراير ١٧٩٣[1] في إثارة ثورات القوى التقليدية (الملكية) المضادة بالداخل. لعل أهمها وأطولها الحرب الأهلية المسماة حرب الفاندي guerre de Vendée (في الشمال الغربي من فرنسا) التي دامت من سنة ١٧٩٣ إلى سنة ١٧٩٥ . كان من آثار هذه الحروب أنها عمقت الأزمة الداخلية، وكادت تقضي على الجمهورية الفتية في المهد. ولولا أن الأعمال الحربية للحلفاء كانت تسير ببطء، لما استطاعت لجنة السلامة العامة (السلطة الحاكمة) تعزيز صفوفها الداخلية، من خلال حشد كل الطاقات البشرية والمادية للدفاع عن مكتسبات الثورة، وتحقيق انتصارات متتالية على الحلف المذكور واضطراره لعقد بعض المعاهدات، لعل أهمها معاهدتي بال ولاهاي سنة ١٧٩٥، الأمر الذي أدى إلى تفكيك ذلك الحلف واستعادة فرنسا لحدودها التقليدية. فما هو تأثير هذه الحروب والاضطرابات على الوجود والاستغلال التجاري الفرنسي التاريخي بالجزائر؟ وما هو موقف الجزائر من كل هذه الأحداث ؟

يبدو أن حكام الجزائر لم يستفيدوا من دروس الماضي، حينما كانت فرنسا تخطب ود الجزائريين في أوقات ضعفها أو أثناء انشغالها بحروبها الاستعمارية ضد ألد أعدائها الأوربيين، لأجل الحفاظ على امتيازاتها التجارية، ثم استعمالها القوة حين استعادتها لعافيتها للدفع قدما بما تعتبره امتيازات تجارية في اتجاه مشروعها

(١) حقق الائتلاف الأوربي خلال سنة ١٧٩٣ انتصارات عديدة على فرنسا، بحيث فقدت هذه الأخيرة بلجيكا بعد هزيمة نيرفيندين Neerwinden قرب بروكسيل في ١٨ مارس، وجيماب Jemappe عند الحدود التقليدية مع فرنسا ومايانس Mayence في يوليوز وكلها انضمت إلى إنجلترا، واستولت بروسيا الألمانية على منطقة الألزاس، كما استولى الإسبان على بيربينيون Perpignan وبايون Bayonne، وسلم الملكيون طولون للإنجليز في ٢٧ يوليوز، وحاصرت النمسا مدينة موبيج Maubeuge.

الاستعماري العام. هذا المشروع الذي لم يستثن الجزائر منذ أواسط القرن السابع عشر. والذي أصبح أكثر إلحاحا كبديل استراتيجي بعد فقدان فرنسا للعديد من مستعمراتها البعيدة خلال القرن الثامن عشر، وخاصة بعد هزيمتها في حرب السبع سنين سنة ١٧٦٣ . هل انحياز الداي حسن إلى جانب فرنسا خلال حربها للحلف الأوربي، يعد خيارا استراتيجيا خاسرا لا يستند إلى عبر الماضي؟ أم أنه يؤكد التزام الجزائر بروح المعاهدات السابقة. التي عقدت بين الجانبين منذ مطلع القرن السابع عشر الميلادي. والتي تؤكد على عدم تواطؤ الطرفين مع عدو بعضهما البعض ؟ هذا مع العلم أن التاريخ بين فيما سبق عدم التزام فرنسا الحياد أثناء الحرب الجزائرية-الإسبانية التي أدت إلى احتلال وهران للمرة الثانية سنة ١٧٣٤[١].

لقد حققت الدبلوماسية الفرنسية في ظل الظرفية الخانقة التي كانت تعيشها، أثناء حروبها الأوربية، نجاحا هاما على المستوى الإقليمي حينما تمكنت من عقد اتفاق جديد مع الجزائر يقر ويثبت معاهدات السلم السابقة بتاريخ ٢٠ مايو ١٩٧٣[٢]. كما تم تبادل رسائل بين الفرنسيين والجزائريين تقر وتثبت في مضمونها مجمل المواثيق والعهود السابقة. وهو ما تضمنه جواب الداي حسن على رسالة التي

(١) ورد هذا الاتهام الجزائري لفرنسا بمساندة إسبانيا في حربها ضد الجزائر، في رسالة إبرهيم داي إلى الكونت دو موربا De Maurepas بتاريخ ٦ فبراير ١٧٣٤ .

E.Plantet, Correspondances des Deys d'Alger avec la cour de France (1579-1833), Eugène يحتوي مؤلف أوجين بلانطي vol., édit. Bouslama, Tunis, 1981, t.2, pp. 177-180.

Plantet : " مراسلات دايات الجزائر مع حكومة فرنسا (١٥٧٩-١٨٣٣)" على معلومات غزيرة ذات طابع سياسي، تتناول قضايا الساعة التي تهم الطرفين كالقرصنة البحرية والتحالفات والنزاعات، أو اقتصادي خاصة منها ما تعلق بالمبادلات التجارية والمشاكل المرتبطة بها. وقد ساعدتنا هذه المراسلات في فهم خلفيات العديد من الأحداث التي تهم علاقات الجانبين، وفي الكشف عن مخططات فرنسا العدوانية ضد الجزائر منذ وقت مبكر.

(٢) أول معاهدة سلم عقدت بين الجانبين الفرنسي والجزائري ترجع إلى تاريخ ٢١ مارس ١٦١٩، وتوالى عقد معاهدات أخريات تبعا للظروف التي مرت بها علاقات الطرفين أحصينا منها أربع عشرة معاهدة حتى سنة ١٧٩٣ . كل المعاهدات التي عقدت بين فرنسا والجزائر سواء منها ما يطلق عليه معاهدات السلم أو المعاهدات ذات الطابع التجاري تم عرضها في مؤلف الباحث جمال قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا (١٦١٩-١٨٣٠)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٧. أما أول كتاب جمع فيه صاحبه مجمل معاهدا السلم والتجارة التي عقدت بين فرنسا وبلدان المغرب فهو التالي:

Abel Boutin, Les traités de paix et de commerce de la France avec la Barbarie, A. Pedon, Paris, 1902.

بعث له بها المجلس التنفيذي المؤقت للجمهورية الفرنسية يخبره فيها بالتحولات السياسية التي عرفتها فرنسا، وبإقرار القنصل فاليير Vallière ومنحه ثقة الحكومة الجديدة في تمثيلها لدى الجزائر. ومما جاء في تلك الرسالة: "..إننا نثبت، استنادا إلى عهودنا السابقة الشروط والاتفاقات المقررة بيننا، ونعد بالتقيد بها من منطلق ديني، ونسهر على تنفيذها.." ولم يكتف الداي بهذه العبارات، بل أرفقها بنسخة من نص التصديق على تلك المعاهدات جاء فيه: "مهما يكن محتوى الاتفاقات والشروط التي تضمنتها بنود المعاهدات الموجودة بين يدي قنصلكم هنا، ورغبة منا في مراعاة هذه المعاهدات وتنفيذها كما هو الشأن في السابق، فإننا قررناها ونقرها: وهذا الإقرار سجلناه من طرفنا على معاهداتنا هذه التي هي بين يدي قنصلكم، لقد كتبنا لكم هذه الرسالة لنخطركم بموقفنا هذا"[1] لقد اعتبرت الإدارة الفرنسية الجديدة هذا الإقرار مكسبا سياسيا هاما، إذ يشكل اعترافا رسميا بحكومة الجمهورية الفرنسية في لحظة تعرضت فيها إلى مواجهة قوى أوربا الغربية بأكملها. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد. كما تؤكد ذلك رسالة فليبير بيشو Philibert Buchot مفوض الجمهورية للعلاقات الخارجية (وزير الخارجية) إلى الداي حسن الذي وصف بأنه "الصديق القديم وحليف الأمة الفرنسية" بتاريخ ٢٨ أغسطس ١٧٩٤. إذ اعترفت حكومة الجمهورية بما هو أكثر من مجرد إقرار الاتفاقات السابقة. فقد أقرت بالتسهيلات التي خص بها الداي السفن الفرنسية، لنقل شحنات القمح الضروري لتغذية الفرنسيين في عدة أقاليم فرنسية هددتها المجاعة، إبان الحرب الفرنسية-الأوربية وما صاحبها من حرب أهلية مدمرة: كما اعترفت بحصولها على القرض الهام الذي أعطاها إياه الداي لتغطية ثمن أولى دفعات الحبوب من بونة (عنابة) وقسنطينة والذي بلغ مقداره: ٥٠٠٠٠ بياستر (قرش) إسباني قوي piastres fortes d'Espagne أي ما يعادل ٢٥٠٠٠٠ فرنك فرنسي، وكذا بالأوامر الصارمة التي أعطاها الداي للبحارة الجزائريين باحترام العلم الوطني الفرنسي الجديد أينما صادفوه. وقد بالغ أعضاء لجنة السلامة العامة في شكر الداي الذي اعتبروه صديقا حميما

(1) Plantet, op.cit., t.2, pp.436-437

لفرنسا بغضه الطرف عن كل محاولات أعدائها لإقناعه بالتخلي عن دعم حكومة الجمهورية وإلصاق كل التهم بها[1] فهل اعتبرت فرنسا ما قام به الداي هو عنوان صداقة حقيقية ؟ أم أنها رأت في ذلك دليل خنوع لطرف مكبل بمعاهدات ومواثيق تعتبر ورقة يمكن استعمالها ضده بمجرد انجلاء الأخطار المحدقة بها واسترجاع قواها ؟ ثم ما هو مؤكد خلال تلك المرحلة التاريخية، هو التباين الجلي بين القوى الأوروبية والبلاد الإسلامية من بينها الجزائر. فأوربا رغم صراعاتها الداخلية، كانت تمتلك القوة الضاربة لفرض رغباتها وأطماعها على البلاد الضعيفة بما فيها الدولة العثمانية والأقاليم التابعة لها.

٢- تأثير مشروع حملة نابليون على العلاقات الفرنسية-الجزائرية:

تميزت المرحلة الممتدة من ١٧٩٠ إلى ١٧٩٨ بوقوف الجزائر إلى جانب فرنسا في أحلك ظروفها الداخلية والدولية، سواء بعد وقوع الثورة (١٧٨٩-١٧٩٢) أو أثناء معاداة وحرب أوربا لها (١٧٩٣-١٧٩٥)، أو خلال حملاتها التوسعية بإيطاليا وجزر البحر المتوسط. وقد أبان حكام الجزائر - بالملموس لأول مرة طوال تاريخ علاقاتهم مع فرنسا - عن صدق نيتهم والتزامهم بمقتضيات المواثيق والعهود المسطرة في معاهدة السلم المئوي سنة ١٧٩٠س. وقد تجلى ذلك في عدم التفاتهم إلى عروض الائتلاف الأوربي المعارض لفرنسا، والوقوف إلى جانب هذه الأخيرة من خلال تقديم القروض المالية وبيع القمح والمواد الغذائية الضرورية لها، خاصة بعد أن هدد شبح المجاعة مناطق الجنوب الفرنسي بسبب الحرب الأهلية، واشتد الطلب على تغطية حاجيات الجيوش الفرنسية سواء من الغذاء أو الخيول. هل اعترف الفرنسيون للجزائريين بفضلهم ؟ وما هو مصير العلاقات الفرنسية-الجزائرية بعد حملة نابليون على مصر ؟ ثم هل اقتصر مشروع نابليون التوسعي على المشرق أم أن أبعاده كانت أوسع من ذلك؟

بعد أن خرجت حكومة الجمهورية منتصرة على الجبهتين الداخلية والخارجية واسترجعت أراضيها المغتصبة، بدأت تفكر في الانتقام من أعدائها، واستعادة هيمنتها من جديد على المتوسط. وقد تبلور هذا المشروع الأخير بعد نجاحها في ضم إيطاليا.

(1) Ibid, pp.439-440.

بحيث بدأت تفكر بجد في القضاء على نفوذ إنجلترا التي استغلت ظروف الفوضى والحروب الثورية لمحاولة الاستحواذ على المكتسبات الفرنسية بحوض المتوسط وخاصة تنامي امتيازاتها داخل الدولة العثمانية. وقد رأت فرنسا في احتلال مصر، إلى جانب استعادة هيمنتها على تجارة المشرق، مخططا ناجعا لقطع الطريق عن إنجلترا في استغلالها لأقرب المواصلات البحرية والبرية - عبر مصر والمشرق العربي - المؤدية إلى مستعمراتها بالهند. لكن إذا كان هذا هو السبب من منظور استراتيجي جيو-سياسي، فإنه لا يمكن غض الطرف عن الأهداف الخفية المرتبطة إما بالوضع السياسي الداخلي أو بمشاريع التوسع الاستعماري الفرنسي تجاه نفس المنطقة قبل افتقاد فرنسا لمستعمراتها بالهند إبان حرب السبع سنين ضد إنجلترا. فقد كانت هناك بوادر لمخطط ربط الاتصال بتلك المستعمرات عبر مينائي الإسكندرية والسويس من طرف المارشال دو كاستري De Castries . ومشاريع مماثلة تحمل نفس الطموح خطط لها مهندسو السياسة الاستعمارية في مكاتب وزارة الخارجية المكلفة بشؤون المستعمرات، وتم وقف الدفع بها إلى الأمام بسبب انشغال فرنسا بحروبها الأوربية، وعدم استعدادها حينئذ لخسارة حليفتها التقليدية الدولة العثمانية التي تربطها بها امتيازات تجارية ومصالح استراتيجية مشتركة. هذه المشاريع القديمة سرعان ما عادت لتحتل مكانة ضمن اهتمامات وزارة الخارجية، خاصة بعد تولي طاليران Talleyrand لشؤونها. وقد تزامن هذا الاهتمام مع رغبة حكومة المديرين Directoire في إبعاد نابليون عن مسرح السياسة الداخلية، وذلك بفتح آفاق جديدة لطموحاته - بعد نجاحه في بسط سيطرته على إيطاليا، وظهور بوادر تكشف عن ملامح شخصيته الديكتاتورية من خلال طبيعة إدارته للمناطق المحتلة حسب هواه - في اتجاه الشرق عقب تمكن قواته من إخضاع الجزر الإيونية îles Ioniennes (جنوب غرب اليونان). وهكذا فبعد احتلال إيطاليا وتحقيق انتصارات على النمسا كادت تؤدي إلى سقوط فيينا، استجاب نابليون لعقد معاهدة كومبو فورميو Campo-Formio بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٧٩٧، التي تنازل بموجبها إمبراطور النمسا عن بلجيكا وعن الأراضي المجاورة لنهر الراين (الألزاس واللورين) لصالح فرنسا، في مقابل حصوله على جمهورية البندقية. وقد استعادت فرنسا بموجب هذه المعاهدة حدودها

الطبيعية، لكنها فتحت المجال لمغامرات على مستوى السياسة الخارجية فيما عرف بالسياسة النابليونية. لقد ازدادت شعبية الجنرال الشاب وزادت معها تخوفات حكومة المديرين (الحكومة الفرنسية باريس) من طموحاته السياسية، فلم يكن بد من استمرار إبعاده عن محيط السياسة الداخلية. وكان السبيل الوحيد بعد توقيعه المعاهدة السابقة هو شغله بمقارعة عدوة فرنسا اللدودة إنجلترا، فتم تعيينه قائدا عاما للجيش الموجه لحربها. وبما عرف عنه من دهاء حربي، وحتى لا يقحم قواته في مغامرة مشكوك عواقبها عبر المانش، بالنظر إلى التباين بين القوات البحرية للغريمين، اقترح توجيه ضربة لإنجلترا ومصالحها بشرق المتوسط عبر احتلال مصر. وقد سارعت الحكومة الفرنسية بقبول مخطط مشروعه ذاك - الذي لم يكن يهم إلا مصالح ثلة من الساسة وأطماع البرجوازية التجارية التي افتقدت العديد من مصالحها في المستعمرات البعيدة، والتي كانت ترى في المخططات الجديدة بديلا عما افتقدته - تم الإعداد له في سرية تامة وفي وقت قياسي لم يتجاوز الشهرين (مارس وأبريل ١٧٩٨).

لقد تمت هذه المغامرة إذا في ظل ظرفية سياسية داخلية تجاذبت فيها مصالح قوى سياسية متعددة، التقى بعضها مع مصالح أصحاب المال من التجار وأصحاب السفن الذين تضرروا خلال مرحلتي الحروب الثورية (١٧٨٩-١٧٩٢) والحرب الفرنسية-الأوربية السابقة (١٧٩٣-١٧٩٥)، وفي غياب دعم شعبي كان لا يرى في مخطط من ذلك القبيل إلا إهدارا لقوة فرنسا، في وقت كانت فيه في أمس الحاجة إلى تقوية البناء الداخلي. فالتوسع الفرنسي في شرق المتوسط واحتلال مصر لم يكن في الحقيقة إلا جسا لنبض الدولة العثمانية، من خلال مسها في عمق امتدادها العربي في مصر وسوريا، ولم لا تهديد استنبول لو اقتضى الأمر ذلك، وكذا بقية الولايات العثمانية بشمال إفريقيا. وهو ما أكدته الحملة ومخلفاتها بعد ذلك. وكما عبر عن ذلك مؤلفو "تاريخ فرنسا الاستعماري" فإن الحملة الفرنسية على مصر تعتبر "أهم حدث ضمن التوجه السياسي الجديد لفرنسا بالمتوسط (توجه استعماري)، وهو نذير للحملة على الجزائر"[1] كيف تم ذلك ؟ وما هي انعكاسات

(1) J.Metyer et autres, Histoire de la France Coloniale des origines à 1914, A.Colin, 1991, p. 296.

انتصار فرنسا على الحلفاء الأوربيين في البر الأوربي. منذ توقيع معاهدة كمبو فورميو في أكتوبر ١٧٩٧. وكذا احتلالها للعديد من الجزر بالمتوسط قبل وبعد انطلاق الحملة على مصر (الجزر الإيونية ومالطا) على العلاقات الفرنسية- الجزائرية ؟ هل كانت الجزائر على علم بالمخطط الفرنسي العدواني على مصر ؟ ما هو موقف الدولة العثمانية وحليفتها إنجلترا من تلك الحملة ؟ هل استجابت حكومة الداي لدعوة السلطان العثماني في إعلان الحرب على فرنسا بتلقائية. أم تلكأت لاعتقادها في عمق الروابط والمصالح التي تجمعهما ؟ ألم تنجح الدبلوماسية الفرنسية في تجاوز التعثر الذي أصاب العلاقات مع الجزائر تحت وطأة الشعور بالعظمة بعد انتصاراتها الأخيرة على أعدائها. وكذا طمأنة حكومة الداي بعد ضم مالطا بالقضاء على أعدائها الألداء فرسان مالطا؟

بعد خروج فرنسا منتصرة في حربها ضد التحالف الأوربي سنة ١٧٩٥ لوحظ تغير في طريقة التعامل مع الجزائر. البلد الصديق الذي شجع المبادلات وقدم القروض لفرنسا في وقت نبذها وضيق عليها فيه الجميع. فالتاريخ. وخاصة الأرشيف الفرنسي. يحفظ شهادات على تلك الروح من التضامن مع شعب انتفض ضد قوى الشر المعادية للتحرر والمساواة والمبادئ الإنسانية التي جاءت بها الثورة الفرنسية. ويبدو من هذا المنطلق أن حكومة الداي حسن كانت مطلعة على مجريات الأحداث بالساحة الأوربية. وكانت تحس بالمعاناة أيما إحساس كما تؤكد ذلك إحدى رسائل الداي إلى وزير الخارجية فليبير بيشو Philibert Buchot بتاريخ ١٦ أكتوبر ١٧٩٤: "..إننا لا نرفض أي طلب من الجمهورية يقدم إلى إيالتنا خاصة إذا كان المرغوب في حدود طاقتنا. فالمواد الغذائية والخيول الجيدة هي من منتجاتنا الرئيسية. إن الصديق الحقيقي هو الذي يتعرف عليه عند الحاجة. هذه هي مبادئنا. إننا على استعداد لتزويدكم بالحبوب وبكل أنواع المواد الغذائية. وبكلمة واحدة. كل ما تطلبونه منا. لأننا نحس بأنه في حالة الحرب العامة هذه التي تواجهون فيها عددا من الدول الأوربية. يستحيل أنكم لا تجدون صعوبات في الحصول على احتياجاتكم المعاشية وغيرها من الأشياء الضرورية. ففي مثل هذه الظروف ينبغي إظهار نبل السجايا وعمق الأحاسيس..إن ممثلي القوى المعادية. الذين يلتحفون رداء الصداقة. لا يكفون

عن دعوتنا إلى استغلال مشاكلكم الحالية لنقض المعاهدات المقدسة التي تجمعنا بالأمة الفرنسية وإعلان الحرب عليها. لكننا نحن أصدقاءكم الأوفياء والقدامى وجيرانكم، نرفض سماع التلميحات المخادعة، ونطرد من حضرتنا كل من يسمح لنفسه بالتلفظ بها. وللمرة الثانية، ففي مثل هذه الظروف الصعبة التي تمرون بها يجدر بنا، أكثر من أي وقت مضى، مراعاة الواجبات التي يفرضها علينا حسن الجوار والصداقة القديمة. لقد وصلتنا أخبار انتصاراتكم على أعدائكم، والله يشهد مدى الفرح الذي شعرنا به.."[1]

لكن هذا الشعور بالفرح تجاه إنجازات القوات الفرنسية على حساب أعدائها والتعبير عنه بشكل صريح، لم يفتأ أن اصطدم بإشاعات - من طرف أعداء ذلك التقارب - مفادها أن حكومة الداي منحت الامتيازات التجارية للشركة الملكية الإفريقية La Compagnie Royale d'Afrique[2] بالجزائر خلال نفس المدة للإنجليز. وقد كذب الداي هذه الإشاعة في رسالته إلى حكومة المديرين التنفيذية للجمهورية الفرنسية بتاريخ ١٨ ماي ١٧٩٧[3] مذكرا بوفاء رعاياه بكري وبوشناق في خدمة مصلحة فرنسا. فخلال فترة الحرب، ومع ضرب القوات الأوربية حصارها على الشواطئ الفرنسية، توقف نشاط الشركة الفرنسية التي لم يكن باستطاعتها ممارسة نشاطها بشكل طبيعي، نتيجة مطاردة القراصنة الأوربيين للفرنسيين ولسفنهم التجارية. وطوال تلك المدة وبدعم من الداي وبتسهيلات من باي قسنطينة منحت شركة بكري-بوشناق اليهودية المرتبطة بمصالح مشتركة معهما حق استغلال

(1) Plantet, op. cit., t.2, pp.444-445

(٢) تأسست هذه الشركة الفرنسية بموجب ظهير ملكي بتاريخ ٢٢ فبراير ١٧٤١ جاء فيه: لقد أردنا أن ننمي تجارتنا في إفريقيا، ونوفر الرخاء لرعايانا فقررنا أن نعطي لأصحاب الشركة كل الوسائل التي تساعدهم على تطوير العمليات التجارية، وذلك إما بأن نقدم لهم رؤوس الأموال الضرورية أو غيرها من الهبات التي عزمنا على توفيرها لهم، أو بأن نجعلهم يحظون بالحماية ويتمتعون بمختلف الصلاحيات والامتيازات . Archives Nationale de Paris, AE, B2/322, " L'Edit portant création de la Compagnie Royale d'Afrique / ."استمرت هذه الشركة في نشاطها التجاري على السواحل الشرقية للجزائر إلى تاريخ حلها سنة ١٧٩٤ على اعتبار أنها من مؤسسات النظام القديم وتم إنشاء أخرى بديلة لها لنفس الأهداف تحمل اسم الوكالة الإفريقية L'Agence d'Afrique.

(3) Ibid, pp.462-463

نفس الامتياز الممنوح للشركة الفرنسية[1] وبحكم حياد الجزائر في الصراع الأوربي لعبت الشركة المذكورة دورا في ضمان وصول شحنات القمح وغيره من رغبات السوق وإدارة الجمهورية الفرنسية مع كامل التسهيلات في الأداء. وقد تسبب تراكم الديون الناجمة عن تلك الشحنات بالإضافة إلى عدم تسوية مشكل القروض في توتر العلاقات الثنائية منذ نهاية الحرب الفرنسية مع الحلف الأوربي وحتى سنة ١٨٣٠ . وتبين بعد خروج فرنسا من محنتها. أنها لم تكن مستعدة لتفي بالتزاماتها تجاه حليفتها في الشدة. أكثر من هذا أصبح جنون العظمة الفرنسية بعد تحقيقها للانتصارات التي سبق الإشارة إليها لا يستثني أصدقاء الأمس القريب. وقد أكثر المسؤولون الفرنسيون في رسائلهم الموجهة إلى الداي حسن في التذكير بانتصاراتهم وإنجازاتهم[2] وانعكس ذلك سلبا على تصرفات القنصل جون بون سانت أندري Jean Bon Saint-André (1796-1798)، من خلال إخلاله بآداب التعامل الرسمي التي جرت العادة أن يلتزم بها ممثلو السلطة الفرنسية في حضرة مجلس الداي. شأنهم في ذلك شأن كل القناصل وممثلي الدول الأجنبية المعتمدين بالجزائر. وقد ذكر الداي في رسالته المؤرخة في ٢٢ أكتوبر ١٧٩٧ من بين المؤاخذات على هذا الأخير. تشويشه على علاقاته برعاياه وبالجنود والتجار، وسعيه في التفاوض والتحدث معه في كل الشؤون الرسمية والخاصة بعنف وحماقة، وادعاؤه المستمر بأنه قادر على زرع الشقاق بين الداي والحكومة الفرنسية، هذا فضلا عن تلفيقه الإشاعات وتفوهه بالكلام الجارح في حق الداي والمسؤولين في أوساط الأوربيين وغيرهم. وطلبه لمجموعة من الخدمات باسم الحكومة الفرنسية وتبين في الأخير أنها كانت لمصلحته

---

(١) كوهين بكري ونفطالي بوشناق من يهود مدينة ليفورن الإيطالية الذين هاجروا باتجاه الجزائر بهدف التجارة واستقروا بها خلال القرن ١٨، وقد حققا نجاحا باهرا ونجحا في ربط مصالحهما بجماعة الأتراك الحاكمة وتأسيس شركة هيمنت على تجارة الجزائر الخارجية في أواخر القرن ١٨ وبداية القرن ١٩ . وقد لعبت هذه الشركة اليهودية دورا فعالا في استمرارية المصالح الفرنسية بالجزائر، بفضل الخدمات التي قدمتها لفرنسا خلال ظرفية الحرب الأهلية والحرب الأوربية. لمزيد من المعلومات عن هذه الشركة يراجع بحثنا الموسوم. "يهود ليفورنيون بالجزائر في أواخر العهد العثماني: عائلتا بكري وبوشناق نموذجا". العثمانيون والعالم المتوسطي (مقاربات جديدة)، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ١٠٩، منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط، ط١، ٢٠٠٣، ص.ص١٠٣-٣٢٣ .

(٢) رسائل ٦ فبراير و٢٨ يوليو ١٧٩٧/ Plantet. op. cit., pp.460-461, p.464

الشخصية[1].

لقد استجابت الإدارة الفرنسية لطلب الداي في استبدال هذا القنصل بتعيين آخر مكانه هو دومينيك ماري مولطيدو Dominique-Marie Moltedo (1798-1800)، دون إبداء أدنى تفاعل مع اتهاماته. أكثر من ذلك ذكرت رسالة المديرين إلى الداي تعيينه في مهمة أخرى، تبين أنها توليه منصب القنصل العام لفرنسا بمدينة إزمير العثمانية. وبهذا يظهر أن تصرفات الرجل لم تكن شخصية بل تتفق والتصور العام للتعامل الذي ينبغي اعتماده مع حكام الولايات العثمانية. لكن مع تأكد خروج مشروع الحملة لحيز التنفيذ، كان لزاما أخذ كامل الحيطة من انعكاسات مثل تلك الممارسات، وبالتالي محاولة تهدئة الخواطر إلى حين تحقيق المراد، وإلا (لو لم يكن ذلك المشروع واردا) لكان في اعتقادنا التصعيد وتعميق الأزمة هو الأصل، ولكان ما حدث مع القنصل جون بون سانت أندري، بالإضافة إلى مشاكل ثانوية وعادية، القشة التي قصمت ظهر البعير خلال سنة ١٧٩٨[2] أي ثلاثين سنة قبل حادث المروحة الذي لم يكن إلا قناعا لأسباب أخرى والذي اعتبر سببا للأزمة التي اندلعت بين البلدين ابتداء من ١٨٢٧ وانتهت بانطلاق الغزو العسكري ثم الاحتلال الشامل ليس للجزائر فحسب، ولكن لبلاد المغارب الأخرى بعد ذلك[3].

لقد كان واضحا لمهندسي الحملة الفرنسية على مصر وضباطها وعلى رأسهم الجنرال بونابرت، بعد أن أفلت أسطولهم بأعجوبة من اصطدام مباغت مع الأسطول

(1) .Ibid, pp.470-471

(٢) نقول هذا لأنه في سنة ١٧٩٨ اجتمعت نفس الظروف التي أدت إلى الحملة الفرنسية على الجزائر سنة ١٨٣٠. فبالإضافة إلى استجماع فرنسا لقواها ورغبتها في ضم أجزاء من الضفة الثانية للمتوسط ضمن مشروعها العام في الهيمنة على المتوسط على حساب الإنجليز، هناك تراكم الديون المستحقة على فرنسا تجاه الجزائر والتي كانت ترى أنه من منطلق قوتها وعظمتها بعد إنجازاتها الترابية بأوربا وفي بعض جزر المتوسط، لا يمكن أن تستجيب لديون بلد ضعيف تهيمن فرنسا بحكم معاهداتها التاريخية وخاصة الأخيرة منها على حقوق وجود واستغلال تجاريين به.

(٣) عالجنا أسباب الغزو الفرنسي للجزائر، المباشرة منها وغير المباشرة، في بحث بعنوان: "احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠: الأبعاد والأصداء" نشر ضمن كتاب: تحية تقدير متوسطية لأندري ريمون ، الجزء الثاني، جمع وتقديم عبد الجليل التميمي، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات بتونس،، أغسطس ٢٠٠٤، ص. ١٥-٤٣ .

الإنجليزي بقيادة الأميرال نلسون Nelson وبعد احتلال مالطا كنقطة استراتيجية وقبل نجاح إنزالهم بالإسكندرية، مدى أهمية الضفة الجنوبية للمتوسط في مشروع الاحتلال المنتظر. ولضمان أمن الحملة العسكرية من أي عرقلة بحرية، وضمان حياد البلاد التابعة للدولة العثمانية ولو اسميا. كما هو الحال بالنسبة للولايات الثلاث الجزائر وتونس وليبيا. وأخيرا ضمان تموين الأسطول والحامية الفرنسية بمالطا. بادرت السلطات الفرنسية إلى ربط جسور مع هذه القوى المغاربية لتحقق ولو بعض من تلك الأهداف. فبمجرد وصول قوات نابليون إلى جزيرة مالطا تمت مكاتبة حكام تلك البلاد، خوفا من قيام قراصنتها بأي نشاط قد يعيق تحرك الأسطول الفرنسي ويشغله عن هدفه. فكثفت الاتصالات بباشا طرابلس من أجل توفير المواد الغذائية والحاجيات الأخرى الضرورية للحامية الفرنسية بتلك الجزيرة. وبنفس المناسبة تلقى قنصل فرنسا العام مولطيدو بلاغا[١] من المجلس العام المكلف بشؤون الجمهورية الفرنسية بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٧٩٨، ويحمل توقيع وزير الخارجية طاليران Tallyrand، أمر بتقديمه إلى الداي مصطفى، الذي اعتلى كرسي الدايليكية بعد وفاة الداي حسن في ١٤ مايو ١٧٩٨، وتضمن إخباره باحتلال مالطا من طرف جيوش بونابرت في الشهر الماضي. وبأهمية ذلك الانتصار وآثاره الإيجابية على نيابة الجزائر التي لن تواجه بعد هذا التاريخ معارضة فرسان مالطا المعادين للبحرية الجزائرية من منطلق ديني، خصوصا وأن هؤلاء وسكان الجزيرة المذكورة أصبحوا رعايا فرنسيين تربطهم نفس علاقات الصداقة مع الجزائريين. أيضا تخبر الحكومة الفرنسية بأن الجنرال بونابرت سارع منذ دخوله إلى مالطا بإطلاق سراح كل الأسرى المسلمين الذين كانوا محتجزين بها، وحسب تعليق بلانطي الذي أورد نفس البلاغ لكن بتوقيع مولطيدو فإن عدد هؤلاء الأرقاء بلغ ألفي رجل[٢]. وأوضح نفس البيان بأن الحكومة الفرنسية تنتظر نفس المعاملة الإنسانية، بحيث يبادر الداي بإطلاق سراح كل الأسرى المالطيين والفرنسيين وغيرهم من

(1) Note ministérielle présentée au Dey, datée du 17 décembre 1798, Archives d Outr-Mer, Aix-En-Provence, 1 A 97- 1A 104.

(2) Plantet, op. cit., t.2, pp.486-487

الإيطاليين أو من جزر أخرى المحتجزين بمدينة ونيابة الجزائر. كما يتم بنفس المناسبة تعليق حالة الحرب مع المالطيين، ومنع هجوم القراصنة الجزائريين على سفنهم التي تحمل العلم الفرنسي. وأخيرا تم التعبير عن الأمل في أن يجد هذا البلاغ رد فعل إيجابي من طرف الداي، بحيث يتمتع المالطيون بنفس حقوق الإقامة والامتيازات التي تخولها المعاهدات الموقعة بين الجانبين للرعايا الفرنسيين. وهكذا يلاحظ أن الطرف الفرنسي لم يكتف بإبلاغ الجانب الجزائري بانتصار مالطا، وبآثاره الإيجابية على العلاقات الثنائية فحسب، لكنه- وهذا هو المهم - استغل نفس المناسبة للتذكير بمعاهدات السلم التي تجمع البلدين، والتي لم تكن آخرها إلا معاهدة السلم المئوي الثانية في سنة ١٧٩٠[1]. طبعا هذه الإشارة لها أهميتها كما أكدت على ذلك تطورات الحملة فيما بعد، إذ لم تتجاوب حكومة الجزائر بتلقائية أول الأمر - لهذا الاعتبار وربما لغيره أيضا - مع دعوة السلطان العثماني وحليفته إنجلترا بإعلان الحرب على فرنسا بعد أن انكشف مشروع نابليون الاستعماري.

٣- اضطراب العلاقات الفرنسية-الجزائرية منذ احتلال نابليون لمصر:

تعتبر حملة نابليون على مصر منعطفا خطيرا في تاريخ العلاقات بين فرنسا والجزائر، وكذا بينها وبين بقية بلدان المغرب العربي الأخرى، بما في ذلك المغرب الذي لم يكن خاضعا للدولة العثمانية. فإذا كانت مصر قد وقعت تحت الاحتلال المباشر لجيوش بونابرت، فإن بلاد المغارب لم تسلم من تأثير صراعه مع إنجلترا من أجل الهيمنة على المتوسط واحتلال مواقع استراتيجية به، وكذا اهتماماته الأمنية وتطلعاته التوسعية. ومع أن مشاريع نابليون العدوانية تجاه الجزائر مثلا، لم تتجاوز التهديد بالكلام من خلال مراسلاته.ومبعوثيه وتجميع المعلومات الضرورية لأي إنزال مستقبلي ممكن - خاصة بعد أن استجابت حكومة الداي تحت ضغوط الباب

---

(١) تعتبر هذه المعاهدة هي الثانية من نوعها، وهي تجديد للأولى التي وقعها الطرفان سنة ١٦٩٠، والتي بموجبها ضمنت فرنسا دخول الجزائر في سلم طويلة معها يتجاوز بموجبها كل ما من شأنه تعكير صفو العلاقات الثنائية بينهما، كما أنها تضمن حياد الجزائر أمام الصراع والمنافسة القوية بين فرنسا والقوى الأوربية الأخرى خاصة بريطانيا وهولندا في حوض المتوسط، وحفاظ الجزائر على مصالح فرنسا التجارية وأمن مراكزها بالساحل وفق الامتيازات التاريخية الممنوحة لها من الباب العالي والبلاد التابعة له.

العالي وحليفته إنجلترا بإعلان الحرب على فرنسا - فإن تجاذب المصالح بين القوتين الاستعماريتين أبعد شبح تحقيق أيا من تلك المشاريع. هذا مع العلم أن كل الدلائل تثبت بأن الجنرال كان عازما، بعد تأكد فشل حملته على مصر، على تعويض ذلك الفشل بشرق المتوسط بمشروع بديل في غرب نفس الحوض، خاصة بعد أن تمكن نابليون من ضم إسبانيا سنة ١٨٠٧ إلى ممتلكاته بشمال شرق فرنسا وإيطاليا. ومع أن مخططات مشاريعه تلك لم تر النور في ظل الظرفية التي سبق الإشارة إليها، إلا أنها تعتبر أساسا ومنطلقا لبلورة مشاريع استعمارية فرنسية أكثر واقعية وخطورة. ما هي أهم الأطوار التي قطعتها العلاقات الفرنسية-الجزائرية في ظل ما عرف بالسياسة النابليونية التي انبنت على جنون العظمة والعدوانية؟

أولا- الطور الأول من سنة ١٧٩٨ إلى سنة ١٨٠١:

تميزت السنوات الثلاث من عمر الحملة الفرنسية على مصر بتأثير سلبي على العلاقات الثنائية الفرنسية-الجزائرية، وعلى صورة فرنسا في المحيط العثماني بشكل خاص والإسلامي بشكل عام. فلم تعد فرنسا تلك الدولة التي حظيت بصداقة عريقة مع الدولة العثمانية ترجع إلى القرن السادس عشر الميلادي، وتمثلت في الحلف الذي جمع فرانسوا الأول François 1er وسليمان القانوني ضد عدوتهما المشتركة دولة الهابسبورغ Habsbourgues في البر الأوربي وفي المتوسط، وانعكست في الامتيازات التجارية الواسعة التي حازها الفرنسيون، ليس في مركز الدولة وموانئ شبه جزيرة الأناضول فحسب ولكن على امتداد السواحل التابعة للدولة العثمانية، بل أصبحت دولة عدوانية وذات أطماع استعمارية تجاه أقرب حلفائها إليها. وبالرغم من تحركاتها العدوانية، ظل الجانب الجزائري وفيا لمضمون معاهدات السلم وللحق الفرنسي في الامتياز عن بقية الأمم الأوربية فيما يتعلق بالاستيطان والاستغلال التجاري بسواحلها. هذا الوفاء، إن صح تسميته كذلك والذي يعود إلى الصداقة التي سبق أن عبر عنها حكام الجزائر بشكل عملي تضامني إبان حروب الثورة والحرب الأوربية-الفرنسية، كان من وراء عدم تسرع الجزائر في إبداء تجاوبها السريع مع دعوة الباب العالي وحليفته إنجلترا في نبذ علاقاتها مع فرنسا وإعلان

الحرب عليها. فهل حافظت الجزائر على موقفها؟ ألم تر في احتلال مصر بوادر سوء بالنسبة لها ولباقي بلاد المغارب الأخرى؟ خاصة وأنها اكتوت مرارا بنار الغدر الفرنسي. وهل تم إعلان الحرب والدخول فيها بشكل فعلي؟

أ- الإعلان الأول للحرب على فرنسا في ٢١ دجنبر١٧٩٨:

لم تترك الدبلوماسية العثمانية بدعم وإيعاز من إنجلترا المجال لإدارة الداي للتنصل من التزاماتها الدينية والسياسية، ولا حتى المجال للدعاية الفرنسية في التعتيم عن المشروع الاستعماري الخطير الذي استهدف مصر، والذي يشكل سابقة بالنسبة لتمزيق أراضي الدولة العثمانية ضمن سباق القوى الاستعمارية الأوربية واهتماماتها فيما كان يسمى بالمسألة الشرقية. وهو ذات المشروع الذي لم تكن تخفى خلفياته وأبعاده بحوض المتوسط والبلاد المطلة عليه، كما كشفت عن ذلك حملات نابليون قبل وبعد احتلال مصر (احتلال إيطاليا والعديد من الجزر المتوسطية وإسبانيا ثم تهديده المتكرر بإرسال حملات على الجزائر). وهكذا يبدو أن السلطان العثماني وإنجلترا وإن لم ينجحا في إقحام الجزائر في الصراع الدائر مع فرنسا بشكل مباشر وعملي. كالمساهمة في المجهود الحربي بمطاردة ومضايقة السفن الفرنسية سواء حربية كانت أو تجارية، فإنهما تمكنا من إكراه الداي على إعلان الحرب ضد فرنسا في ٢١ ديسمبر ١٧٩٨، وهو ما يشكل في حد ذاته انتصارا على الدبلوماسية الفرنسية التي أبلغت الداي قبل أربعة أيام فقط من هذا التاريخ بإنجازها بمالطا الذي مضى عليه شهر قبل ذلك التاريخ.

لكن بالرغم من هذا الانتصار الظاهر للدبلوماسية العثمانية والإنجليزية، فإنه لا يمكن الادعاء بأن حكام الجزائر، وخاصة الداي مصطفى، كان متجاوبا بما يكفي من الحماس مع مأساة مصر. ما يؤكد هذا الفتور هو طبيعة الإجراءات التي تم اتخاذها ضد فرنسا ومصالحها بالجزائر، وكذا الاعتذار المتكرر الذي عبر عنه الداي في مناسبات عدة، من أنه كان مكرها في إعلانه الحرب على فرنسا وبأن رغبته هي غير ذلك. وقد نتساءل عن السبب في هذه الازدواجية: هل مردها التخوف من انعكاس إعلان الحرب على المصالح الجزائرية العالقة، كمشكل الديون وثمن المواد

الزراعية التي زودت بها فرنسا إبان أزماتها السابقة والتي عرفت تعثرا في تسديدها؟ أم أنه إمعان من جانب حكومة الداي في التأكيد على التبعية الاسمية للسلطان العثماني، وعدم ربط مستقبل الجزائر بما آلت إليه أجزاء من الدولة العثمانية بالشرق في مصر والشام من غزو عسكري فرنسي؟ أم أنه أيضا تأكيد على رغبة خاصة في الحفاظ على الالتزامات والعهود التاريخية المتمثلة في الحياد المعلن عنه في كل المعاهدات المبرمة بين الجانبين منذ أوائل القرن السابع عشر ؟ أم فقط هو استمرار لموقف جزائري سبق التعبير عنه بشكل عملي، تجلى في الميل ومساندة الطرف الفرنسي كلما تعلق الأمر بمنافسة قوى استعمارية أخرى ؟ فالهدف من المنظور الجزائري لكل تلك القوى واحد، فلن يتم إبعاد خطر إحداها إلا ليكون لصالح أخرى. هذه الحقيقة تأكدت بشكل واضح إبان حرب الحلف الأوربي لفرنسا (١٧٩٣-١٧٩٥) وبعد أن انكشفت أطماع نابليون (١٨٠١-١٨٠٢) وحين انكسرت شوكته بعد ١٨٠٥ إلى حين زوال حكمه.

لقد اقتصر إعلان الحرب من طرف الجزائر على ما يلي:

-إيداع القنصل والموظفين التابعين له وبعض الرعايا الفرنسيين بمن فيهم القس الفرنسي ووكلاء المؤسسات التجارية في السجن لمدة شهر ونصف.

-كما تم إعطاء أوامر لباي (حاكم) قسنطينة بتمكين الأهالي من تدمير المراكز التجارية الفرنسية بالشرق الجزائري، والاعتداء على من تبقى بها من الرعايا الفرنسيين.

وفي مقابل هذه الإجراءات، بادرت حكومة الإدارة الفرنسية باحتجاز بعض الرعايا الجزائريين الموجودين بفرنسا مسلمين ويهود وكذا ممتلكاتهم. فتم سجن يعقوب كوهين بكري ووكيله أبو كاهية بباريس اللذين كانا يتابعان مصالح الشركة اليهودية بفرنسا.

لم يستمر مشكل احتجاز الفرنسيين إلا بضعة أسابيع حتى تم حله بتدخل من اليهوديين بكري وبوشناق، اللذين ارتبطت أنشطتهما المدعومة من طرف الداي بفرنسا خلال المدة السابقة، وكانت لهما فروع لشركتهما التجارية بباريس ومرسيليا

وغيرها من المدن(١). بحيث أن تحركهما يدخل ضمن سياسية درء المفاسد. كما كان لقنصل هولندا ذو الأصل الفرنسي بيير فريسيني Pierre Fraissinet، وهو من كبار التجار وينتمي لعائلة من كبار التجار المرسيليين التي نشطت بين الجزائر ومرسيليا في الفترة من ١٧٩١ إلى ١٨٢٥. دور هو الآخر في حل ذات المشكل. فهل كان لحل هذا الأزمة العابرة تأثير على مستقبل العلاقات الثنائية، وعودة الروابط إلى سالف عهدها من التوافق خدمة لمصالح الجانبين؟

ب- هدنة سرية فرنسية-جزائرية في ١٩ يوليو ١٨٠٠:

لقد كان حادث إعلان الحرب والإجراءات المحدودة التي اتخذت من كلا الجانبين ضد بعضهما البعض، والحل السريع للمشكل دليل توافق ضمني بين الجانبين بخصوص المشاكل المطروحة على المستوى الدولي، والرغبة القوية في ألا يؤثر ذلك على مستقبل العلاقات الثنائية. وقد أرسل نابليون رسالة إلى الداي مصطفى بتاريخ ٢٤ مايو ١٨٠٠، أشار فيها بأن حالة الحرب المعلنة بين البلدين لا تجد جذورا لها في ماضي علاقات البلدين، كما أنها لا تتفق والمصالح المشتركة لرعايا الطرفين. ثم ذكر بأنه سيعطي الأوامر وكامل الصلاحيات لشارل فرانسوا ديبوا تانفيل-Charles François Dubois-Thainville (الذي تولى منصب قنصل فرنسا بالجزائر من١٨٠٠ إلى ١٨١٤) للعمل على إعادة العلاقات السياسية والتجارية بين الجانبين إلى الحالة التي كانت عليها قبل قطع العلاقات. وذكر بأنه على ثقة بأن هذا الأخير سيستقبل من طرف الداي بنفس الطريقة الحسنة التي ينتظر أن يستقبل هو بدوره المبعوث الجزائري المكلف بنفس المهمة(٢). وهكذا يظهر بأن بونابرت كان حكيما في استدراجه للجزائر إلى فك سياسة العزلة المضروبة عليه في الحوض الغربي من المتوسط، وجرها إلى الدوران في فلك سياسته، وذلك حينما غض الطرف عن تبعية الداي للباب العالي وغريمته إنجلترا من خلال ما حصل من قطيعة، بحيث عاد فأعطى

(١٨) للاطلاع على أهمية مصالح بكري وبوشناق بفرنسا راجع بحثنا المنشور: "يهود ليفورنيون بالجزائر في أواخر العهد العثماني: عائلتا بكري وبوشناق نموذجا" والمشار إليه سابقا.

(19) Plantet, op. cit., t.2, pp.488-489.

الداي مكانة الحاكم ذي السيادة المطلقة على سياسة بلده الخارجية، وذلك من خلال إبداء استعداده لاستقبال سفير الداي إليه. كما تبين أنه كان على استعداد تام لاستبعاد كل ما من شأنه أن يصدر عن الجزائر من موقف قد يضر بمصالح فرنسا، خاصة وأنه يعرف مدى أهمية النشاط القرصاني لهذا البلد فيما لو استمر في تجاوبه مع رغبات كل من الباب العالي وإنجلترا ومصالحهما بالمتوسط. ولأجل هذا بادر بإرسال ديبوا تانفيل، المبعوث الخاص له، خفية إلى الجزائر عن طريق برشلونة تحت اسم ديبوسك .Dubosc وبالفعل تمكن هذا الأخير بفضل إخفاء شخصيته من الإفلات من قبضة بحارة فرقاطتين إنجليزيتين قادتا السفينة التي كان يقلها إلى ماهون، حيث خضع لتحقيق من جانب الإدارة الإنجليزية بها، ومن هناك انتقل إلى الجزائر. بعد مفاوضات مع الداي مصطفى، تمكن من الوصول إلى اتفاق تلتزم فيه الحكومة الفرنسية بدفع ترضية تبلغ ٢٠٠٠٠٠ قرش إسباني. تكفل بعض اليهود بضمان أدائها من خلال تقديم تسبيق أولي. أما النتيجة النهائية لهذا التحرك الدبلوماسي الفرنسي الناجح، فتجلت في توصل الجانبين إلى إعلان هدنة غير محدودة. اعتقد مهندسو السياسة الخارجية الفرنسية أنها ستكون ذات تأثير سحري على مستقبل العلاقات الثنائية. فما هو مضمون اتفاق هذه الهدنة ؟ وإلى أي حد تم الالتزام ببنوده في ظل استمرار احتلال فرنسا لمصر، وتأكد تراجع هيمنتها على مياه المتوسط لحساب إنجلترا منذ تحطيم الأسطول الفرنسي بأبو قير من طرف الأميرال نيلسون في أغسطس سنة١٧٩٨ ؟

تضمنت هذه الهدنة خمسة بنود تؤكد على رغبة الطرفين في العيش بسلام، وطي صفحة الحرب المعلنة بينهما. وقد جاءت عباراتها معبرة عن عزم أكيد في تحقيق هذا المطلوب. فتم التأكيد على وقف كل الأعمال العدائية منذ تاريخ توقيع الهدنة. ووعد الطرفان بالتزامهما احترام بحارة البلدين لعلم بعضهما البعض. أكثر من هذا تم الاتفاق بينهما باسترداد أي مركب مع بحارته وشحنته يتم الاستيلاء عليه بعد آخر يوليو من تاريخ توقيع هذه الهدنة. كما اتفق الجانبان على إمكان استقبال سفن بعضهما بموانئ البلدين في انتظار إبرام معاهدة سلم نهائية. أما في حالة حدوث إكراه ما يستهدف تعليق العمل بهذه الهدنة، فإن الجانبين يتعهدان بإشعار بعضهما

البعض بإمكان استئناف العمليات العسكرية بثلاثين يوم قبل ذلك[1] هل استمر سريان مفعول هذه الهدنة السرية برغم استمرار حالة الحرب مع الباب العالي وحليفته إنجلترا؟ أم أن أمرها سرعان ما انكشف، فعاد الحليفان لممارسة ضغوطهما على حكومة الداي، لقطع الطريق على تقديم أي عون مادي أو لوجستيكي لفلول الجيش والأسطول الفرنسيين، اللذين توالت هزائمهما أمام ضربات الأميرال نيلسون في أبو قير وضربات الجيش العثماني بالشام. فكأن بريطانيا كانت خائفة من أن يتكرر وقوف الجزائر إلى جانب فرنسا كما حدث في حرب الحلف الأوربي لها بين ١٧٩٣ و١٧٩٥ .

ثانيا - الطور الثاني من ١٨٠١ إلى ١٨٠٢:

لم يكن هناك أسهل على إنجلترا من اكتشاف الهدنة التي توصل إليها الطرفان الفرنسي والجزائري. فكل الدلائل كانت تعبر عن مصالحتهما. خاصة مع إطلاق سراح الدبلوماسيين والرعايا الفرنسيين المحتجزين بالجزائر. وقد كان رد إنجلترا عنيفا ضد هذه الهدنة، بحيث سارع قائد قواتها بالمتوسط، اللورد كيت ببعث رسالة حادة اللهجة إلى الداي عبر له فيها عن اندهاشه الشديد من استقباله لمبعوث فرنسا الدولة التي تناصب المسلمين العداء. ولم يفته التذكير بالطريقة الملتوية التي وصل بواسطتها نفس المبعوث إلى الجزائر، وهو ما لا ترضاه إنجلترا لمبعوثيها الرسميين، وطالب بإلغاء هذه الهدنة. وقد رد الداي على مبعوث كيت بأنه سيد في بلاده، وبأنه يحكم في الجزائر تماما كما هو شأن جورج الثالث في إنجلترا. لقد أثار هذا الموقف حفيظة إنجلترا التي اضطرت لإرسال إنذار آخر إلى الداي مصطفى أسابيع قليلة بعد الرسالة السابقة. وقد تراوح أسلوب هذه الرسالة الأخيرة بين الترغيب والترهيب، الأمر الذي جعل السلطات الجزائرية تقوم باستعدادات عسكرية دفاعية

---

(١) جمال قنان: معاهدات الجزائر مع فرنسا (١٦١٩-١٨٣٠)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٧، ص.ص. ٣٣٩-٣٤٠ . أهمية هذا الكتاب تكمن في أن صاحبه جمع فيه - من خلال الأرشيف الفرنسي - أهم معاهدات السلم والتجارة التي تمت بين فرنسا والجزائر منذ أول معاهدة محفوظة تمت سنة ١٦١٩ وحتى معاهدة الاستسلام التي تم على إثرها احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠، وتكمن أهمية هذه المعاهدات في كونها أعطت فرنسا امتيازات خدمت مصالحها على التراب الجزائري ودعمتها قانونيا.

خوفا من حملة بحرية مباغتة.

لم تكتف إنجلترا بمحاولاتها الخاصة لزعزعة التقارب الفرنسي-الجزائري، بل لجأت إلى استعمال التأثير الأدبي للسلطان العثماني، بالرغم من معرفتها بخفة وطأة ذلك التأثير. خاصة بعد حملة نابليون على مصر التي أثبتت عجز العثمانيين لوحدهم في تحقيق انتصار على الفرنسيين. ولتفادي لامبالاة الداي أوعزت إلى الباب العالي باتخاذ إجراءات قمعية ترغم أتراك الجزائر على الرضوخ للأوامر السلطانية، وذلك بإعلان الحرب من جديد على فرنسا. وقد جاء في الرسالة التي بعثها الباب العالي إلى الداي حسن ما يلي: "هل تصادقون الفرنسيين أعداء المسلمين، وتعادون الإنجليز حلفاء السلطان ؟ إنكم تقدمون المؤن للفرنسيين، بل عقدتم معهم معاهدة، فإذا لم يأتنا الخبر بأنكم قطعتم كل صلة بالفرنسيين وألغيتم المعاهدة خلال ستين يوما، فلن يسمح السلطان بخروج أفواج جديدة من العسكر (أي المجندون الجدد من الإنكشارية) وسوف تحجز السفن الجزائرية في موانئ السلطنة، وإذا كنتم تبغون الجهاد فثم سفن فرنسية تقف رابضة في جزر الأرخبيل كما أن هناك سفنا أخرى تقف محملة بالغنائم أمام الإسكندرية"[١]. وبالفعل فقد صادف هذه التطورات الأخيرة وجود وكيل الخرج (وزير الخارجية) مع وفد من الكبراء والتجار باستنبول في مهمة للتجنيد، فسارعت إلى احتجاز الجميع، وهو ما عزز موقف التيار المعارض لأي تقارب مع فرنسا بعد أن أبانت على عدائها للبلاد الإسلامية ودخولها في حروب معها في مصر والشام. هذا الارتجاج الأخير في العلاقات مع السلطات العثمانية لم يكن بالإمكان استيعابه من دون إعلان الحرب للمرة الثانية على فرنسا، خاصة إذا علمنا بأن أفراد الإنكشارية الذين يعدون الساهرين على استمرار حكم الأتراك بالجزائر كانوا يجندون وإلى حدود ١٨٣٠ بأراضي الأناضول.

أ- الإعلان الثاني للحرب ضد فرنسا في ٢٤ يناير ١٨٠١:

بإعلان الحرب من جديد على فرنسا كانت الدبلوماسية الإنجليزية قد حققت

(١) صلاح العقاد، المغرب العربي: دراسة في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٠، ص٤٥ .

انتصارا آخر على الدبلوماسية الفرنسية، مواز تماما للهزائم التي تلقاها الأسطول الفرنسي بالمتوسط. وأثبتت تأثيرها المتزايد بل وتوجيهها للدبلوماسية العثمانية في خدمة مصالحها وهيمنتها على مياه هذا الأخير. طبعا هذا الانتصار لم يرق لدرجة دخول الجزائر في حرب مباشرة مع فرنسا، لعلم حكام الجزائر أنهم إلى جانب الباب العالي يفتقدون الإمكانات العسكرية والأسطول الحربي القادر بالفعل على تأكيد مكانتهم في مصاف الدول الأوربية القوية. فقد اقتصر قطع العلاقات وإعلان الحرب على تجميد الروابط الدبلوماسية، والسماح للقنصل الفرنسي بمغادرة الجزائر، وهو ما اعتبر التزاما حرفيا ببنود معاهدة الهدنة السابقة.

ومما يؤكد على توجه سياسة حكومة الداي في خط معارض تماما لخط سياسة الباب العالي وحليفته إنجلترا، تلك الرسالة السرية التي بعثها الداي مصطفى إلى نابليون، القنصل الأول للجمهورية الفرنسة، بتاريخ ١٣ أبريل ١٨٠١، أي في عز حالة الحرب المعلنة بين البلدين، يوضح فيها الظروف التي أدت إلى قطع العلاقات. فقد بين أنه لم يكن بالإمكان تجنب هذا الإجراء الصعب، بالنظر إلى الضغوط التي مورست على الإيالة، وبسبب الرسالة التي وردت من السلطان العثماني والتي جاء فيها ما يلي: "إن الأمة الفرنسية نقضت المعاهدات التي تجمعنا بها، وارتكبت في حقنا أعمالا عدوانية وخيانة لا تعد، فأصبحت عدوة لدولتنا. أنتم قائد الجزائر ينبغي عليكم التصرف بعداء ضد هذه الأمة، من خلال طرد الفرنسيين وقنصلهم، والمساهمة في دفع اعتدائها"(١). وعبر بعد ذلك عن عدم شكه في أن هذا الوضع وسوء التفاهم سينجليان في أقرب الآجال، وبأن السلم ستكون دائمة وهو ما سيعيد الفرحة للقلوب. وبعد بسط الحديث عن انكشاف سر الهدنة الأخيرة ووصول خبرها إلى الباب العالي ومدى الشعور بالغضب الذي عبر عنه السلطان العثماني من جراء ذلك حيث كان يتساءل: "لماذا تتصرفوا بطريقة معاكسة لأوامرنا ؟"(٢)، تحدث عن توصله بخبر مفاده أن الدولة العثمانية عازمة على تأديب الجزائر بسبب عصيانها

(١) ٤٩٢-٤٩٤ . p.. Plantet, op.cit., t. ٢

(2) Ibid, p.492-494 .

وعدم تطبيق الأوامر الموجهة إليها بالحرف. وأكد بعد ذلك أنه سواء كان الخبر بإرسال سفن وقوات عثمانية لهذا الغرض حقيقة أو مجرد إشاعة، فإنه يتمنى أن تفصح فرنسا عن متانة صداقتها للجزائر من خلال مواجهتها لتلك السفن والقوات "بالتعرض لها واحتجازها أو إحراقها"[1]. وإنه بإبعاد هذا الخطر سيتضح عمق الروابط التي تجمع البلدين. ولم يفته في النهاية التأكيد على سرية مضمون هذه الرسالة، وطلب إخفائها حتى على بعض المقربين من نابليون، لما قد ينشأ عن ذلك من آثار سلبية فيما لو وصل الخبر إلى الباب العالي[2]. ما هي انعكاسات مضمون هذه الرسالة على مستقبل العلاقات الثنائية الفرنسية-الجزائرية؟

لقد كشفت هذه الرسالة عن مدى العمق الكبير الذي وصله تفكك الأواصر بين الباب العالي والجزائر، مثلما كشفت عن عجز هذه الأخيرة في التصدي لبعض القوات العثمانية، بل وتسلط الخوف على حكامها لدرجة طلب حماية القوات الفرنسية. طبعا هذا العجز وذلك الخوف تم في وقت انكشف فيه أيضا الضعف العسكري للدولة العثمانية، التي لم تنجح في إفشال مشروع الحملة الفرنسية على مصر لولا مساعدة وتدخل إنجلترا في الصراع بشكل مباشر. هذه العوامل مجتمعة استغلتها الدبلوماسية الفرنسية أحسن استغلال لدعم موقفها ومشروع هيمنتها بالحوض الغربي للمتوسط، ضمن المنافسة التي أصبحت أكثر شراسة بينها وبين إنجلترا، خاصة بعد خروجها منهزمة من مصر في ٣١ أغسطس ١٨٠١ . لقد تأكد للساسة الفرنسيين أن مشروع الهيمنة على كل المتوسط لم يكن إلا ضربا من الخيال أمام المنافسة الإنجليزية ونجاحها العسكري والدبلوماسي في الحوض الشرقي منه. لم يكن إذا أمام الدبلوماسية الفرنسية إلا محاولة تعويض فشلها بالشرق بإنجاز لن يكون سهلا في الحوض الغربي من المتوسط. ولتحقيق هذا الغرض كان مفروضا عليها استغلال روابطها التاريخية ببلاد المغارب، تلك الروابط التي لم تكن بنفس الأهمية والحجم بالنسبة لغريمتها إنجلترا. وقد أكدت الحروب الأخيرة بين فرنسا

(1) Ibid, p.492-494

(2) Ibid, p.492-494

والحلفاء الأوربيين (١٧٩٣-١٧٩٥) عمق تلك الروابط، التي تأثرت حقا بعد ذلك بفعل الاعتداء المفاجئ على مصر، والذي حاولت إنجلترا استغلاله لتأليب تلك البلاد ضد مشاريع فرنسا المعادية للمسلمين، وإبراز صداقتها لهم من خلال دخولها في حلف مع الباب العالي مضاد للأطماع الفرنسية. فكيف تم استغلال التطورات الأخيرة في العلاقات الفرنسية-الجزائرية (متمثلة في إعلان الحرب بشكل محدود للمرة الثانية وعلى إثر تلقي رسالة الاستنجاد السرية من الداي) لدعم تلك الروابط، بما يخدم مصلحة فرنسا ويهيئ الأرضية لاتساع نفوذها وهيمنتها بالحوض الغربي من المتوسط وبالضفة الجنوبية منه بالخصوص؟

ب- معاهدة السلم في ٣٠ ديسمبر ١٨٠١:

لقد أكدت التطورات اللاحقة للعلاقات الفرنسية-الجزائرية كيف أن نابليون استغل مضمون الرسالة السابقة، لتعميق الهوة والشقاق بين الدولة العثمانية وحليفتها إنجلترا والجزائر، وعزل هذه الأخيرة بشكل يجعلها ترتمي أكثر في أحضان فرنسا وتستجيب لرغباتها. فبمجرد بداية المفاوضات الفرنسية-الإنجليزية في أكتوبر ١٨٠١، وهي المفاوضات التي مهدت لتوقيع سلم أميان la paix d'Amiens بتاريخ ٢٥ مارس ١٨٠٢، بادر نابليون ببعث رسالة إلى الداي مصطفى بتاريخ ٢٤ نوفمبر ١٨٠١ يبشره فيها بإمكان عودة العلاقات بين فرنسا والجزائر إلى سالف عهدها، وبأنه بادر بإرسال القنصل ديبوا تانفيل استجابة لطلبه. ولم يفته في نفس الرسالة طمأنة الداي بأن إنجلترا والباب العالي - على عكس الإشاعات السابقة - لا يعتزمان القيام بأي عمل تأديبي ضد الجزائر، وبأنه مستعد لدعمه ضد كل الأعداء المحتملين(١). وفي أقل من شهر من تاريخ هذه الرسالة، وبمجرد التأكد من عود السلم إلى العلاقات الفرنسية-الإنجليزية-العثمانية، بدأت في ١٧ ديسمبر ١٨٠١ مفاوضات الطرفين لإعداد بنود معاهدة سلم جديدة تنظم العلاقات الفرنسية-الجزائرية في ظل التطورات الأخيرة. هذه المفاوضات التي تمت حسب أوجين بلانطي Eugène Plantet بين القنصل ديبوا تانفيل والداي وبحضور ممثلين لعائلة بكري اليهودية.

---

(1) Ibid, p.495-496

وهو ما يؤكد على التأثير الذي كان للطائفة اليهودية، وخاصة عائلتي بكري وبوشناق، على مجريات السياسة الخارجية للجزائر. ولأول مرة وعلى عكس ما كان يحدث في الماضي، من خطوبة فرنسا لود الجزائر من خلال تقديم الهدايا، سارع الداي في تعيين أحد ضباطه، كان حاكما لبونة (عنابة) ويدعى صالح خوجة، للذهاب إلى باريس محملا بهدايا موجهة للقنصل الأول نابليون بونابرت. وقد أوعز وزير الخارجية طاليران إلى المبعوث الجزائري، بعدما تناهى إليه خبر هذه البعثة، يدعوه إلى عرقلة سفرها. وقد كاتبه بقوله: "إنه موضوع لا يوحي بفائدة في الوقت الراهن"(١). أي قبل توقيع سلم أميان الذي أرجع لفرنسا مكانتها على الساحة الدولية، وأعاد توزيع مناطق النفوذ والمصالح الاستعمارية بين الدولتين العظميتين، وهو ما سيعطي سياسة فرنسا بالمتوسط، وخاصة في الحوض الغربي منه نفسا جديدا. فما هو مضمون بنود معاهدة السلم الجديدة؟ وما هي أبعادها؟

تم التأكيد في ديباجة هذه المعاهدة بأن "الحكومة الفرنسية وإيالة الجزائر تعترفان بكون الحرب ليست حالة طبيعية بين الدولتين، وإنه مما يتلاءم وكرامة ومصالح كل منهما هو إعادة أواصر العلاقات القديمة بينهما". أما مضمون البنود فيتناول ترتيبات تؤكد رغبة الطرفين في عودة العلاقات السياسية والتجارية إلى الحالة التي كانت عليها قبل القطيعة، وبإقرار المعاهدات القديمة والتوقيع عليها في يوم توقيع هذا الاتفاق. كما التزمت الجزائر بموجب هذا الاتفاق بالسماح للشركة الإفريقية، التي تمتلكها الدولة الفرنسية، باستعادة امتيازاتها واستئناف نشاطها بنفس الطريقة والشروط التي كانت تتمتع بها فرنسا قبل القطيعة. وأيضا بإرجاع الأموال والسلع التي تم الاستيلاء عليها في وكالات الشركة المذكورة، بعد استخلاص المبالغ المستحقة من العوائد المتأخرة التي لم تدفع حتى تاريخ إعلان الحرب في ٢٧ ديسمبر ١٧٩٨. وبالنسبة للمستقبل، فلا تدفع "اللزمة"(٢) إلا بعد استقرار

---

(1) Ibid, p.496

(٢) يقصد باللزمة، وهي كلمة بالصيغة الدارجة، الالتزام المتفق بشأنه بين الطرفين وهو عبارة عن مقدار مالي سنوي تلتزم السلطات الفرنسية بدفعه لحكام الجزائر مقابل السماح لهم بافتتاح مراكز للتجارة وصيد المرجان بمواقع محددة على الساحل الجزائري.

الفرنسيين في مراكزهم وبدء نشاط الشركة المذكورة. ولتعويض هذه الأخيرة عن الخسائر التي تكبدتها منذ القطيعة، فإن الداي يمنحها إعفاء عن أداء "اللزمة" لمدة سنة. كما أنه يحق للقائم بأعمال الشركة الإفريقية وأعوانها اختيار مترجميهم وسماسرتهم. وبالنسبة لقضايا الاسترقاق، تم التنصيص على ترتيبين أحدهما يمنع استرقاق الأسرى الفرنسيين بالجزائر "في أي ظروف وتحت أي مبرر كان". والثاني يؤكد على عدم جواز استرقاق الفرنسيين الذي أسروا تحت راية أعداء الإيالة "حتى ولو قام المركب الذي أسروا عليه بالدفاع عن نفسه، إلا إذا كانوا من بحارة هذا المركب أو جنودا وأسروا وبأيديهم أسلحة". كذلك تم منع إجبار المراكب الفرنسية سواء منها التابعة للدولة أو للخواص من شحن أي شيء على متنها أو إرغامها على التوجه إلى وجهة لا ترغب في الذهاب إليها. وبالنسبة للنزاعات المهنية أو غيرها، تم التذكير مثلا أنه بالنسبة لمشاكل الديون المستحقة على الخواص، فإن وكيل الجمهورية ليس ملزما بتسديدها ما لم يكن هناك تعهد كتابي يؤكد على ذلك. أما بالنسبة لفك النزاعات الأخرى بين رعايا الجانبين عن طريق المحاكمة، فليس من حق المحاكم العادية البث فيها، والذي له الحق في ذلك هي السلطات العليا الجزائرية بحضور القنصل الفرنسي. وهو ما يمكن اعتباره تطاولا على السلطة الحاكمة بالجزائر. أما بالنسبة للديون الموثقة فيتعهد كل من الداي والمبعوث الفرنسي بتسديدها لمستحقيها. كما تم التأكيد على استمرار تمتع قنصل الجمهورية الفرنسية بكل الحقوق والحصانة والامتيازات التي منحتها له المعاهدات القديمة، كما يحتفظ بحق السبق والأولوية على القناصل الآخرين. أما في حالة قطيعة جديدة فيعطى الفرنسيون مدة ثلاثة أشهر لتسوية أوضاعهم، مع حقهم في التمتع بكامل الحرية والحماية المطلقة، شأنهم في ذلك شأن المراكب التي يمكن أن ترتاد موانئ الجزائر خلال تلك المدة. كما نص الاتفاق على إرسال أحد الرعايا الجزائريين سفيرا إلى باريس. وإلى جانب الترتيبات السابقة التي لا تختلف كثيرا عما سبق الاتفاق بشأنه في المعاهدات القديمة، هناك ترتيبات أخرى ذات خلفيات دفينة. فمثلا تمت الإشارة في البند التاسع بأن "الفرنسيين العابرين أو المقيمين في مملكة الجزائر يخضعون لسلطة وكيل الحكومة الفرنسية، ولا يجوز للإيالة ولا لأعوانها أن يتدخلوا في شؤون

الإدارة الداخلية لفرنسا في إفريقيا". كما تمت الإشارة كذلك بأن "مسكن المفوض (القنصل) الفرنسي يعتبر حرمة ولا يجوز لأية قوة عمومية (شرطة وجمارك الخ..) الدخول إليه إلا إذا طلب المفوض الفرنسي نفسه ذلك من رئيس حكومة الجزائر"[1]. ما هو المقصود من هذه الترتيبات الأخيرة ؟ ألا يمكن اعتبارها تمهيدا لحماية تحركات أولئك المبعوثين والجواسيس الذين كانت حكومة نابليون تعتزم إرسالهم إلى الجزائر، لاستطلاع أوضاعها وجمع المعلومات العسكرية وغيرها عنها ؟ أليس التأكيد على حرمة مسكن القنصل والتشديد على ذلك بقوة مما يساعد في خدمة تلك المخططات (جمع المستندات وإعدادها قبل إرسالها إلى القنصل العام) كموقع متقدم في عمق الجزائر ؟ إن التطورات اللاحقة تعطي الكثير من المصداقية لهذه التساؤلات، التي تلتقي مع الترتيبات السابقة في إبراز ملامح مشروع توسيع الحقوق والامتيازات الفرنسية بالتراب الجزائري تمهيدا لاحتلاله. هل تمكن الطرفان الفرنسي والجزائري من الحفاظ على مكتسب السلم الذي توصلا إليه بالرغم من كونه يخدم مصالح الجانب الفرنسي أكثر ؟ أم أن فرنسا بحكم تجاربها الاستعمارية العريقة، لن تكتفي بما حققته من تنازلات الطرف الجزائري، بل ستعمل على تحقيق أخرى ؟ ثم ما هو مستقبل العلاقات الفرنسية-الجزائرية بعد التوافق الفرنسي-الإنجليزي الذي أسفر عنه اتفاق سلم أميان ؟

ثالثا- الطور الثالث من ١٨٠٢ إلى ١٨١٤:

تميزت هذه المرحلة بتحول كبير في العلاقات الفرنسية-الجزائرية، حيث أصبحت الجزائر تدخل رويدا رويدا وبشكل جدي في دائرة اهتمامات التوسع الاستعماري الفرنسي. وقد انكشف هذا المشروع بعد توقيع معاهدة سلم أميان التي وضعت حدا لأطماع فرنسا في الحوض الشرقي من المتوسط، وعوضتها عن خسارتها لمصر وغيرها من الجزر بإطلاق يدها في جهات أخرى من العالم، لن يكون غرب المتوسط إلا جزءا منها. ولهذا سيلاحظ ابتداء من هذا التاريخ تعامل جديد تجاه الجزائر، يتسم بالعدوانية والتهديد المستمرين. فكيف تم ذلك ؟ وما هي أهم خطواته ؟

---

(١) يوجد النص الكامل للمعاهدة المذكورة في: قنان، مرجع سابق، ص.ص.٣٤٠.-٣٤٤ .

أ- سلم أميان واضطراب العلاقات الفرنسية-الجزائرية (١٨٠٢-١٨٠٦):

بعد عقد معاهدة سلم أميان في ٢٥ مارس ١٨٠٢ تغيرت سياسة فرنسا تجاه الجزائر رأسا على عقب. فبعد إقرار مضمون المعاهدات السابقة وإبداء الرغبة في إنعاش الصداقة واستبعاد كل أسباب التوتر، عاد الفتور والتوجس ليخيم من جديد على علاقات البلدين. فبعد أن أضعفت إنجلترا موقف فرنسا بالمتوسط، بعودة مصر للسيادة العثمانية، ومالطا لأنشطة فرسان القديس يوحنا، واستعادة الجزر الإيونية لاستقلالها تحت حكم جمهورية الجزر السبعة، أعطت لنابليون الحق في استعادة نفوذه بالعديد من المستعمرات البعيدة (في المحيط الهندي والبحر الكاريبي خاصة سان دومينغ Saint-Domingue وغوادلوب Guadeloupe وبأمريكا الشمالية) التي ضاعت من فرنسا منذ حروب الثورة والحروب النابليونية الأولى. وقد فتحت هذه المعاهدة أيضا شهية نابليون في محيطه القريب سواء في البر الأوربي أو في الحوض الغربي من المتوسط والمناطق المطلة عليه. وقد كشفت المراسلات الثنائية المتبادلة بين فرنسا والجزائر بعد توقيع معاهدة أميان بوقت قصير عن ذلك التحول في العلاقات التي أصبحت أكثر استفزازا وعدوانية من جانب فرنسا. وقد ساهمت بعض المشاكل أو لنقل استغلت في تعكير صفو تلك العلاقات، بما يعطي فرنسا الحق في اتخاذ كل الإجراءات الكفيلة بحفظ مصالحا.

لقد بادر نابليون غداة توقيع معاهدة أميان إلى إرسال حملة قوية لاستعادة سيادة فرنسا على جزر الكاريبي سالفة الذكر، وغادرت إحدى تلك القوات ميناء طولون في اتجاه سان دومينغ في شهر أبريل ١٨٠٢ . وأثناء إبحارها في المتوسط تعرضت إحدى السفن - وهي المسماة لو بانيل Le Banel بقيادة القبطان كالامان Callamand وعلى متنها ٢٠٠ بحارا و٥٢٩ جندي و٩ نساء بالإضافة إلى العدة والعتاد الحربي والمواد التموينية الضرورية - لعاصفة اضطرتها للإبحار ثم الغرق قرب الشاطئ الغربي للجزائر. وقد نهبت القبائل القريبة الضحايا بما في ذلك الحمولة واقتيد الناجون كأسرى. وقد سارع القائم بالأعمال الفرنسية (القنصل) ديبوا تانفيل إلى إبلاغ الداي مصطفى رسالة قوية اللهجة باسم نابليون ركز فيها على: تأديب من أسماهم بالقتلة السفاحين، واستعادة كل ما تم نهبه، وإطلاق سراح الفرنسيين

الأحياء الذين بأيديهم، ومنح الفرنسيين مقبرة لدفن مواتهم، وأخيرا وطبقا للبند ١٩ من معاهدة سنة ١٦٨٩ طالب بإعادة أحد الفرنسيين من بين أولئك الضحايا، يعتقد أنه أسلم إما إلى القنصلية بمدينة الجزائر أو إلى مسكن نائب قنصل إسبانيا بوهران للتأكد من عدم إرغامه على اعتناق الإسلام[1].

لم يمض إلا شهران على الحادث الأول، حتى بادر قنصل فرنسا الأول نابليون بونابرت بإرسال رسالة، بتاريخ ١٨ يونيو ١٨٠٢ ،٣١، لا تقل حدة عن السابقة يثير فيها نفس المشكل ومشاكل أخرى إضافية. فقد طالب بإطلاق سراح ١٥٠ من الفرنسيين الناجين في حادث غرق السفينة المذكورة سابقا وإرسالهم إلى فرنسا على وجه السرعة، وكذا الضرب على يد "الرايس" (الرئيس قائد السفينة) الجزائري الذي اعتدى بالضرب على ضابط فرنسي قبالة ميناء تونس، وإرجاع مركبين حربيين من نوع قلعية brick اقتيدا إلى الجزائر بواسطة قراصنة جزائريين، وأخيرا أبدى استنكاره لاعتداء قراصنة آخرين على حرمة المياه الفرنسية باستيلائهم على سفينة نابوليتانية كانت تبحر بداخلها. ولم يفته إلى جانب هذا الركام من المشاكل، التي كانت فيما سبق تعتبر أمورا عادية وطبيعية هذا إن لم يكن بعض ما جاء فيها هو محض افتراء، إثارة الشك والريبة فيما بين أفراد الطبقة الحاكمة أيضا. فقد نبه الداي إلى ضرورة أخذ الحيطة من بعض وزرائه الذين وصفهم بأعداء فرنسا، إشارة إلى أولئك الذين سبق أن أبدوا رغبتهم في الوقوف إلى جانب الباب العالي وحليفته إنجلترا ضد حملته الفاشلة على مصر. بعد هذه المقدمة التي تجعل الجزائر وحكامها في قفص الاتهام، تحولت لهجته إلى التصعيد والتهديد الصريح بقوله: "وإذا كنت أتمنى العيش في سلام معكم، فإنه من الواجب عليكم الحفاظ على التفاهم الذي تم التوصل إليه، والذي هو وحده يحفظ مكانتكم والرخاء الذي أنتم فيه، لأن الله قضى بمعاقبة من يجور علي. إذا كنتم تريدون العيش بصداقة معي، ينبغي ألا تعاملونني كقوة ضعيفة: يجب عليكم العمل من أجل احترام رايتي (أمن السفن) وراية جمهورية إيطاليا حيث أحكم، وتقدموا تعويضا عن كل الاعتداءات

(1) Plantet, op.cit., t.2, pp.498-500.

التي تعرضت لها. إن هذه الرسالة ليست لهدف آخر، أرجو أن تقرؤوها أنتم شخصيا باهتمام، ثم تبلغونني عن طريق الضابط (هولان) Hulin ما أنتم عازمون على فعله"[١]. هل سارع الداي بالجواب على هذه الرسالة أم قام غيره بذلك نيابة عنه؟ ثم ما مدى انعكاس تلك الرسالة على مستقبل العلاقات بين البلدين؟

الظاهر أن التطورات اللاحقة كشفت عن تصعيد خطير لا ندري إن كان ذلك بوعي ورغبة من الجانب الجزائري، أو على الأقل من بعض الأطراف فيه، أم هو تتمة لمخطط مدروس ومبيت عمل نابليون على تهيئة الظروف الموصلة إليه خطوة بعد الأخرى، بهدف تحميل الجزائر مسؤولية عواقبه. في غياب ما يؤكد أو ينفي وجود جواب صريح للداي أو لحكومته على رسالة نابليون السابقة، تبقى رسالة هذا الأخير بتاريخ ٢٧ يوليو ١٨٠٢[٢] مع ما تحمله من لهجة قوية وتهديد صريح بالاعتداء على الجزائر، أهم مصدر قد يكشف عن بعض ذلك الغموض.

يبدو أن نابليون كان، من خلال رسالته هذه التي حملها الضابط بيرج Berge، عازما على إفهام حكام الجزائر بأنه ليس ذلك الجنرال الذي طالما طلب ودهم ومساعدتهم، أو على الأقل عمل كل ما في وسعه ليأمن جانبهم خلال مراحل اكتساحه للمتوسط. كما أنه كان عازما على أن يمحو من أذهانهم صورة القائد العسكري المنهزم الذي لم يفشل فقط في حملته على مصر، ولكنه اضطر للتنازل عن كل مكتسباته الاستعمارية بالمتوسط. ولتحقيق هذا المبتغى، وإذلال خصمه في مقابل ذلك، لم يكتف بالتلميح بأن الله قضى بمعاقبة من يجور عليه، بل كما سيتضح من مضمون رسالته هذه، هو الذي سيتولى معاقبة من يتطاول عليه ويعتدي على مواطنيه. وسواء كانت اتهاماته الجديدة صحيحة، أم لا تستند إلى إثبات، فإن استنكاره مطالبة الجزائر بجزء من الديون المستحقة على فرنسا، يدل على أن الرجل كان مستعدا لإدخال علاقات البلدين في نفق مظلم لا نهاية له. ومما جاء في تعليقه على كل التجاوزات التي عددها وعلى الطلب الأخير الذي تقدم به

(1) Ibid, p. 501-502.

(2) Ibid, pp.502-504

قوله: "..إنني أعبر لكم عن سخطي بشأن الطلب الذي تجرأ وزراؤكم تقديمه إلي بأن أدفع لكم ٢٠٠٠٠٠ قرش إسباني. إنني لم أدفع قط شيئا لأحد، وبفضل الله، فرضت سلطتي (إرادتي) على كل أعدائي. لقد دمرت إمبراطورية المماليك، لأنهم بعد إهانتهم للراية الفرنسية، تجرؤا على مطالبتي بالمال بدل الترضية التي كان من حقي انتظارها منهم. اخشوا أن يحل بكم نفس المصير، وإذا لم يعم الله بصيرتكم، ويجعلكم تسعون إلى خسارتكم بأنفسكم، فاعلموا من أنا، وما أنا قادر على فعله. لقد أخطرت سفير الباب العالي الذي جددت معه التحالف القديم، قبل أن أسير إليكم جيشا بريا وبحريا. لقد قلت لكم وأعيد: أريد أن أعيش معكم في وئام، وليست لي أية أطماع، ولست في حاجة إلى (استعمار) بلدكم لأكون في مصاف الدول القوية. ولكن إذا رفضتم ترضيتي بوضع حد لتحرشات وزرائكم الذين يتجرؤون على شتم وكلائي، وتحرشات بحارتكم الذين يعتدون على رايتي ، فإنني سأقوم بإنزال ٨٠٠٠٠ من رجالي على شواطئكم، وسأخرب إيالتكم (ولايتكم)، لأنني في النهاية لن أسمح بمعاملة رايتي كما تعاملون رايات الدول الصغرى من شمال إيطاليا. يجب أن تفكروا جيدا أنتم ومجلسكم (ديوانكم) في محتوى هذه الرسالة لأن قراري لا محيد عنه. إنني أتمنى من الله ومن عبقريتكم أن تلهمكم الرشد. بحيث تستعيدوا (تتمثل فيكم) المشاعر (الصادقة) المألوفة بين فرنسا والجزائر"[1].

أخيرا كشف نابليون عن أطماعه الحقيقية بالجزائر، بالرغم من ظهوره بمظهر الناصح الذي يأمل في تجاوز العقبات المطروحة في وجه العلاقات الفرنسية الجزائرية. والأهم في هذه الرسالة إلى جانب التهديد الصريح بالانتقام من الجزائر، كما حدث بالضبط بالنسبة للمماليك وهو ادعاء باطل فيما يخص الأسباب، هو أنها - في اعتقادنا - كشفت عما يمكن تسميته اتفاقات جانبية سرية بين الأطراف التي وقعت معاهدة سلم أميان، والتي حضرتها الدولة العثمانية بصفة ملاحظ إلى جانب إنجلترا. فإشارة نابليون بإعلامه السفير العثماني عن مشروع تأديب الجزائر يثير استغرابا كبيرا: هل وصل غضب الباب العالي من حكام الجزائر -

---

(1) Ibid, pp. 502-504.

إما كرد فعل على مواقفهم السابقة تجاه حملة فرنسا على مصر. وهو ما اعتبرته السلطة العثمانية عصيانا وخروجا عن الطاعة - إلى حد الرغبة في تأديبهم وغض الطرف عن أطماع ينبغي أن تكون هي أول من يتخوف من آبعادها ؟ ثم ألا يندرج هذا الاهتمام المتزايد بالجزائر ضمن رغبة نابليون وتطلعاته الاستعمارية في استكمال سيطرته على حوض المتوسط الغربي بعد تأمين هيمنته على إيطاليا وفي خضم اهتماماته المتزايدة بإسبانيا ؟ ألا يمكن اعتبار نجاح إنجلترا في الهيمنة على الجزء الشرقي من المتوسط ابتداء من مالطا، وإطلاق يد نابليون في الجزء الغربي منه دليلا على وجود ما يمكن اعتباره اتفاقا سريا أو مجرد التقاء عفوي للمصالح يقضي باقتسام النفوذ في حوض المتوسط. مع احتفاظ إنجلترا بدور الدركي في كل من جزيرة ماهون وصخرة جبل طارق ؟ وأخيرا ألا يمكن اعتبار غض طرف الباب العالي وإنجلترا على وجه الخصوص عما يحاك ضد الجزائر. دليلا على فشل الباب العالي في التمكين لسيادته التاريخية بشكل عام، وهو ما أصبح أكثر استحالة مع تأكد ضعف الدولة العثمانية واحتمائها بالقوى الأجنبية لضمان بقائها. كما أنه بالنسبة لإنجلترا أيضا تسليم بفشلها التاريخي في الحصول على نفس مكاسب الفرنسيين بالجزائر. وبالتالي فهو نوع من اللامبالاة ؟

هذه الأسئلة وغيرها تجد مصداقيتها وجديتها في التطورات التي شهدتها العلاقات الفرنسية الجزائرية بداية من هذا المنعطف الخطير في تاريخها. لقد أحس الداي والديوان بارتجاج وخوف كبيرين من جراء تهديدات نابليون التي تبدو وكأنها مؤامرة تشترك فيها إلى جانبه كل من الدولة العثمانية وإنجلترا. خاصة وأنه تبين بأنه لا الدبلوماسية العثمانية متمثلة في شخص السفير العثماني محمد غالب أفندي بباريس ولا الأسطول الإنجليزي بالمتوسط لم يحركا ساكنا في وجه المشروع الفرنسي . فقد وصلت مجموعة من السفن الحربية بقيادة نائب الأميرال ليسيغ Leyssègue إلى ميناء الجزائر. بتاريخ ٧ غشت ١٨٠٢ بعد وصول السفينة لوميتان Le Mutin من نوع قلعية brick التي أقلت الضابط بيرج بوقت قصير. وعلى متنها خمسة عشر ضابطا من قيادة الحرب العامة يترأسهم الضابط هولان Hulin الذي سبق أن جاء في مهمة سابقة. وبمجرد وصوله طلب وبصحبته القنصل

والضباط الآخرين لقاء الداي، حيث أعلمه بأن فرنسا مستعدة لإرسال حملة بهدف تدمير الجزائر رأسا على عقب إن لم يتلق أجوبة مدققة عن كل ما جاء في رسالة نابليون. لقد وجد الداي نفسه أمام ورطة كبرى خاصة بعد أن سارع قناصل أوربا الآخرين المعتمدين بالجزائر إلى استقبال البعثة الفرنسية بكامل التقدير والحفاوة، بمن فيهم ممثل إنجلترا القنصل بيل Bill، فما كان من الداي مصطفى إلا أن أعد أجوبة دقيقة ومستفيضة عن كل تلك التساؤلات.

لقد استجاب الداي في رسالته بتاريخ ١٢ أغسطس ١٨٠٢ لكل مطالب نابليون. معبرا عن استعداده لتلبية كل رغباته نقطة بعد الأخرى. فذكر أنه بالنسبة للقبطان علي، إشارة إلى الرايس الذي اعتدى على الضابط الفرنسي في ميناء تونس، فإنه كان سيعدمه لولا شفاعة القنصل الفرنسي فيه. وبالنسبة لاحتجاز السفينة النابوليتانية في المياه الإقليمية الفرنسية، فإنه بالرغم من أن الخبر لم يكن دقيقا فيما يخص مكان وقوع الحادث، فإنه بادر بإطلاق سراح٢٨ من بحارتها وسلمهم للقنصل الفرنسي. نفس المعاملة تمت بشأن السفينة النابوليتانية التي يدعى بأنها كانت تحمل أوراقا فرنسية، والتي لم تدل بها للبحارة الجزائريين فتم احتجازها. كذلك تم تأديب الرايس الجزائري الذي استولى على سفينتين فرنسيتين واقتادهما إلى الجزائر بنفس الحجة. وعلل ما حصل من تجاوزات بكون البحارة الجزائريين لا يحسنون القراءة وبالتالي فالواجب تمييز الرعايا الفرنسيين بعلامات خاصة. أما بخصوص ضحايا السفينة التي غرقت بمياه الغرب الجزائري فلم ينج منها أحد. أما بالنسبة لاتهام المقربين من الداي بالعمل على إثارة البلبلة وتعكير صفو العلاقات الفرنسية-الجزائرية. فأنكر أن يكون من بينهم من يسعون بالسوء في هذا الاتجاه. كما استجاب لرغبة نابليون في معاملة الجمهورية الإيطالية نفس معاملة فرنسا. وهو ما لا يمكن فعله لو تعلق الأمر بطلب دولة غير فرنسا. أما أهم تنازلات الداي فهي اعتباره أن مسألة تسديد الدين المستحق (٢٠٠٠٠٠ قرش إسباني) على فرنسا أو عدمه لن تأثر على صداقة البلدين. وكذا سماحه للشركة الإفريقية باستعادة أنشطتها وضمان حماية مصالحها من طرف باي قسنطينة. كما التمس من حاكم فرنسا التجاوب مع مصالحه كما هو الحال بالنسبة إليه الآن. وبأن لا يسمح لأعداء

الجزائر بالإبحار تحت راية فرنسا لتجنب ما من شأنه أن يعكر صفو العلاقات الثنائية. وبأنه أعطى أوامره باحترام الراية الفرنسية. ثم لم يفته التماس تدخل بونابرت لحل مشكل ديون اليهوديين بكري وبوشناق كما سبق أن وعده بذلك القنصل ديبوا تانفيل. وفي الأخير طلب من نابليون مكاتبته بخصوص أي مشكل طارئ وأبدى استعداده لحله[1] هل استطاع الداي والسلطات الجزائرية. من خلال هذه الترضيات سد كل الثغرات التي من شأنها أن تفتح شهية نابليون للاعتداء على الجزائر ؟ أم أن تلك التنازلات اعتبرت عنوان ضعف ومدعاة لضغوط أكثر عدوانية ؟

يبدو أن نابليون لم يكن ينتظر جواب الداي على رسالته الثانية. فقد بادر بإرسال بعثته العسكرية الاستطلاعية رفيعة المستوى أياما قليلة بعد مغادرة مبعوثه الضابط بيرج. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الرجل كان يخطط لما هو أهم من حل مشاكل عادية. فقد كان بالفعل يخطط للقيام بحملة ضد الجزائر. فإشاراته القوية في رسالته السابقة بكونه مستعد لإرسال ٨٠٠٠٠ جندي لتأديب الإيالة مثلما حدث مع مماليك مصر لم تكن مجرد كلام للاستهلاك. وقد أكدت بعثة الضباط ذلك بإعلانها أن فرنسا كانت مستعدة لإرسال ذلك الجيش بهدف إنزال أشد العقوبات بالجزائر. وبالفعل فقد حملت هذه البعثة وصفا دقيقا للوضع الدفاعي والحالة السياسية بما يشجع على الخروج بذلك المشروع إلى حيز التنفيذ. وقد أجج تلك الرغبة الموقف الانهزامي للداي كما سبق أن وقفنا على ملامحه الرئيسية في رسالته التي بعث بها إلى نابليون.

كان حلم نابليون بونابرت. منذ توقيع معاهدة أميان. هو إنجاز مشروعات استعمارية كبرى في كل الاتجاهات بما في ذلك الجزائر. مع أن ذلك كان فوق الطاقة الحقيقية لفرنسا. ويعزي المؤرخون الفرنسيون تعثر مشاريع نابليون خلال هذه المرحلة الحرجة من تاريخ بلدهم. إلى وضع البحرية الفرنسية الذي لم يستعد عافيته بعد الضربات التي تلقاها بالمتوسط منذ الحملة على مصر. وهو ما لم يساعد على تحقيق تلك المخططات بالسرعة الضرورية. وكذا بفعل المدة الزمنية الضيقة لسلم أميان التي لم تستغل في الاتجاه الصحيح[2] لقد كانت انعكاسات تعثر

(1) Ibid, pp.504-507.

(2) Jean Meyer et autres, op., cit., p.303

سلم أميان وعودة الحرب من جديد بين إنجلترا وفرنسا، ابتداء من مايو ١٨٠٣، سلبية وسيئة على مشاريع نابليون، إذ فقدت فرنسا منذ هذا التاريخ وإلى سنة ١٨١٠ معظم مستعمراتها البعيدة. وبالرغم من أن ظروف الحرب الجديدة قد أبعدت شبح حملة نابليون التي كانت وشيكة على الجزائر، فإن مشاريعه العدوانية ومخططاته الاستعمارية ظلت قائمة وتنتظر الظروف المواتية لتنفيذها.

لقد شهدت العلاقات الفرنسية-الجزائرية ابتداء من هذا التاريخ ركودا توقفت معه الاستفزازات والمضايقات التي ضغطت بشدة قبيل تعليق العمل بمعاهدة سلم أميان. وقد عادت الأنشطة القرصانية، خاصة وهي الوسيلة الوحيدة لإثبات الذات ودفع الأطماع الاستعمارية المحدقة بالبلاد لتنشط في ظل حالة الحرب بين إنجلترا وفرنسا. وكان طبيعيا أن تتوجه الأنشطة ضد المصالح الفرنسية، كإجراء انتقامي ضد بلد أصبح يعتبر في مقدمة أعداء الجزائر وأكثرهم خطورة. ومن بين الإجراءات الأخرى التي اتخذت ضد فرنسا. البلد الذي كان من الناحية الدبلوماسية والاقتصادية يحظى بامتياز خاص، أن سفيرها لم يعد بإمكانه - كما كان في الماضي - الالتقاء بالداي متى شاء. فقد اضطر في كثير من الأحيان إلى مكاتبة هذا الأخير في العديد من قضايا القرصنة والمشاكل الطارئة، كما تثبت ذلك رسالتاه إلى الداي أحمد باشا (١٨٠٥-١٨٠٨) بتاريخ ١٩ و٢٣ سبتمبر ١٨٠٦[1] فقد أثار مثلا في هاتين الرسالتين مشكل الأسرى الإيطاليين الذين تعتبرهم فرنسا رعايا فرنسيين ينبغي افتكاكهم. وأمام تعنت الداي اضطر نابليون إلى إرسال أخاه جيروم نابليون Jérôme Napoléon على رأس مجموعة من السفن بهدف افتكاك هؤلاء، وهو ما أسفر عن إطلاق سراح ٢٣١ أسيرا في مقابل دفع فدية بلغت ٨٠٠٠٠ قرش. وقد أدت سياسة شد الحبل من جانب الجزائر بخصوص الحل الكامل والنهائي لهذا المشكل، خاصة بعد أن تأكد ضعف القوات البحرية الفرنسية على إثر النكبة التي حلت بها أمام إنجلترا في طرف الغار (الطرف الأغر) في ٢١ أكتوبر ١٨٠٥ والتي أدت إلى غياب الوجود البحري الفرنسي بالمتوسط لسنوات طويلة، إلى اتخاذ نابليون قرارا بإجلاء

(1) Plantet, op. cit., t.2, pp.510-516

الفرنسيين من الجزائر في حالة ما إذا استمر رفض الداي لإطلاق سراح من تبقى من الأسرى. وكان هذا القرار أسوأ قرار اتخذته الحكومة الفرنسية في عهد نابليون. لأنه جعل القوى الأوربية الأخرى وخاصة إنجلترا قاب قوسين أو أدنى من تحقيق ما كانت تحلم به دائما. أي الحلول محل فرنسا في مؤسساتها التجارية التاريخية بالشرق الجزائري وغيره من المواقع الأخرى، والحصول على الامتيازات التي كانت حكرا على الفرنسيين فيما سبق. والظاهر أن قرار نابليون هذا لم يكشف فقط عن تقهقر وضعف القوات البحرية الفرنسية، بل أيضا عن عجز خزينتها عن دفع "اللزمة" والمستحقات الأخرى التي تضمن تلك الامتيازات. هكذا إذا قضت هزيمة الطرف الأغر على أسطورة العظمة الفرنسية، وأكدت قوة وهيمنة بريطانيا في المتوسط.

لقد عرفت العلاقات الفرنسية-الجزائرية منذ الهزيمة الأخيرة أمام إنجلترا ارتجاجا زعزع أركانها وتخوفا من أن تستغل هذه الأخيرة حالة الضعف الفرنسية لتستحوذ على مكتسباتها بالجزائر. ولأجل ذلك سارع القنصل ديبوا تانفيل، وهو المتمرس والمطلع على خفايا السياسة الجزائرية، إلى استغلال حادث مقتل الداي مصطفى ومناسبة تولي الداي أحمد باشا منصب الديليكية منذ ٣٠ أغسطس ١٨٠٥. ولو أنه مر على تلك المناسبة بعض الوقت، لإحياء ارتباط الجانبين بالمعاهدات الثنائية القديمة. وتم إقرار وتثبيت تلك المعاهدات في شهر دجنبر من سنة ١٨٠٥. أي بعد الهزيمة المذكورة. ومما جاء في نص الوثيقة على لسان الداي الجديد: "..إن الصداقة والسلم وحسن التفاهم بيننا وبين الأمة الفرنسية وإمبراطورها ستستمر. ولهذا الغرض فإننا آقررنا ونقر المعاهدات القديمة التي بيننا. وقد حررنا هذا المكتوب شهادة منا بذلك"[١] فهل حقا عادت الصداقة وحسن التفاهم إلى سالف عهدهما؟

ب- ضياع امتيازات فرنسا ومشروع حملة نابليون على الجزائر(١٨٠٧-١٨١٤):

لم تكن التحركات الدبلوماسية الفرنسية تجاه الجزائر غداة انهزام قوات نابليون أمام إنجلترا إلا مناورات استهدفت محاولة إيقاف انزلاق الجزائر في أحضان هذه

(١) قنان، مرجع سابق، ص. ٣٤٥.

الأخيرة. لقد كانت بريطانيا عازمة ليس فقط على القضاء على الوجود الفرنسي بمياه المتوسط، بل أيضا على الامتيازات التجارية التي كانت لفرنسا ببلدان الشمال الإفريقي لما يقارب الثلاثة قرون. وقد كان الحصار القاري le blocus continental الذي فرضته على السواحل الفرنسية المتوسطية خلال هذه المدة، وسيلة لقطع أي اتصال وأية إمدادات لبلدان الشمال الإفريقي بفرنسا - كما جرت العادة بذلك إبان محنها السابقة - وكذلك مناسبة للاستحواذ على امتيازاتها التجارية. ومما ساعد على تحقيق هذا الإنجاز التقاء مصالح إنجلترا والجزائر وعداؤهما المشترك لفرنسا.

بغياب البحرية الفرنسية من المتوسط، وانقطاع الاتصال المباشر مع مراكز الاستغلال التجاري الفرنسي بفعل الحصار، عمت الفوضى في تلك المواقع، وأصبح من الصعب الإيفاء بالالتزامات المالية المعتادة تجاه الخزينة الجزائرية. وأمام هذا العجز البين من جانب فرنسا لم يكن هناك بد من منح تلك الامتيازات لإنجلترا، خاصة وأنها وعدت برفع قيمة "اللزمة" إلى خمسين ألف قرش إسباني بدل السبعة والعشرين ألفا التي اعتاد الفرنسيون على دفعها منذ معاهدة سنة ١٧٩٠ . وبنفس المناسبة أيضا تم رفع قيمة "العوايد"(١) التي تدفع لباي قسنطينة من ثلاثة آلاف قرش التي كان يدفعها الفرنسيون إلى ثمانية عشر ألفا. وبالتوصل إلى هذا الاتفاق، تم تحويل امتياز استغلال الباستيون (وهو مركز تجاري محصن على الساحل التابع لبايليك أو إقليم قسنطينة) وملحقاته إلى بريطانيا ابتداء من يناير ١٨٠٧ . وقد كان لهذا التحول أثره السيئ في الزيادة من حدة توتر العلاقات بين البلدين، إذ تم اعتبار ما حصل مساسا بروابط وحقوق تاريخية لا يمكن التخلي عنها بحال من الأحوال، واهانة لفرنسا التي بدأت بموازاة مع هذا الحدث غزوها لإسبانيا.

---

(١) بخلاف "اللزمة" التي هي التزام مالي رسمي يدفع للسلطة المركزية، فإن "العوايد" نوع من الترضيات المالية جرت العادة بدفعها بشكل إضافي لحكام الأقاليم التي تقع المراكز التجارية الأجنبية في ترابها فسميت بذلك "عوايد". كما أن التسمية قد تعني استفادة حكام تلك الأقاليم من بعض عوائد تلك المراكز. وهي في كل الأحوال نوع من الرشوة تدفع مقابل أن ينعم المستفيدون بحرية ممارسة أنشطتهم وبحماية أشخاصهم وممتلكاتهم من اعتداء القبائل المجاورة.

لم يبق أمام نابليون من مجال يثبت فيه عظمة فرنسا. بعد هزائمه البحرية وفقدانه لغالبية مستعمراته فيما وراء البحار. إلا المجال القاري. فقد مد نفوذ بلاده بعد إيطاليا إلى أراضي ألمانيا ثم إسبانيا. وبدأ الأمل النابليوني في استعادة فرنسا لمكانتها بالمتوسط ينتعش شيئا فشيئا. فلم يعد هناك من بديل لفقدان فرنسا لأجزاء واسعة من إمبراطوريتها الاستعمارية البعيدة إلا النظر بواقعية - وفقا للإمكانيات البحرية المتاحة - إلى المجال الأقرب والموازي للضفة الشمالية من الحوض الغربي من المتوسط. وبطبيعة الحال كانت الجزائر التي منيت فيها فرنسا بأعظم الخسائر سياسيا واقتصاديا هي البلد الذي يمكن من خلاله إعادة الاعتبار. ويرجع الفضل في تشجيع نابليون في مخططه العدواني ضد الجزائر. هذه المرة. إلى أمور عدة نذكر منها:

- عودة الفوضى ومسلسل **الاغتيالات** إلى الساحة السياسية بالجزائر، فبعد مقتل الداي مصطفى على إثر ثورة سنة ١٨٠٥ ضد هيمنة اليهود السياسية والاقتصادية في شخص عائلتي بكري وبوشناق، وما صاحب ذلك من قتل عدد من اليهود بمن فيهم نفتالي بوشناق المقرب من الداي والملقب بملك الجزائر وتشتيت ما يقرب من ثلاث مائة عائلة يهودية نشيطة في التجارة وغيرها من المهن. عادت الأوضاع الداخلية للتأزم من جديد. فالداي أحمد باشا عانى هو الآخر من فقر الخزينة للأموال الضرورية لأداء أجور الإنكشارية. في ظل الظروف التي سبق الوقوف عند أهم ملامحها، والتي لم يكن عجز فرنسا في الوفاء بالتزاماتها سواء من خلال "اللزمة" أو مراوغتها في أداء الديون المستحقة عليها إلا أحد أسباب تلك الأزمة. ومما زاد في عمق الأزمة الداخلية قيام ثورات داخلية ضد سلطة الأتراك لعل أهمها ثورة الدرقاويين في غرب الجزائر.

- انتصارات نابليون القارية بألمانيا وبولندا أدت إلى حل التحالف بين الألمان وروسيا وإنجلترا. وتمكن من عقد معاهدة سلم تلسيت Tilsitt مع القيصر الأسكندر الأول Alexandre 1er في ١٤ يونيو ١٨٠٧، وتم بنفس المناسبة الاتفاق سريا بينهما على أنه بإمكان نابليون. عندما تتهيأ له الظروف المواتية. الاستيلاء على الجزائر

والأقاليم التابعة لها كمستعمرة أو كتابعة للدولة الفرنسية[1].

- اعتقاد نابليون بإمكان تحقيق انتصار مفاجئ انطلاقا من سواحل إسبانيا الجنوبية الشرقية القريبة من الساحل الجزائري. وكان هدفه هو إلحاق الضرر ليس فقط بالجزائر ولكن أيضا بما تعتقد إنجلترا أنه مجال هيمنتها الخاص.

وباجتماع كل هذه العناصر، الظروف الداخلية المتردية بالجزائر ونجاحه في مد نفوذه في اتجاه إسبانيا ثم الترخيص الروسي السري باحتلال الجزائر، اعتقد نابليون أن الظروف أصبحت مواتية لتحقيق مشروعه التوسعي في اتجاه الجزائر، وهو في نفس الوقت انتصار على إنجلترا ودبلوماسيتها بشمال إفريقيا. وتجنبا لأخطاء الماضي، حينما تم الإعداد لحملة مصر في مدة لم تتجاوز الشهرين، لم يكن أمامه مجال للخطأ هذه المرة. إذ كان عليه إعداد خطة محكمة لا يجوز إغفال أي جانب هام منها. وكانت وسيلته الوحيدة هي إعداد تقرير مفصل عن كل ما من شأنه أن يضمن نجاح مشروع الحملة ضد الجزائر. فهل نجح نابليون في تحقيق مراده؟

لم يكن أمام نابليون من وسيلة لتحقيق مخططه العدائي إلا بعمل تجسسي محكم ودقيق. هذا العمل تكفل بإنجازه أحد ضباطه في سلاح الهندسة يدعى بوتان Boutin. فقد تمكن هذا الأخير من جمع معلومات متنوعة ذات صبغة سياسية وعسكرية واقتصادية على درجة كبيرة من الأهمية، ساعده في جمعها إلى جانب دقة ملاحظته مساندة القنصل ديبوا تانفيل الذي كان بحكم طول مدة إقامته بالجزائر وخبرته بواقع البلاد على دراية وعلم بها. فما هي الخطوط الرئيسية الواردة في تقرير بوتان؟ وهل أمكن استغلالها لإخراج المشروع إلى حيز التنفيذ؟

ما أن حل ربيع سنة ١٨٠٨ حتى كان التقرير جاهزا بين يدي القنصل الأول نابليون. فقد أكد بوتان في مقدمة تقريره أن نجاح مشروع الحملة يتوقف على ركيزتين أساسيتين هما معرفة المكان اللائق للإنزال قرب العاصمة وطبيعة المقاومة التي ستجابه الحملة:

---

(١) جون ب. وولف، الجزائر وأوربا (١٥٠٠-١٨٣٠)، ترجمة أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٦، ص. ٤٤٣ .

فبالنسبة للنقطة الأولى، ذكر بأهمية وصلاحية موقع سيدي فرج إلى غرب مدينة الجزائر لأي إنزال مرتقب، بالمقارنة مع عيوب الشاطئ الشرقي للمدينة التي كانت سببا في إفشال حملات إسبانيا في السابق. فالشاطئ الشرقي رملي وخال من أية حصون دفاعية. اللهم إلا من برج سيدي فرج الصغير والقديم والذي لا يوجد به إلا قطعة مدفع صغير لا يمكنها الصمود أمام قصف مكثف.

أما بالنسبة للنقطة الثانية، فالجزائر لا يمكنها حسب تقديره أن تجمع أكثر من ستين ألف جندي، وهم بالنسبة للمشاة منهم في مستوى المشاة المصرية من حيث القيمة القتالية، أما بالنسبة للفرسان فخيالة المماليك متفوقة عليهم.

ولم يفت بوتان في تقريره أن يذكر ببعض العوامل المساعدة والمفيدة لتحقيق نجاح منقطع النظير للحملة. يتعلق الأمر بإحياء الحرب بين الجزائر وتونس. لأن ذلك يشغل باي قسنطينة، الذي تفوق قواته قوات بايات وهران والتيطري (إلى الجنوب من مدينة الجزائر)، ويمنعه من تقديم المساعدات الضرورية في الوقت المناسب. كما اقترح أيضا إرسال قوات إلى باي وهران تشغله هو الآخر عن الانضمام إلى قوات مدينة الجزائر، وبهذا سيتم ضمان تفوق القوات الغازية. أما بالنسبة للوقت الذي ستستغرقه العمليات العسكرية للاستيلاء على العاصمة وضواحيها، فرأى بوتان أنها لن تتجاوز الشهر الواحد، كما أن أفضل الفترات الملائمة للإنزال هي بين شهري مايو وأكتوبر(١).

ما أن أتم نابليون احتلاله لإسبانيا حتى قامت ثورات زعزعت وجوده بها، كما اندلعت في نفس الفترة (بين مايو ويوليو ١٨٠٩) حرب قارية جديد تزعمتها كل من النمسا وإنجلترا. هذه الحروب والثورات، بالإضافة إلى الحصار القاري، لم تسمح لنابليون بتجربة ثانية خارج القارة الأوروبية بعد تجربته الفاشلة بمصر. وقد توالت الثورات في أنحاء أوربا التي كانت تسيطر عليها فرنسا، في كل من هولندا وألمانيا وإيطاليا بالإضافة إلى إسبانيا لتشكل انشغالا حقيقيا لنابليون. والأخطر من ذلك

(١) قنان، مرجع سابق، ص.ص٢٠٢.-٢٠٣، اعتماد على التقرير الموجود في أرشيف فانسين الحربي مجموعة ١. ,H 1.

كله هو إعلانه الحرب على قيصر روسيا حينما تخلى هذا الأخير عن تحالفه مع نابليون، ثم الحصيلة الكبيرة لخسارة حملته ضد روسيا سنة ١٨١٢ . وقد شجعت هزيمته هذه البلاد المحتلة على مواجهته، فنجح الألمان ثم الإسبان في التخلص من حكمه سنة ١٨١٣. وأخيرا تكون حلف أوربي أعلن الحرب الشاملة على فرنسا، وانتهى الأمر بغزوها بداية من يناير ١٨١٤ ثم بسقوط باريس في ٣٠ مارس من نفس السنة، وأخيرا استسلم نابليون في ٦ أبريل من نفس السنة. وبهذه الانتصارات طويت تهديدات القنصل الأول ونظامه القنصلي التوسعي بأوربا وبحوض المتوسط والبلاد المطلة عليه. وإذا كانت الجزائر قد استفادت من هذه التطورات ونجت من غزو محقق، فإنها مع ذلك ظلت رغم تغير لون النظام الحاكم هدفا لأطماع فرنسا.

المصادر والمراجع

Note Ministérielle présentée au Dey par le consul Moltedo, datée du 17 Décembre 1798, Archives d Outre-Mer, Aix-En-Provence, France. 1 A 97-1 A 104.

Plantet, Eugène, Correspondances des Deys d'Alger avec la cour de France (1579-1833), 2 vol., édit. Bouslama, Tunis, 1981.

يحتوي كتاب أوجين بلانطي - Eugène Plantet وهو في مجلدين كبيرين تحت عنوان: مراسلات دايات الجزائر مع حكومة فرنسا (١٥٧٩-١٨٣٣) - على كم هائل من الوثائق التاريخية التي تتضمن معلومات غزيرة ذات طابع سياسي واقتصادي كالمراسلات الدبلوماسية والمعاهدات المتعلقة بالسلم أو بالتجارة وغيرها، وقد اعتمدنا على كثير من الوثائق المنشورة فيه في هذه الدراسة.

Meyer Jean, Tarrade Jean, Goldzeiguer Annie-Rey, Thobie Jacques, Histoire de la France Coloniale des origines à 1914, Armand Colin, Paris, 1991.

أمين، محمد. "يهود ليفورنيون بالجزائر في أواخر العهد العثماني: عائلتا بكري وبوشناق نموذجا". العثمانيون والعالم المتوسطي (مقاربات جديدة)، أعمال الندوة الدولية التي عقدت بالرباط في الفترة من ١٨ إلى ٢٠ أبريل ٢٠٠٢، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، سلسلة ندوات ومناظرات رقم: ١٠٩، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣ .

قنان، جمال، معاهدات الجزائر مع فرنسا (١٦١٩-١٨٣٠). المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٧ .

العقاد، صلاح، المغرب العربي: دراسة في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة، مكتبة

الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٠ .

وولف جون ب.، الجزائر وأوربا (١٥٠٠-١٨٣٠)، ترجمة أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٦ .

مقاومة زعماء عسير لهيمنة محمد علي باشا

١٢٣٨هـ / ١٨٢٣م - ١٢٤٩هـ / ١٨٣٣م

(دراسة تاريخية وثائقية)

د. صالح بن عون بن هاشم الغامدي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المشارك - كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية والإدارية

جامعة الملك خالد

أبهـــا



سيطرة محمد علي باشا على عسير

كانت عسير تحكم من قبل أسرة آل المتحمي(*) الذين تسلموا السلطة بعد اتباع محمد بن عامر أبو نقطة المتحمي وأخيه عبد الوهاب لمبادىء دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية عام ١٢١٣هـ[١] إذ كلف الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود. الإمام الثاني من أئمة الدولة السعودية الأولى محمد بن عامر بالإمارة، ولم يمكث طويلا حتى توفي، فتولى الإمارة بعده أخوه عبد الوهاب، وأقره الإمام عبد العزيز على ذلك[٢]، فاتخذ من [طبب](**) عاصمة له، وشرع في إخضاع تهامة عسير تنفيذا لأوامر حكومة الدرعية[٣].

استمرت تلك الأسرة تحكم عسير، وتنافح عن مبادىء الدعوة السلفية، وتسعى لنشرها في المناطق المجاورة[٤]، حتى زوال النفوذ السعودي عن المنطقة عام ١٢٣٠هـ إثر حملة قادها محمد علي باشا تمكن فيها من إخضاع عسير لسلطته[٥] والقبض على القائد السعودي طامي بن شعيب الذي أرسل إلى مصر فالأستانة حيث أعدم هناك[٦]، تولى بعده أخر أمراء آل المتحمي الأمير محمد بن أحمد عام ١٢٣هـ الذي أعلن الثورة ضد قوات محمد علي باشا المرابطة في]طبب [وتمكن من القضاء عليها والاستيلاء على عتادها وذخيرتها. ولاشك أن القسوة التي انتهجها ضد الأهالي قد أعطت نتائجها العكسية، فبعد هزيمته أمام الشريف حمود أمير

(*) آل المتحمي أسرة من أكبر الأسر العسيرية، ومشايخ قبيلة ربيعة ورفيدة، حكمت عسير خلال تبعية المنطقة للدولة السعودية الأولى، ١٢١٣هـ ـ ١٢٣٠هـ، وظلت تقاتل قوات محمد علي باشا حتى عام ١٢٣٤هـ.

(١) محمد بن هادي الحفظي، (مخطوط) الظل الممدود في الوقائع الحاصلة في عهد ملوك آل سعود الأولين، صورته لدى الباحث، ص ٤ .

(٢) محمد عمر رفيع، في ربوع عسير (ذكريات وتاريخ)، القاهرة، ١٣٧٣هـ، ص ١٧٩ .

(**) مركز قبيلة ربيعة ورفيدة، إلى الشمال الغربي من مدينة أبها، تبعد عنها حوالي ١٠كم، كانت عاصمة لعسير في عهد الدولة السعودية الأولى.

(٣) عبد الرحمن أحمد البهكلي، (مخطوط) نفح العود في سيرة أيام الشريف حمود، قسم المخطوطات بجامعة الملك عبد العزيز بجدة، رقم ٦١، ص٢٣ .

(٤) محمد أحمد العقيلي، تاريخ المخلاف السليماني، ج١، ط٢، القاهرة، ١٩٨٢م ص ٤٥١ .

(٥) دار الوثائق القومية بالقاهرة، محفظة٤، بحر برا، وثيقة رقم ١٢، في ٣ ربيع الثاني ١٢٣. هـ .

(٦) دار الوثائق القومية بالقاهرة، محفظة ٤، بحر برا، وثيقة رقم ١٣٨، في ١٠ صفر ١٢٣. هـ .

[أبي عريش] عام ١٢٣١هـ تكالبت القوى الداخلية والخارجية ضده، ثم وجه محمد علي باشا حملة قوية بعد أن نجحت قواته في القضاء على الدولة السعودية الأولى عام ١٢٣٣هـ على يد إبراهيم باشا، وقد أسندت القيادة إلى الشريف محمد بن عون أمير مكة، حيث تمكن عام ١٢٣٤هـ من هزيمة محمد بن احمد المتحمي، وأسره هو وابنه مداوي حيث قتل الأمير محمد، وأرسل ابنه إلى القاهرة[١]، وبذلك تنتهي فترة حكم هذه الأسرة. لتدخل منطقة عسير في فترة من الفوضى والاضطراب بين الفتن القبلية من ناحية، ومن ناحية أخرى الحملات المتتابعة من قوات محمد علي باشا تساندها قوات الشريف محمد بن عون أمير مكة .

الشريف محمد بن عون وعسير

نصب الشريف محمد بن عون نفسه أميرا على الحجاز وعسير ، وبايعه الأهالي بحكم مركزه الاجتماعي ، ومكانة آسرته، ومعرفة القبائل بشخصيته، إذ كان المتصدر للأمور السياسية والإدارية أثناء قيادة الحملة ضد قوات أحد أبرز زعماء المخلاف السليماني الأمير حمود بن محمد أمير أبي عريش الذي سار بجيشه إلى عسير واستولى عليها عام ١٢٣٢هـ[٢]. ولقد باشر الشريف محمد بن عون حكم عسير ، فوضع حامية في طبب، وعين أخاه هزاع بن عون نائبا له في المنطقة[٣].

شجع هدوء الأحوال بين القبائل العسيرية تحت إمارة الشريف محمد بن عون ، التي امتدت حدودها السياسية ما بين سواحل القحمة فحلي بن يعقوب غربا حتى تخوم تثليث شرقا . وما بين ضواحي الحجر فالقنفدة شمالا حتى بلاد قحطان فأدنى نجران جنوبا[٤] الشريف محمد بن عون لغزو وادي الدواسر ، فجند قبائل عسير وشهران وبعض القبائل التابعة له وأتجه ناحية ، الدواسر مارا بالسليل ، وبينما هو يتفقد جيشه بالسليل، أفتقد شوكة بني مغيد وبعض قبائل عسير السراة ورجال ألمع برئاسة سعيد بن مسلط، ورغم أن سعيد هذا هو صهر الشريف هزاع، فان

(١) عثمان بن بشر . عنوان المجد في تاريخ نجد ،ج ١ ، ط ٢ ، القاهرة ،٢.١٤هـ ص ٤٥١ .
(٢) محمد العقيلي . المرجع السابق . ص٤٧٦ .
(٣) هاشم بن سعيد النعمي . تاريخ عسير ، بدون تاريخ ولا مكان الطبع ، ص١٧١ .
(٤) المرجع السابق ، ص ١٧١- ١٧٢ .

الشريف محمد بن عون استشاط غضبا لهذا التأخير، ووبخ سعيد أمام الملأ وأشتد في توبيخه، فثار لكرامته وعاد إلى معسكره ومعه قبائل رجال ألمع وعلكم وعقد مؤتمرا عاما مع قادة رجاله في(المجمعة)(*)(١).

ثورة عسير ضد الشريف محمد بن عون

تقرر في المجمعة القيام بالثورة ضد الشريف محمد بن عون ، وضرورة مهاجمة طبب حيث تقيم حامية الشريف بقيادة أخيه الشريف هزاع ، ودارت معارك كثيرة بين المدافعين والمهاجمين، انتهت بخروج الحامية صلحا، وإحراق المركز الرئيسي في طبب ، والسيطرة على عسير بعد قتل وجرح حوالي مائة من عساكر المشاة الموجودين في المنطقة(٢). وفي رواية أخرى أن الشريف محمد بن عون قد (غضب من علي مجسمي، أحد أقربائه لأنه لم يحضر عندما أراد إحضاره معه ، فاتخذ الشيخ المذكور غضب الشريف المومى إليه ذريعة للفتنة، وحرك قاسما شيخ رجال ألمع وأشقياء عسير وبدو تهامة)(٣).

ومن تتبعنا لأحداث هذه الفترة نرى أن الرواية الأولى أقرب إلى الصواب لعدة أمور من أهمها :

١- أن سعيد بن مسلط هو الزعيم العسيري وقائد قومه المشاركين تحت قيادة الشريف محمد بن عون لغزو وادي الدواسر.

٢- إن الشيخ علي مجسمي لم يرد اسمه في هذه الفترة ولا بعدها ، وربما أن المقصود هو علي بن مجثل ، ولو افترضنا ذلك فإن علي ابن عم سعيد بن مسلط لم يتول الإمارة إلا بعده وإن كان قد راسل بعض الزعماء المجاورين قبل سيطرة الشريف محمد بن عون على عسير كما سنرى.

(*) موقع تابع لقبيلة بني مغيد، إلى الشرق من طريق أبها السودة ، وتبعد عن مدينة أبها حوالي ٨ كم .

(١) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ١٤ ، معية تركي ، وثيقة رقم ٢. ، في ١٢ رجب ١٢٣٨ هـ .

(٢) الوثيقة نفسها .

(٣) الوثيقة نفسها.

تزعم سعيد بن مسلط لثورة عسير

شرع سعيد بن مسلط في بناء حكمه والاستعداد لكافة الطواريء، فاتخذ من [السقا](*) عاصمة له، ونصب نفسه أميرا على عسير ورتب قواته لمواجهة أي هجوم يشنه الشريف محمد بن عون ، أما الشريف محمد فلما علم بثورة سعيد في عسير بعث بحملة لقتاله ، وانضمت إلى الشريف هزاع والحامية التي أخرجت من طبب ، ودارت معركة بين الطرفين في وادي عتود، انتهت بهزيمة الحملة، ومقتل الشريف هزاع ، وذلك في شهر رجب عام ١٢٣٨هـ (١).

وتجدر الإشارة إلى أن ثورة أهالي عسير وإعلان استقلالهم عن سلطة محمد علي والشريف محمد بن عون لم تكن نتيجة حتمية للإهانة التي ألحقها الشريف محمد بسعيد بن مسلط ، فإن الأحداث تشير إلى أن أهالي المنطقة لم يكونوا راضين عن الأوضاع السياسية التي آلت إليها الأمور بعد القضاء على إمارة آل المتحمي، فلقد كان سعيد بن مسلط وعلي بن مجثل يترقبان الفرصة السانحة لإعلان الثورة، يدل على ذلك ما كان يقوم به علي بن مجثل من مراسلة بعض الأعيان الذين يثق بهم في المناطق المجاورة يشرح لهم موقفه من قوات محمد علي باشا، ورأيه فيهم، واستقلاله عنهم ، معتمدا على رجال قبائله وقوتهم ، إذ يقول في رسالة له إلى أحد الزعماء (سلام الله الأتم ، يخص ويعم، حضرة الجناب العالي المكرم أخينا العزيز السيد محمد عقيل العلوي سلمه الله تعالى آمين وبعد وصلت خطوطك الأول والأخير وفهمنا مضمون الجميع ، وما ذكرت صار لدينا معلوم إلى آخر ما شرحت، وتعلم أن القوة لله لا لغرض من الأغراض، ولا يخفاك مع وصول خطك الأول أنا قد جوبنا عليك بما في خواطرنا بمحضر كبار عسير وشهران ورفيدة وباللسمر وباللحمر وبني شهر ويلقرن وبني عمرو ومن حضر من عبيدة وسنحان ومن حضر من دراعية ورجال همدان وصدرنا الخط يواجهك في القنفذة ، وأما الباشا فلا نرى للخط عنده وجه ، لأنا لا نعلم له عندنا من المطالب شيء، فإن أراد العافية والسكون

(*) إلى الغرب من مدينة أبها، وتتبع لقبيلة بني مغيد ، تبعد عن أبها ٩ كم .

(١) محمد العقيلي ، المرجع السابق ، ص ٥٣٤ .

فيخلينا ويخلي سبيلنا ، وإن يدور الفتن ومراده يوازينا عند طوارفنا فنستعين عليه بقاصم الجبابرة ، فهو يكفي من توكل عليه، ونرجو أن دربه درب مقاومته)[١]، كما نوه بأهمية الصداقة ضد المعتدي، موضحا بأن من يعين العدو فهو يعين على الإثم والعدوان ، شارحا بأن ضعف المقاومة ضد قوات محمد علي و التخاذل في ذلك يعود إلى الأسلوب الذي اتخذته تلك القوات في زرع بذور الشقاق والنفاق بين القبائل العربية ، كما أكد على أنه لا ينوي الاعتداء على أحد لا يعتدي عليه ، إذ يقول (... فالله سبحانه قد أمر بالتعاون على البر والتقوى ونهى عن التحالف على الإثم والعدوان ، وهؤلاء الناس من يعينهم وينفعهم بشيء على باطلهم فهو ممن يعين على الإثم والعدوان، والصحبة المتقدمة بيننا وبينك أنت عارفها سابق ، فلا يخفاك ما قد ذكر الله سبحانه يومئذ (الأخلاء بعضهم لبعض عدو إلا المتقين)، ومن باب الدنيا فالضر والذل بيد مالك الملوك ، فالحمد لله قد أصلح الله ذات بين المسلمين، وعزموا على محاربة الترك ومن والاهم ، ولا جرهم علينا إلا بعضنا في بعض)[٢].

وجدير بالذكر أن تاريخ هذه الوثيقة كان في أوائل ربيع الثاني من عام ١٢٣٨هـ ، أي قبل إعلان سعيد بن مسلط وعلي بن مجثل ثورتهما بحوالي ثلاثة أشهر .

بعد نجاح ثورة سعيد وعلي تدفقت القبائل على مقر الإمارة في السقا ، ولم يلق الأمير سعيد كبير عناء في توحيد إقليم عسير الممتد من حدود وادعة جنوبا حتى قائل بني الحجر شمالا تحت سيادته ، نتيجة لاتسامه بالروح الدينية المنبثقة من مبادىء الدعوة السلفية التي كان العسيريون يتخذونها أساسا لحكمهم[٣].

موقف حكومة محمد علي من ثورة عسير

استاءت حكومة محمد علي باشا مما وصلت إليه الحالة في عسير، وزاد الأمر سوءا ما كان يهوله الشريف محمد بن عون لدى حاكم الحجاز أحمد باشا الذي أخذ هو الآخر في تجسيم خطر الإمارة الجديدة ، وأنها بعث جديد لنهضة آل سعود،

---

(١) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ٨ ، بحر برا ، وثيقة رقم ٩٣ ، في ٤ ربيع الثاني ، ١٢٣٨ هـ .
(٢) الوثيقة نفسها.
(٣) هاشم النعمي ، المرجع السابق ، ص ١٧٣ .

فأرسل أحمد باشا خطابا إلى مصر يطلب فيه الإمدادات للقضاء على تلك الإمارة ، كما رفع محمد بن عون بدوره رسالة يبين فيها خطر تلك الثورة التي انشقت عن الطاعة ، وأعلنت العصيان ، فكان رد محمد علي واضحا وصريحا في رسالة موجهة إلى أحمد باشا ، جاء فيها (سوف لا يسمح لأشقياء تلك الجهات بإجراء مفاسدهم ، وبما أنه من الواجب أن يؤدب بهذه الصفة أشقياء جهات عسير المذكورين الذين رفعوا رؤوسهم وظهروا . فإن مطلوبنا أن تتحركوا عليهم بالذات ، بالترتيبات الكلية ، وتوقعوا ما يليق بهم من الجزاء ، وأن تقوموا بهذه الصفة بتطهير وتأمين تلك الجهات أيضا ، وبما أنه قد أشعر كل من الشريف راجح والشريف محمد بن عون بخصوص اتباع رأيكم ، وبذل مقدرتهما لتأديب الأشقياء المذكورين ، بالاتحاد معكم ، فطلب منكم أن تسلموهما مكاتبتينا المرسلتين ، وأن تكونوا مقيدين بالقيام بحكمة ، وكما يجدر بالحاكم نحو المذاكرة جيدا ، وحسن المطالعة معهما بما يوافق مصلحتنا بهذا الخصوص . وأن تؤدبوا الأشقياء المذكورين بصورة مرضية ، وبما أنه من البديهي أن يصير إرسال عساكر من هذا الطرف إذا لزم إرسالهم حسب الحال ، فإن مطلوبنا أن تحرروا حقيقة الحال ، وتعرفونا ، ولا تسمحوا بضياع الوقت ، وتقوموا بالعمل جيدا بحسن التدبير)[1].

وزيادة في التصميم على القضاء على ثورة عسير والقبائل الموالية لها ، فإن محمد علي رتب عسكريا أوضاعه ، وقرر إرسال مجموعة كبيرة من الجند النظامي ، وذلك لتأديب الثوار . جزاءا لهم كما يرى ، وردعا لأمثالهم، إذ يقول (... تجاسر أشقياء عسير على تلك الفتنة التي أوجبت تأديبهم شرعا وعقلا ، وقد كنا ساعين ومجتهدين ثلاث سنوات في ترتيب العساكر الجديدة الجهادية . ومن كرم الله سبحانه وتعالى تم في هذه الأيام أمر نظامهم على أحسن منوال ، والعساكر المذكورة لهم آلاي كثيرة ، وكل واحد من آلاي المذكورة رتب على أربعة آلاف عسكر ، ولهم كبير سمي ميرالاي . وقررنا أن نرسل من ميرالاي المذكورة واحد ، واثنين من العساكر المرتبة . وإن شاء الله الرحمن في قريب الزمن متوجهين بتلك النواحي ، ويجزى

(١) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ١٤ ، معية تركي ، وثيقة رقم ٢. ، في ١٢ رجب ١٢٣٨ هـ .

الأشقياء المرقومة وغيرهم بما يستحقون من التربية ، وفي هذا الوقت يتنادموا - يتنادم - أهل الفساد ، حيث لا ينفعهم الندم ، ويصيرون عبرة لمن اعتبر، ونهاية الكلام مصمم ومحقق عندنا أمر تأديبهم على الوجه المشروح)[1].

ومما يلفت الانتباه أن الثورة العسيرية لم تقتصر على قبائلها ، بل امتدت إلى المناطق المحيطة بها والقريبة منها ، حيث ثارت قبائل بيشة وأعلنت حربها ضد الحامية الموجودة بها والتابعة لمحمد علي باشا ، ساعدهم على ذلك ثورة غامد وزهران وشمران وبالقرن الذين أعلنوا ثورتهم تعاطفا مع إخوانهم في عسير وبيشة ، وقطعوا طرق الإمدادات الموصلة إلى بيشة ، فتعذر إيصال الذخيرة إلى المحاصرين ، وقد استاء محمد علي من هذا الموقف الجماعي ضد قواته فحمل ذلك في نفسه من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد أرسل أوامره لواليه على جدة لاتخاذ الوسائل الكفيلة بإنهاء حالة الحصار على جنوده في بيشة[2].

لقد توجهت الحملة العسكرية التي أعدها محمد علي لإخضاع سعيد بن مسلط ومن معه إلى عسير في شهر ربيع الثاني ١٢٣٩هـ مرورا ببسل التابعة للطائف، ولم تسلك تلك القوات طريق الساحل ، وذلك بهدف تأديب القبائل التي ساندت ثورة بيشة ، وتعاطفت مع ثورة عسير كغامد وزهران فسارت باتجاه العقيق التابعة لغامد فالثنية التابعة لبيشة ، فبئر دنن ، فقرى بني واهب وكلها تتبع بيشة إلى الجنوب منها، وفي ٢٩ جمادى الأولى وقعت أول معركة بين قوات الشريف محمد بن عون وأحمد باشا محافظ مكة وبين سعيد بن مسلط وقبائله انتهت بانتصار قوات محمد علي التي وجدت الطريق بعد تلك المعركة مفتوحا أمامها إلى خميس مشيط[3] فوصلتها ، ثم توجهت صوب السقا مقر سعيد بن مسلط ، فدخلتها بعد أن أخلاها سعيد وجنده الذي اتخذ من [ذي السنوم][*] الواقعة في صدر وادي الملاحة خط دفاع

---

(١) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ١٤ ، معية تركي ، وثيقة رقم ١٥٣ ، في٥ ذو الحجة ، ١٢٣٨ هـ .

(٢) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ١٦ ، معية تركي ، وثيقة رقم ٤٥ ، في ٨ محرم ١٢٣٩ هـ .

(٣) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ٩ ، بحر برا ، وثيقة رقم ١١ ، في ٢١ رجب ١٢٣٩ هـ .

(*) المقصود ذي السنون وتعرف باسم ذي امسنون ، إلى الشمال الغربي من عسير قرية تتبع قبيلة ربيعة ورفيدة العسيرية ، تبعد عن أبها حوالي ٢٠ كم .

ضد تلك القوات ، وفي اليوم السابع من شهر جمادى الثانية اشتبكت قوات محمد بن عون وأحمد باشا مع قوات سعيد في (يوم مهول عرف عند العسيريين بيوم ذي امسنوم. وانتهت المعركة بانحدار سعيد بن مسلط واعتصامه بالأغوار الغربية من بلاده ، فتقدم محمد بن عون ودخل مدينة طبب)[١].

سعيد بن مسلط وحرب العصابات ضد قوات محمد علي

أدرك سعيد بن مسلط أن لا طائل له بمقاومة تلك الحملة الضخمة ، فقرر اتخاذ حرب العصابات وسيلة لعدم استقرار تلك القوات في المنطقة، ونجحت تلك الطريقة في إلحاق الأضرار بقوات محمد علي، ومما زاد الأمر سوءا هو نفاذ الذخيرة . وموت كثير من الجمال ، إضافة إلى رفض أهالي عسير الذين طلبوا الأمان تسليم أسلحتهم ، وفضلوا الموت عن التخلي عن البنادق ، إذ يقول أحمد باشا يكن في رسالة منه إلى والده محمد علي يخبره بتحرك قواته في عسير ، وما قاله لبعض زعمائهم (يا مشايخ عسير أولا : لما كان مولانا ولي النعم - يقصد والده - بالحجاز أظهرتم الفساد فسار عليكم وسحقكم جيدا، وفي أيام حسن باشا عصيتم فسار عليكم وأدبكم التأديب اللازم ، وكذلك في أيام أخي المرحوم خرجتم عن دائرة الأدب فسار عليكم أيضا وعرفكم حدكم . والآن في أيامي أيضا تمسكتم بكل مخالف ، وارتكبتم أنواع الشقاوة ، وفي طريقي من الطائف حاربتموني مرتين ، وتسببتم في هدر دماء مخلوقات كثيرة ، وجوزتم هذه الخسائر الجمة ، فلا يقتضي بعد الآن أن توجد بيدكم بنادق ، فلتذهبوا بأدبكم وشرفكم لتسلموها ، وإلا فأنتم تعرفون ، وعندما فهم كل منهم هذه الكلمات الشديدة أجابوا جميعهم نرضى بقتلنا ولا نعطي بنادقنا ، وفر كل منهم إلى اتجاه في الجبال نحو قراهم ، وحيث أنه لمن المعلوم لعبدكم أنه مهما بذل من الجهد والسعي فإن هذا الذي نريده لن يكون ، وحيث أنهم وسطوا من قبلك الشريف محمد بن عون وجميع الشرفاء المعددي الخاطر أبطل الكلام عن أخذ البنادق ، وجمعت كافة أهل العسير ووضع عليهم جزاء)[٢].

(١) هاشم النعمي ، المرجع السابق ، ص ١٧٣ .

(٢) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ٩ ، بحر برا ، وثيقة رقم ١٢ ، في ٢١ رجب ١٢٣٩هـ.

ورغم هدوء الحالة العسكرية في المنطقة فإن الثقة بين الطرفين كانت معدومة ، فقوات محمد علي أدركت أن رفض تسليم السلاح يعني اشتعال الثورة في أية لحظة ، لذا فقد أبقى أحمد باشا حامية عسكرية ليقينه بأن ذلك الهدوء لا يعني الاستسلام، والرضى بالحالة الراهنة ، وإنما سيقوم العسيريون بالثورة في أقرب فرصة متاحة[1]، أما أهالي عسير فقد كانوا مستائين من تصرفات تلك القوات التي تريد أن تجردهم من سلاحهم من ناحية ، ومن ناحية أخرى تسعى إلى فرض سيطرتها بالقوة على كافة مقدرات المنطقة ، لذا فقد كانوا يعدون أنفسهم للثورة .

إخراج العسيريين لقوات محمد علي والصلح بين الطرفين

استغلت القبائل العسيرية انسحاب أحمد باشا إلى الحجاز عام ١٢٣٩هـ تاركا حامية عسكرية بقيادة الشريف محمد بن عون في طبب ، فحاصرت الحامية حتى استسلمت على شروط من أهمها :

١- انسحاب جميع قوات محمد علي باشا من المنطقة .

٢- التوقيع على اتفاق يضمن التنازل عن منطقة عسير للعسيريين .

٣- الاعتراف بالحدود العسيرية الممتدة من بارق شمالا حتى صبيا والشقيق جنوبا[2].

وبالرغم من انتصار العسيريين فإنهم كانوا حريصين على الصلح مع الشريف محمد بن عون وأحمد باشا لخشيتهم من إعداد محمد علي لحملة أخرى ضدهم تكلف الطرفين كثيرا من الدماء والجهد والمال، ولرغبتهم الأكيدة في حب السلم مع عدم التنازل عن استقلال بلادهم، أو الاستسلام لرغبات عدوهم ، لذا فقد أرسل زعماء عسير رسائل ودية وهدايا إلى الشريف محمد بن عون وأحمد باشا، وقد تضمنت تلك الرسائل التأكيد على ضرورة الصلح ، واستمرار الاتفاقية السابقة (فإن كان الصلح استتم - تم - على مظمون - مضمون - ما راح عليه الربع فعرفونا ، وإن

---

(١) الوثيقة السابقة .

(٢) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ٩ ، بحر برا ، وثيقة رقم ١٧ ، في ٢٧ رمضان ١٢٣٩ هـ.

كنتم خالفتم عنه فعرفونا، والنقا بقا)[١].

وتشير الوثيقة السابقة - الرسالة - إلى أن أهالي عسير رغم حبهم للصلح ، إلا أنهم أيضا مستعدون لأية مواجهة قد تفرض عليهم .

أما سلطات الحجاز فقد اشترطت لإتمام الصلح مع الزعامة في عسير شروطا من أهمها حضور مشايخ عسير إلى مكة المكرمة بعد حج عام ١٢٣٩هـ[٢]، وذلك كمحاولة جادة من قبل أحمد باشا لكسب بعض أولئك المشايخ إلى جانبه ، والقبض على من يشك في ولائهم ، وقد رفض سعيد إرسال المشايخ إلى مكة المكرمة خشية أن يغدر بهم أحمد باشا . كما شرع سعيد في (إنشاء القلاع على التعاقب مع تقوية أطرافه ، وأنه بعث خفية خطابا لتركي بن عبد الله من جماعة آل سعود، فأرسل هو إليه شيخا من المشايخ النبهاء المرعيي الخواطر في أيام آل سعود، وأنه وإن كان يتظاهر بمظهر الإطاعة. لكن مراده التمكن من تقوية نفسه وإعداد العدد على مضي الأيام)[٣].

لقد حرص أحمد باشا في رسائله المتتالية إلى والده محمد علي على تهويل أمر منطقة عسير . ومدى الجهود المبذولة للسيطرة على شؤونها، ومحاولة جمع الزكاة بالقوة لرفض بعض الأهالي دفعها، و (مضاعفة السعي ليل نهار في ازدياد العساكر الجهادية ... وفي تقويتهم وترقيتهم بصرف ما في الوسع)[٤]، كل ذلك لتحريض محمد علي لإرسال دفعة كبيرة من الجنود والأسلحة والمال والمستلزمات الأخرى للهجوم على عسير ، وإخضاعها لسلطته ، والقضاء على أية ثورة أو عصيان أو تمرد.

ولا شك أن هذا التخطيط والإعداد يعطينا دلالة واضحة على نكث أحمد باشا للعهود والمواثيق ، ونقضا للصلح المتفق عليه بين الطرفين ، وعدم الالتزام بما صرح به أمير عسير من ضرورة إيضاح نوايا الشريف والباشا حول الصلح (فإن كان الصلح

---

(١) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ٦ / ١٢٧ ، بحر برا ، رسالة من سعيد بن مسلط وعلي بن مجثل إلى الشريف محمد بن عون (بدون تاريخ).

(٢) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ٩ ، بحر برا ، وثيقة رقم ٦٦ ، في ٧ ربيع الأول ١٢٤. هـ .

(٣) الوثيقة نفسها.

(٤) الوثيقة نفسها.

استتم على مظمون ما راح عليه الربع فعرفونا، وإن كنتم خالفتم عنه فعرفونا، والنقا بقا)[1].

نقض أحمد باشا للصلح وسيطرته على عسير مرة أخرى

لم يكن أحمد باشا راغبا في الصلح السابق ، لولا أن الظروف أجبرته عليه . لذا فإنه عندما آنس في نفسه القوة أرسل حملتين بحرية وبرية ، اتجهت إلى كل من القنفذة وبني شهر ورجال ألمع وعسير والشقيق، وقد قاد الشريف محمد بن عون القوات المتجهة إلى بني شهر فعسير وذلك في ٢. رمضان ١٢٤.هـ ، وفي طريقه إلى السقا مقر سعيد بن مسلط اصطدم مع قوات عسيرية ، وتمكن بعد وصول الإمدادات إليه من الانتصار على سعيد ، مما دفع بالأخير إلى التراجع نحو السقا[2].

أدركت بعض القبائل مدى قوة الحملة ، وإصرار قادتها على مواصلة المسير نحو السقا. مما دفعهم إلى إرسال وفد من مشايخ عسير يطلبون الأمان من أحمد باشا[3]. فرحب أحمد باشا بهذه الخطوة ، وزيادة في محاولة كسبهم إلى جانبه أسند إلى بعض المشايخ الموثوق بهم بعض المهام، مع مراعاة حق الولاء والصداقة[4]، أما بقية المشايخ فقد قرروا المقاومة، وعدم الاستسلام .

سارت الحملة تجاه عسير ، ووصلت في السابع والعشرين من شهر شوال إلى مناظر - حي من أحياء مدينة أبها حاليا - عندئذ أدركت بقية القبائل التي حاولت المقاومة أنه لا جدوى من ذلك، فقررت طلب الأمان، كما طلبه سعيد بن مسلط وعلي بن مجثل شريطة أن تعطى قبائل ألمع الأمان، وتكون تحت إمرتهما . فلم يوافق أحمد باشا إلا بإعطاء الأمان للشخص نفسه دون شروط ، وكان ينوي إعطاء الزعيمين العسيريين الأمان ثم يقبض عليهما[5]. وقد أدركا أن عبارة الصلح والأمان التي أطلقها أحمد باشا تحتوي على الخدعة. لذا فقد حسبوا لذلك ألف حساب، وآخذوا

---

(١) وثيقة سابقة ، محفظة ٦/ ١٢٧ ، بحر برا .

(٢) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ٢. ، معية تركي ، وثيقة رقم ١٥٣ ، في ٢٤ محرم ١٢٤١ هـ .

(٣) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ٩ ، بحر برا ، وثيقة رقم ٨٧ ، في ١١ شعبان ١٢٤. هـ .

(٤) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ٢٢ ، معية تركي ، وثيقة رقم ٩١ ،في٢٧ رمضان ١٢٤. هـ .

(٥) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ٩ ، بحر برا ، وثيقة رقم ٦.١ ، في٣ ذو القعدة ١٢٤. هـ .

للأمر أهبته[١].

ثورة العسيريين ضد أحمد باشا وانتصارهم عليه مرة أخرى

كان رفض أحمد باشا للعرض السابق الذي قدمه سعيد بن مسلط وعلي بن مجثل ينبع من ثقة قوية في تحقيق النصر وتأديب الثوار. إلا أن النتيجة كانت عكسية . فقد أدى ذلك إلى إعلان الزعيمين العسيريين المقاومة. وعدم الاستسلام. وسرت تلك الروح القتالية بين بعض القبائل، مما أدى إلى اشتعال الثورة في المنطقة. وانعدام الأمن في الطرقات. وانقطاع وسائل الاتصالات بين أحمد باشا في مناظر وبقية القوات على الساحل الشرقي للبحر الأحمر وفي بقية المناطق العسيرية. يؤكد هذا عدم تمكن رسول محمد علي باشا من الوصول إلى أحمد باشا في عسير . إذ يقول (فذهبت من جدة إلى القنفذة ومنها إلى مرفأ عتود الذي هو تحت مأمورية الشريف علي بن حيدر . فطلبت من الشريف المومى إليه استحصال وسيلة للمسير بهجان في طريق مسلوك يوصل إلى طرف ولدكم المحافظ المشار إليه ومعسكر جيشه . لكن لم نتمكن من استحصال طريق للمسير . حيث أجابني الشريف المومى إليه قائلا : إن الأشقياء الذين لم يدخلوا بعد في الطاعة يتجولون في الطريق من مرفأ عتود إلى عقبة مناظر في عسير. فالأمن مفقود غير مستتب في تلك الحوالي).[٢]

وثق أحمد باشا من النصر. خصوصا بعد أن انضم إليه مجموعة من مشايخ عسير. وتجندوا في صفوف قواته. مما دفعه إلى اتخاذ قرار بالهجوم على السقا مركز الأميرين العسيريين . وفعلا نجح في الاستيلاء عليها واتخذها معسكرا لقواته . علّه يستطيع إنهاء القتال قبل حج عام ١٢٤. هـ فيعود إلى مكة المكرمة للإشراف على شؤون الحج[٣]. كما رتب قواته للهجوم على قبائل ألمع وريده. ونتيجة لأهمية مدينة القنفذة[*] من الناحية الاستراتيجية له. فقد أرسل فرقة من قواته لتعسكر فيها

(١) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ٦ ، بحر برا ، وثيقة رقم ١٢٧ بدون تاريخ .

(٢) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ٩ ، بحر برا ، وثيقة رقم ١٢١ ، في ١٣ ذو الحجة ١٢٤. هـ .

(٣) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ٢. ، معية تركي ، وثقة رقم ١٥٢ ، في ٢٤ محرم ١٢٤١ هـ .

(*) تشكل مدينة القنفذة نقطة وصل رئيسية بين تهامة والسراة في عسير. إضافة إلى كونها المنفذ البحري الموصل إلى عسير عن طريق الحجاز واليمن.

وتحميها . ومن ثم تتبع أخبار مشايخ عسير الذين طلبوا الأمان وأعطوه هل لا زالوا على موقفهم. أم أثر عليهم سعيد بن مسلط وعلي بن مجثل[1] بدأ أحمد باشا يطبق سياسة ضرب العسيريين ببعضهم . فعين مشايخ عسير الذين على ولاء له على عقبة العوص . النازلة إلى رجال ألمع . ثم (نزل العسكر العرب فقط من العقبة ، وشرعوا يحاربون رجال ألمع)[2].

على أن هذه القبيلة صمدت في وجه تلك القوات، وقتلت منهم مجموعة، وأسرت قائد الحملة آغا مانع - أبو نقطة المتحمي - شيخ طبب، أما عبد الله بن مشيط فقد أرسله أحمد باشا إلى مناظر لإحضار المدفع الموجود بها، وإرساله إلى العقبة، على أن ثورة عسير قد عمت تلك المنطقة ، وكان لأسر قائد تلك الحملة أثره الإيجابي في نجاح المقاومة. واندفاع رجال ألمع إلى السقا ، حيث انسحبت القوات المتمركزة فيها من غير نظام إلى طبب ، فلحق بهم أهالي عسير ، وألحقوا بهم خسائر فادحة واستولوا على كمية كبيرة من الأسلحة والمؤن ، فقرر أحمد باشا جمع كل القوات والاتجاه بهم إلى قرية السودة لمحاربة الثوار في العقبة ، إلا آن المدافعين من عسير وألمع علموا بقرار أحمد باشا ، فعملوا كمينا ما لبث أن انقض على المهاجمين . فانهزموا ، وتعقبوهم إلى قرية السودة[3]، فغادروها إلى العقبة حيث يقيم الميرالاي عارف أغا . وزاد الأمر سوءاً هطول الأمطار مما أدى إلى إفساد استخدام البنادق ، إضافة إلى نجاح العسيريين في السيطرة على الطرق التي تأتي منها الذخيرة . ولما شعر أحمد باشا بسوء الحالة ، وأثر وقع الهزيمة على قواته بعد قتل مجموعة كبيرة منها . رأى أنه من الواجب عليه الإبقاء على ما تبقى من ماء الوجه . إذ يقول ونويت إخفاء صور الحصار الذي نحن فيه. وعدم إخبار أحد ، وأن نظهر بمظهر المستعد للحرب ، ومقابلة الأعداء مرة أخرى لوقاية العساكر ، ولأجل ستر تشتت جيشنا إذا طلب الأشقياء الأمان فالأولى أن نتعاقد معهم جديا فنعطيهم الأمان)[4].

---

(١) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ١. ، بحر برا ، وثيقة رقم ١٢ ، في ١١ محرم ١٢٤١ –ت.

(٢) دهر الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ١.، بحر برا ، وثيقة رقم ١٤ ، في ١١ محرم ١٢٤١ هـ .

(٣) عثمان بن بشر ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ١٩ .

(٤) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ١. ، بحر برا ، وثيقة رقم ١٤ ، في ١١ محرم ١٢٤١ هـ .

طلب العسيريين الصلح مع أحمد باشا

أدرك زعماء عسير الهزيمة التي حاقت بأعدائهم ، ولكنهم لم يستغلوها كما ينبغي . فلم يتتبعوا أعداءهم ، واكتفوا بما حققوه من نصر ، وربما يعود موقفهم ذلك إلى عدة أمور من أهمها:

١- اعتقادهم بأن قوات أحمد باشا لا زالت قوية وقادرة على صد أي هجوم ضدها .

٢- خوفهم من وصول الإمدادات العسكرية لأعدائهم من جهة الحجاز أو اليمن . أو من محمد علي في مصر .

٣- رغبتهم في حل الأمور بالطرق السلمية ، وعدم إهدار مزيد من الدماء ، خصوصا وأن مطالبهم ستنفذ غالبيتها سلما إن لم تكن كلها .

لقد حدث ما توقعه أحمد باشا من طلب عسير الصلح، إذ (أرسل رجال ألمع شيخهم الكبير حسن بن مشاري . الذي يستند عليه علي وسعيد، ولما اقترب المذكور من الجيش تلاقى مع عبدكم، وطلب العفو عنه وعن علي وسعيد، وتعهد بأن يكونوا بعد الآن تحت الطاعة ، وطلب الأمان ، فأعطي الأمان إلى مشاري المذكور ، وفي اليوم التالي أحضر علي بن مجثل، وعندما التمس أن نحيل إليه - إلى سعيد بن مسلط - أبو عريش ورجال ألمع وبارق وبني الأحمر -باللحمر - وبني الأسمر - باللسمر - . قلت أن ولي النعم سيدنا - يعني محمد علي - قد أعطى أبو عريش إلى الشريف علي بن حيدر . وبارق أعطيت لجمعه أغا . فلتكف يدك عن المداخلة والتعرض لهما . ومحائل ورجال ألمع محالة إلى حسن مشاري)[1].

أما باقي عسير وباللحمر وباللسمر فتحال إلى سعيد وعلي، وأخيرا تم الاتفاق على ما طرحه أحمد باشا . واكتفى أميري عسير بإمارتهم الممتدة من حدود بني شهر وبارق شمالا حتى حدود أبي عريش جنوبا ، وتعهدا بعدم التدخل في شؤون أبي عريش وبارق[2]. ورحل أحمد باشا إلى مكة المكرمة بعد أن رحّل العساكر بحرا من

(١) الوثيقة السابقة .

(٢) الوثيقة نفسها .

القنفذة إلى جدة .

لم تكن هزيمة قوات محمد علي في عسير نهاية المطاف لأطماعه في المنطقة ، وإخضاعها لسلطانه ، بل نراه يصر على إعادة المحاولة المرة تلو الأخرى ، إذ أنه عندما شعر أن المواقع الجبلية الاستراتيجية بيد سعيد وعلي قرر إرسال قوات جديدة لإخضاع المنطقة تحت قيادة أحمد باشا نفسه ، إذ يقول محمد علي في رسالة منه إلى محافظ جدة (كتبنا بالحال إلى الأغا كتخدانا والي ناظر الجهادية بالكيفية ، وأكدنا عليه بتعبئة الألاي التاسع ، وإعداد ما يلزم له ، وإكمال نواقصه بأسرع ما يكون ، وأنه سيهيء للسفر في مدى خمسة أيام إلى عشرة ، وسيعزز بالألاي العاشر أيضا ، وإن أقدم أمل بي إقدار ولدنا الباشا - أحمد باشا - على أن يقوم بتأديب أولئك العصاة . وهكذا اتجهت النية الحسنة ، وعزمت على إرسال الألايين المذكورين على هذا الوجه . ... فمن اللازم إعلام ولدنا الباشا كي لا يبدل شيئا من ترتيباته ، ولا يتسرب الفتور لهمته)[1].

ورغم حرص محمد علي على إخضاع عسير لسلطانه ، ومحاولة الظهور بمظهر القوة ، وترتيب الأمور العسكرية بطريقة تنم عن حرص أكيد على السيطرة على ذلك الإقليم إلا أن الأمور كانت تسير في غير صالحه ، فما أن يخضعهم حتى يثوروا مرة أخرى . ويلحقوا بقواته الهزائم المرة تلو الأخرى .

ضم عسير للمخلاف السليماني

كانت الأوضاع في عسير هادئة ومستقرة بعد توقيع الصلح مع أحمد باشا ، وخروج قواته منها ، وانحسار تهديداته المستمرة ، حيث ولّد ذلك الاستقرار إضافة إلى نشوة الانتصار قوة لهم من ناحية ، ومن ناحية أخرى فلقد هابتها القبائل المجاورة . ورغبت المناطق الصديقة في مساعدتها . وفي نفس الوقت تطلعت الزعامة في عسير إلى مد نفوذها خارج الإقليم . فوجدتها فرصة عندما استنجد بها أهالي المخلاف السليماني ضد ظلم الحاكم الشريف علي بن حيدر الذي ونتيجة لثورتهم

(١) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ٢٠، معية تركي ، وثيقة رقم ١٧٣ ، في ٦ صفر ١٢٤١ هـ .

ضد ولده الحسين بن علي لظلمه وشدته ، سمح لقبائل يام بمهاجمة أهالي صبيا . حيث قتلوا وسلبوا ونهبوا[١]. وذلك عام ١٢٤. هـ . إضافة إلى أنه لم يكتف (بما وقع. بل ضاعف عليهم الخراج نكالا وعقوبة على ما أسلفوه من الثورة على ابنه)[٢]. لذا أرسل أمير عسير قوة عسكرية إلى المخلاف السليماني لصد هجمات قبائل يام ، وتخليص الأهالي من ظلم علي بن حيدر .

موقف محمد علي من تلك التطورات

لم تكن سلطات الحجاز راضية عن تصرفات أمير عسير تجاه المخلاف السليماني ، وأزعجها طموحه ذلك ، وتدخله المباشر في تلك المناطق . فأرسلت إلى محمد علي باشا تخبره بأن أمير عسير يسعى لضم المخلاف السليماني تحت سلطته[٣]. وفي تلك الأثناء توفي أمير عسير سعيد بن مسلط الذي تعتبر الإمارة في عهده هي الأولى من نوعها استقلالا في عسير منذ تدخل قوات محمد علي في المنطقة ، ليخلفه ابن عمه علي بن مجثل وبإجماع أهالي عسير كافة[٤]. وتعتبر إمارة الأمير سعيد غرة في تاريخ عسير لما كان يتمتع به من الدين والورع والتقوى[٥].

سار الأمير علي بن مجثل على خطى سلفه سعيد بن مسلط . ونجحت قواته في تخليص أهالي صبيا من الظلم الواقع عليهم بعد أن عجز الشريف علي بن حيدر عن مواجهة تلك القوات ، فسلم بالأمر الواقع ، وعقد صلحا مع أمير عسير ، تنازل بموجبه عن صبيا ومخلافها. على أن يبقى في قلعة رحبان بعض رجاله ، ويعطيه مهلة حتى شهر رجب ١٢٤٢هـ[٦] ليستشير مرجعه في الحجاز أحمد باشا في الصلح، بيد أنه أرسل إلى أحمد باشا يلتمس إرسال بعض الجنود معاونة له . وفعلا أرسل له (عددا كبيرا من العساكر والطوبجية . وأنهم أرسلوا من ميناء جيزان إلى آبو عريش.

---

(١) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ١. ، بحر برا ، وثيقة رقم ٦٨ ، في ٩ ربيع الثاني ١٢٤١ هـ .

(٢) محمد العقيلي ، المرجع السابق ، ص ٦.٥ .

(٣) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ١. ، بحر برا ، وثيقة رقم ٤٩ ، في ١٩ ربيع الأول ١٢٤١ هـ .

(٤) عبد الله بن مسفر ، أخبار عسير ، ط٢ ، بيروت ، ١٣٩٩هـ ، ص ٨٨ .

(٥) هاشم النعمي . المرجع السابق . ص ١٧٥ .

(٦) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ٢٢ عابدين ، وثيقة رقم ٩.١ ، في ٣ رمضان ١٢٤٢ هـ .

وأنه سيصير إرسال بكباشي مع رجال للمحافظة على القنفذة لحين وصول العساكر المرسلة من طريق القنفذة)[1].

تقوى علي بن حيدر بأولئك الجنود، وتقدم بهم إلى ضمد وأدب بعض الموالين لأمير عسير، مما دفع علي بن مجثل إلى أن سار بقواته إلى صبيا، وحاصر حاميتها حتى استسلمت. فأطلق سراحهم، وعين حامية من قبله، وعاد إلى بلاده[2].

إلا أن أحمد باشا لم يرض بذلك الوضع، فأمد علي بن حيدر بقوة عسكرية كبيرة تمكنت من ضرب القلعة بالمدافع، مما دفع الحامية العسيرية إلى الاستسلام، وخرجت من صبيا، وعين علي بن حيدر حامية تابعة له، وعاد إلى أبي عريش[3].

لم يرد الأمير علي بن مجثل على تلك الضربة، وربما أن إمكاناته العسكرية لم تكن في وضع يهيئه للهجوم على علي بن حيدر، إلا أنه أعد جيشا ضخما عام ١٢٤٣ هـ كان هدفه احتلال مدينة أبي عريش، ولما علم علي بن حيدر بذلك أعد للأمر عدته. وتقابل الطرفان وقبل اصطدام القوتين (سعى بعض رؤساء الطرفين سعيا جاهدا للصلح، وكان لكل من شيخ بني ظالم أبو طائف، وشيخ بني جونة مشاري بن حسن، من مشايخ رجال ألمع اليد الطولى، حيث عقدوا صلحا عام ١٢٤٣ هـ تنازل بموجبه أمير أبي عريش علي بن حيدر عن صبيا ومخلافها لأمير عسير، شريطة أن يكف عن حصار أبي عريش)[4].

ثورة الأشراف ضد محمد علي ولجوؤهم لعسير لم تكن الأوضاع العسكرية لقوات محمد علي في الحجاز مؤهلة للرد بقوة على تحديات وتحركات علي بن مجثل وأطماعه في المخلاف السليماني. وذلك لثورة الأشراف ضد قوات محمد علي في الحجاز وما سببته من إزعاج، فقد أعلن الشريف يحيى بن سرور العصيان[5].

---

(١) دار الوثائق القومية بالقاهرة، دفتر ٢٠ عابدين وثيقة رقم ٩٩، في ٢٢ شعبان ١٢٤٢ هـ.

(٢) محمد العقيلي، المرجع السابق، ص ٥٠٧.

(٣) محمد العقيلي، المرجع السابق، ص ٥٠٧.

(٤) الحسن بن أحمد بن عاكش، مخطوط الديباج الكسرواني في ذكر أعيان المخلاف السليماني، تحقيق د.إسماعيل البشري. غير منشور. ص١٦٤

(٥) دار الوثائق القومية بالقاهرة، دفتر ٧٣١ ديوان خديوي تركي. وثيقة رقم ٦٩٣، في ٢٨ رمضان ١٢٤٢ هـ

ليتبعه الشريف عبد المطلب[١] الذي لجأ مع بعض الأشراف آخيرا إلى علي بن مجثل في عسير[٢]. حيث أجارهم علي بن مجثل ورحب بهم غير مكترث بتهديدات محمد علي له[٣]. وإمعانا من علي بن مجثل في تحدي محمد علي قاد جيشه عام ١٢٤٦هـ إلى تهامة اليمن ، واجتاح المخلاف السليماني حتى وصل بلاد صليل ، وحاصر قلعة الكلفود المسماة ودعان حتى استسلم أهلها ، فاستولى على كثير من الأموال والسلاح. وعاد إلى عسير بعد أن عين حامية تابعة له[٤].

ذهل محمد علي من جرأة علي بن مجثل وتماديه في التحدي ، وحتى لا يظهر بمظهر المنهزم أمام قوات عسير من ناحية ، ومن ناحية أخرى ليقف مع حليف له هو الشريف علي بن حيدر أمام هجمات علي بن مجثل درس إمكانية إرسال قوات إضافية إلى أحمد باشا في الحجاز للقضاء على ذلك التمرد وكبح ذلك التحدي[٥].

ثورة تركجه بيلمز ضد محمد علي ودخوله في طاعة أمير عسير

وحقيقة الوضع فإن محمد علي باشا كلما أراد أن يضرب ثورة عسير حدث حادث آجبرد على إرجاء قراره ، فبعد ثورة الأشراف قامت فتنة في الحجاز تزعمها تركجه بيلمز وزنار أغا . حيث قام الجند غير النظاميين بالمطالبة بما تأخر من رواتبهم ، أدت إلى توتر العلاقة مع خورشيد باشا محافظ مكة المكرمة[٦]. وتطور الوضع إلى قيادة تركجه بيلمز لبعض الجند والزحف بهم ناحية مكة المكرمة[٧]. ولما أدرك عدم مقدرته على مواجهة القوات التي أرسلها محمد علي اكتفى بمهاجمة مستودعات الحكومة بجدة فنهبها واستولى فيما استولى على عدة سفن حربية أبحر بها إلى السواحل اليمنية . وهناك التقى مع الزعيم العسيري علي بن مجثل، فدفعهم الهدف المشترك

(١) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ٣١ ، معية تركي ، وثيقة رقم ٥ ، في ٦ ربيع الآخر ١٢٤٣هـ .
(٢) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ٣٥ ، معية تركي ، وثيقة رقم ٢٤٣ ، في ١٢ ذو القعدة ١٢٤٣ هـ .
(٣) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ٣١، معية تركي ، وثيقة رقم ٢٥٦. في ١٦ محرم ١٢٤٤ هـ .
(٤) محمد العقيلي . المرجع السابق . ص ٥٠٧- ٥٠٨ .
(٥) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ٧٥١ ديوان خديوي تركي ، وثيقة رقم ١٦ ، في ٢٥ ذو القعدة ١٢٤٤ هـ
(٦) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ٤٠ ، معية تركي ، وثيقة رقم ٨٢٨، في ٩ صفر ١٢٤٨ هـ .
(٧) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ٤٤ ، معية تركي ، وثيقة رقم ٥٥١ . في ٢٥ صفر ١٢٤٨ هـ .

وهو العداء لمحمد علي إلى توحيد جهودهم ، وتم الاتفاق عام ١٢٤٨ هـ بين الطرفين على الشروط الآتية :

(❖) دخول تركجه بيلمز ومن معه تحت طاعة الأمير علي بن مجثل .

(❖) الانضمام مع جيش الأمير علي لحصار أبي عريش .

(❖) فتح البلاد اليمنية باسم أمير عسير بما فيها الحديدة والمخا وزبيد .

(❖) على الأمير العسيري تزويد تركجه ومن معه بالمال والعتاد(١).

لقد كان لانضمام تركجه بيلمز باتباعه إلى جانب الأمير العسيري دافعا قويا لفرض هيمنته على أبي عريش نفسها ، خصوصا بعد أن اعتدى الحسن بن علي بن حيدر على أحد رجال الأمير علي بن مجثل وقتله ، فسار علي بقواته وحاصر مدينة أبي عريش، فصالحه أميرها علي بن حيدر على شروط من أهمها :

- أن تحتل مدينة أبي عريش عسكريا بحامية عسكرية عسيرية في قلعتها المسماة دار النصر .
- أن يرحّل الأمير علي الجنود الأتراك إلى الحجاز .
- أن يبقى علي بن حيدر في الإمارة كنائب .

ويقال بأن الأمير علي بن مجثل لم يف بالشرط الثالث ، بل استولى على البلاد كليا)(٢).

هزيمة تركجه بيلمز أمام العسيريين وضمهم لأجزاء من اليمن لم تستمر العلاقة بين أمير عسير وتركجه بيلمز كما كان متفق عليه ، حيث أخذت المصالح تتغلب على الشروط، فبعد أن تمكن تركجه بيلمز من احتلال الحديدة والمخا وزبيد تنكر للأمير علي، وباشر إدارة تلك المناطق بنفسه . وألحق بأهلها الضرر . فلجئوا للأمير علي بن مجثل ، الذي أعد قوة عسكرية مكونة من ألفي مقاتل ، واشتبكوا مع قوة الترك الذين كانوا قرب زبيد فهزموهم، واتجهوا صوب المخا حيث يقيم تركجه بيلمز ،

(١) هاشم النعمي ، المرجع السابق ، ص ١٨١ .
(٢) محمد العقيلي ، المرجع السابق ، ص ٥٠٨ .

وتسلق بعض العسيريين أسوارها، (فقتل أكثرهم فوق السور فلم يثن عزم الباقين حتى نزلوا فيه . وتبعهم الباقون من عسير ، فأخذوا البلد عنوة من أيدي الترك . وغنموا أموالا لا تحصى)[١]. وفر تركجه بيلمز صوب إحدى السفن البريطانية في المنطقة ولجأ بها[٢].

أما الأمير علي بن مجثل فقد اتجه ناحية الحديدة ، وكانت بها حامية تابعة لتركجه بيلمز (فاشتبكوا مع الحامية ، وأخيرا استسلمت صلحا ، وارتحلت بحرا ، فدخل أمير عسير الحديدة ، ورتب معاقلها ، وباشر إدارتها ، ونصب أميرا من قبله على الحديدة وزبيد والمخا يدعى محمد بن مفرح ، كما نصب على الجهات المجاورة للحديدة عمالا من رجاله ، وأبقى مع محمد بن مفرح أربعمائة مقاتل من جنده)[٣].

لم يكن اهتمام الأمير علي بن مجثل وبالذات في أواخر عهده منصبا فقط على المخلاف السليماني ، لكنه كان يتابع تحركات الإمام تركي بن عبد الله ضد قوات محمد علي في نجد ، لذا فعندما طرح الإمام تركي بن عبد الله في رسالة سرية إلى علي بن مجثل خطة لضرب الأتراك في كل من نجد وعسير وافق عليها[٤]، فأعد الأمير علي حملة لمساندة الإمام تركي في حربه ضد الأتراك، ولكن الأمير علي مرض قبيل وفاته عام ١٢٤٩هـ[٥]. فطلب من خليفته الأمير عائض بن مرعي إرسال تلك الحملة . وفي تلك السنة أيضا اغتيل الإمام تركي على يد ابن أخته الأمير مشاري بن عبد الرحمن بن مشاري بن سعود[٦].

وبوفاة أمير عسير علي بن مجثل تنتهي فترة تاريخية مليئة بالأحداث والتطورات السياسية على مستوى الجزيرة العربية بشكل عام وعلى مستوى منطقة عسير والمخلاف السليماني بشكل خاص ، لتبدأ فترة جديدة من الاستقرار والتوسع في فترة الأمير عائض بن مرعي .

---

(١) عثمان بن بشر ، عنوان المجد في تاريخ نجد ، ج ٢ ، الرياض ، بدون تاريخ ، ص ٤٦ .

(٢) عبد الرحمن الرافعي ، عصر محمد علي ، ط٣ ، القاهرة ، ١٣٧.هـ ، ص ٣٥٩

(٣) هاشم النعمي ، المرجع السابق ، ص ١٨٥ .

(٤) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ١٦ ، بحر برا ، وثيقة رقم ١١٩ ، (بدون تاريخ) .

(٥) مقبل بن عبد العزيز الذكير، مخطوط العقد الممتاز في أخبار تهامة والحجاز، صورة المخطوط لدى الباحث، ص٤ .

(٦) عثمان بن بشر ، المرجع السابق ، ص ٤٨ .

قائمة المصادر والمراجع

الوثائق

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ١٤ ، معية تركي ، وثيقة رقم ٢. ، في ١٢ رجب ١٢٣٨ هـ .

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ١٤ ، معية تركي ، وثيقة رقم ١٥٣ ، في ٥ ذو الحجه ١٢٣٨ هـ .

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ١٦ ، معية تركي ، وثيقة رقم ٤٥ ، في ٨ محرم ١٢٣٩ هـ .

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ٢٢ ، معية تركي ، وثيقة رقم ٩١ ، في ٢٧ رمضان ١٢٤. هـ .

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ٢. ، معية تركي . وثيقة رقم ١٥٢ ، في ٢٤ محرم ١٢٤١ هـ .

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ٢. ، معية تركي ، وثيقة رقم ١٥٣ ، في ٢٤ محرم ١٢٤١ هـ .

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ٢. ، معية تركي ، وثيقة رقم٩٩ ، في ٢٢ شعبان ١٢٤٢ هـ .

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ٢٢ ، معية تركي ، وثيقة رقم ٩.١ ، في ٣ رمضان ١٢٤٢ هـ .

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ٧٣١ ، ديوان خديوي تركي، وثيقة رقم ٦٩٣ ، في ٢٨ رمضان ١٢٤٢ هـ .

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ٣١ ، معية تركي . وثيقة رقم ٥ ، في ٦ ربيع الآخر ١٢٤٣ هـ .

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ٣٥ ، معية تركي ، وثيقة رقم ٤٣ ، في ١٢ ذو القعدة ١٢٤٣ هـ .

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ٣١ ، معية تركي ، وثيقة رقم ٢٥٦ ، في ١٦ محرم ١٢٤٤ هـ .

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ٧٥١ ، ديوان خديوي تركي، وثيقة رقم ١٦ ، في ٢٥ ذو القعدة ١٢٤٤ هـ .

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ٤٠ ، معية تركي ، وثيقة رقم ٨٢٨ ، في ٩ صفر ١٢٤٨ هـ .

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، دفتر ٤٤ ، معية تركي ، وثيقة رقم ١٥٥ ، في ٢٥ صفر ١٢٤٨ هـ .

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ٤ ، بحر برا ، وثيقة رقم ١٣٨ ، في ١٥ صفر ١٢٣٠. هـ.

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ٤ ، بحر برا ، وثيقة رقم ١٢ ، في ٣ ربيع الثاني ١٢٣٠. هـ.

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ٨ ، بحر برا ، وثيقة رقم ٩٣ ، في ٤ ربيع الثاني ١٢٣٨ هـ.

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ٩ ، بحر برا ، وثيقة رقم رقم ١١ ، في ٢١ رجب ١٢٣٩ هـ.

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ٩ ، بحر برا ، وثيقة رقم ١٢ ، في ٢١ رجب ١٢٣٩ هـ.

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة . محفظة ٩ . بحر برا ، وثيقة رقم ١٧ ، في ٢٧ رمضان ١٢٣٩ هـ .

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة . محفظة ٦ / ١٢٧ ، بحر برا ، بدون تاريخ ولا رقم.

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ١٦ ، بحر برا ، وثيقة رقم ١١٩ ، بدون تاريخ.

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ٩ ، بحر برا ، وثيقة رقم ٦٦ . في ٧ ربيع الأول ١٢٤٠ هـ.

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ٩ ، بحر برا ، وثيقة رقم ٨٧ ، في ١١ شعبان ١٢٤٠ هـ.

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ٩ ، بحر برا ، وثيقة رقم ٦٠١ ، في ٣ ذو القعدة ١٢٤٠ هـ .

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ٩ ، بحر برا ، وثيقة رقم ١٢١ ، في ١٣ ذو الحجة ١٢٤٠ هـ .

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ١٠ ، بحر برا ، وثيقة رقم ١٢ ، في ١١ محرم ١٢٤١ هـ .

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ١٠ ، بحر برا ، وثيقة رقم ١٤ ، في ١١ محرم ١٢٤١هـ.

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ١٠ ، بحر برا ، وثيقة رقم ١٧٣ ، في ٦ صفر ١٢٤١ هـ .

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ١٠ ، بحر برا ، وثيقة رقم ٤٩ ، في ١٩ربيع الأول ١٢٤١ هـ .

❖ دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ١٠ ، بحر برا ، وثيقة رقم ٦٨ ، في ٩ ربيع الثاني ١٢٤١ هـ .

❖ دار الوثائق القومية القاهرة ، محفظة ٢٦٩ ، عابدين ، وثيقة رقم ٢٥ ، في ٤ جمادى الأولى ١٢٥٦ هـ .

المخطوطات

❖ الحسن بن احمد بن عاكش ،الديباج الخسرواني في أخبار أعيان المخلاف السليماني ، تحقيق د. إسماعيل بن محمد البشري، رسالة دكتوراة غير منشور ، جامعة درم ١٩٨٨م ، ص ١٤٦

❖ عبد الرحمن بن احمد البهكلي ، نفح العود في سيرة أيام الشريف حمود ، محفوظ بقسم المخطوطات بجامعة الملك عبد العزيز بجدة ، رقم ٦١ ، ص ٢٣ . وحققه محمد بن أحمد العقيلي، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، الرياض ، ١٩٨٢م.

❖ محمد بن هادي الحفظي ، الظل الممدود في الوقائع الحاصلة في عهد ملوك آل سعود الأولين ، صورته لدى الباحث ، ص٤ . وحققه د. عبد الله محمد أبو داهش ، ط١ ، أبها ، ١٩٨٨م.

❖ مقبل بن عبد العزيز الذكير ، العقد الممتاز في أخباو تهامة والحجاز ، مخفوظ بجامعة بغداد ، صورته لدى الباحث ، ص٤ .

المصادر

❖ عثمان بن بشر ، عنوان المجد في تاريخ نجد ، جـ١،٢ ، ط٢ ، القاهرة ، ١٤.٢هـ .

❖ هاشم بن سعيد النعمي ، تاريخ عسير ، بدون تاريخ ولا مكان طبع.

المراجع

❖ عبد الرحمن الرافعي. عصر محمد علي ، ط٣ ، القاهرة ، ١٣٧.هـ .

❖ عبد الله بن علي بن مسفر ، أخبار عسير ، ط٢ ، بيروت ، ١٣٩٩هـ .

❖ محمد بن احمد العقيلي ، تاريخ المخلاف السليماني ، ج ١، ط٢، القاهرة، ١٤٠٢هـ .

❖ محمد بن عمر رفيع ، في ربوع عسير ، القاهرة ، ١٣٧٣ هـ .